

# الأربعون

في نقد كتاب (أربعون) للشقيري

وفي آخره:

فوائد منتقاة من كتاب (أربعون)

تأليف

الدكتور / محمد بن علي بن جميل المطري



# الأربعون

في نقد كتاب (أربعون) للشقيري

وفي آخره:

فوائد منتقاة من كتاب (أربعون)



# الأربعون

في نقد كتاب (أربعون) للشقيري

وفي آخره:

فوائد منتقاة من كتاب (أربعون)

تأليف

الدكتور محمد بن علي بن جميل المطري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمدُ لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، اللهم اهدنا الصراط المستقيم، وأرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، وارزقنا العدل والإنصاف، وألف بين قلوبنا على الحق، وأصلح أحوالنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا، أما بعد:

فإنَّ كتاب **(أربعون)** لمؤلفه الإعلامي المشهور الأستاذ أحمد بن مازن الشَّقِيرِي كتابٌ فيه فوائد طيبة، ونصائح مفيدة، وجَمَم متنوعة، والكتاب يقع في (٢٧٠) صفحة، قرأته قراءة سريعة في جلستين، ولم يكن في نيتي كتابة نقدٍ للكتاب، وإنما قرأته للاستفادة، ففي كثير من كتب الأدب والسِّيَر الذاتية ونحوها فوائد وثقافة، ولا يزال الأدباء والكتَّاب المعاصرون يُتَحَفُونَ القراء بالمفيد، فمستقل ومستكثر، ومنهم صاحب إبداع، ومنهم صاحب ابتداع، ومنهم من يغلب على كتاباته الصواب، ومنهم من يكتب ما يضر ولا ينفع، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ومن الكتب التي فيها إبداع وابتداع، وحق وباطل: كتاب (أربعون) للشقيري، فيؤسفني جدًّا أني وجدت في هذا الكتاب مصائب عقديّة ومنهجية خطيرة، وأفكارًا كارثية تضر قارئ الكتاب في عقيدته ومنهجه طوال حياته إن سلّم بها ولم يُنكرها، ومن أعظم ذلك الخلل في تعريف الكفار، والغلو في الإرجاء، ولينته اكتفى ببدعة الإرجاء التي وقع فيها بعض أهل البدع من المسلمين، بل جاوز ذلك إلى ادّعاء أنّ بعض اليهود

والنصارى والبوذيين وغيرهم ليسوا كفاراً<sup>(١)</sup>، وكيف لا يكونون كفاراً وهم لا يقولون: لا إله إلا الله، ولا يؤمنون بمحمد  $\gamma$ ، ولا بالقرآن الكريم! وقرّر الشقيري أنّه لا يكون كافراً مَنْ جاءته رسالة النبي محمد  $\gamma$  كاملة، ولكنه لم يقتنع بها لأي سبب، لا كبيراً ولا عناداً ولا تحدياً<sup>(٢)</sup>! ونقل الشقيري كلام رجل برتغالي التقى به، ذكر أنّ جميع الذين يؤمنون بوجود الله بأي مسمى سموه يدخلون الجنة، فأقره الشقيري ولم يتعقبه<sup>(٣)</sup>، وهذه عقائد وأفكار خطيرة جداً، وفيها تمبيع لشعيرة الولاء والبراء التي هي من أصول الدين، وفيها مخالفة لمنهج الأنبياء المقررة في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، ولو كان الأمر كما يزعم الشقيري فلا داعي لدعوة

(١) يُنظر: أربعون للشقيري (ص: ٩٤، ٩٥، ٩٩). ومما ذكره الشقيري (ص: ٩٥) أنّ بعض مَنْ قابلهم من النصارى الكاثوليك في أمريكا واليونان وألمانيا وغيرها يقولون: نحن نعبد الله، والمسيح ليس الله، ويذكرون المسيح في دعواتهم بشكل قريب من ذكر المسلمين لمحمد  $\gamma$  بالصلاة والسلام عليه، ثم قال: "ليتنا لا نستعجل في الحكم على الآخرين، ونعمم ونطلق كلمة كفار بكل سهولة واستهتار على الناس دون فهم ودون تحر"، ولولا أنني أحسُّ الظن بالشقيري لكان مفهوم قوله هذا ولازمه الطعن في جميع علماء المسلمين وعامتهم الذين يحكمون على من لم يتشهد الشهادتين، ولم يُقرَّ بالقرآن الكريم ودين الإسلام أنّه كافر، والطعن في علماء الأمة بأنهم مستعجلون مستهترون في الحكم على الناس بالكفر، ولا يفهمون فهمه، ولا يتحرون مثله! وغالب الظن أنّ الشقيري عفا الله عنا وعنه لم يتنبه لهذا اللزام، وأنّه لا يريد ذلك.

(٢) يُنظر: أربعون للشقيري (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: أربعون للشقيري (ص: ٨٢).

الكافرين إلى الدخول في الإسلام، وقد أثنى المؤلف على بعض الكفرة، ولم يبين ضلالهم وكفرهم، كبوذا وغاندي وأينشتاين، وذكر أحد الكفرة المطربين المعاصرين، وهو ألفيس بريسلي الأمريكي المتوفى سنة (١٩٧٧م) في حمام بيته بسبب جرعة حبوب زائدة، ثم قال الشقيري عنه: "الله أعلم ما هو حكم الله على ألفيس، وما هي ظروفه الشخصية التي أدت لهذا، والله وحده يعرف مصيره، وهو الذي سيحاكمه، وليس لبشر أن يحكم على أي إنسان<sup>(١)</sup>"، وما أدري ماذا سيقول الشقيري عن قصة صاحب الجنتين الذي حكم عليه صاحبه بالكفر حين شك في قدرة الله على بعث عباده يوم القيامة: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۗ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٧-٣٨]، فكل من أظهر الكفر ومات على غير الإسلام فنحن نحكم عليه بأنه مات كافرًا، ولا يصح أن نحكم عليه بالإسلام وهو لم يشهد أن لا إله إلا الله، ولم يشهد أن محمدًا رسول الله، ولا شك أن أمر كل كافر إلى الله سبحانه، وهو أعلم بكل أحد، وهو الذي سيحاسب الناس أجمعين، لكن لا يعني هذا أن لا نحكم على الناس بما ظهر لنا من أمرهم.

والشقيري بحمد الله يؤمن بالسنة النبوية، ويعرف أهميتها، ويثبت حجيتها، فهو يستشهد في كتابه بالأحاديث النبوية، ويذكر تخريجها والحكم عليها بالصحة أو الضعف، إلا أنه أشار إلى رد بعض الأحاديث الصحيحة وشكك في صحتها بدعوى أنها ظنية الثبوت مع كونها في صحيح البخاري ومما أجمع أهل الحديث على ثبوتها؛ لكونه يرى أنها مخالفة للقرآن الكريم أو

(١) أربعون (ص: ١٢٥).

مخالفة لما يعتقد من عدم كفر من لم يُسلم ضعفاً أو خوفاً من كلام قومه، وهذا يدل على عدم انضباط الشقيري بالمنهج العلمي في البحث، ولا رجوعه إلى المتخصصين في العلوم الشرعية، قال الشقيري ما نصه: "حرية الدين مكفولة بعشرات الآيات الواضحة الدلالة، وأستغرب ممن ينقض كل هذه الآيات القطعية الثبوت وهي بالعشرات من أجل حديث أو حديثين ظني الثبوت، يناقضوا مبدأ حرية الدين الواضحة وضوح الشمس في القرآن" (١)، وقال: "الأحاديث التي تتحدث عن أبي طالب وأنه في جهنم أحاديث لا يُجزم بها قطعاً" (٢).

وفي كلامه هذا خلل علمي كبير في العقيدة وفي علم الحديث، فلا يوجد أصلاً حديث صحيح يخالف القرآن الكريم، ويدل كلامه هذا على عدم رسوخه في علم الحديث رواية ودراية، وعدم المعرفة الواضحة بطريقة العلماء في تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع، فعقدتُ في كتابي هذا بعض الفصول المهمة المتعلقة بالسنة النبوية، وفصولاً تتعلق بأصناف الكفار، ومصير الكافرين المعاصرين، ومشروعية الجهاد في الإسلام، وبيان معنى أنه لا إكراه في الدين، وحكم الردة عن الإسلام، وبيان الحرية المشروعة والحرية الباطلة.

والمشكلة أن كثيراً من قراء كتاب (أربعون) والمعجبين بمؤلفه أحمد الشقيري وفقنا الله وإياهم لكل خير ليسوا من طلاب العلم الشرعي، فقد لا يُميّزون بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، ولا سيما مع كثرة فوائد

(١) أربعون (ص: ٨٣).

(٢) أربعون (ص: ٩٩).

كتاب (أربعون)، وإنِّي أُشَبِّهُ الكتاب بمائدةٍ فيها ألوانٌ من الطعام الشهي والفاكهة الطيبة، وفيها سَمٌّ قاتلٌ مخفيٌّ في عسلٍ، وصاحب المائدة يعرض ذلك العسل على ضيوفه وهو لا يعلم ما فيه من السم، ويحرص على إكرام أصدقائه بأكل ذلك العسل وهو لا يدري أنَّ فيه هلاكهم، فمن كان يعلم حقيقة الأمر يجب عليه أن يبين للناس الواقع، ويحذِّرهم مما في تلك المائدة الشهية من السم الخفي، وإن صعب على الناس قبول نصيحته، ولا سيما المعجبون بصاحب المائدة، الذين يعلمون حسن أخلاقه وصدقه في إرادة إكرامهم، وهذا حال كتاب (أربعون) ومؤلفه المشهور بين الملايين من الشباب المثقفين، ممن أُجِب لهم الخير في دينهم ودنياهم، ولم أكتب هذا الكتاب إلا نصيحة لهم، فالدين النصيحة، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فواجب على من علم الواقع أن ينصح الأستاذ أحمد الشقيري وقراء كتابه، والظاهر من حال المؤلف أنَّه يتقبل النصيحة، وأنَّ قلبه يتسع للنقد والتصحيح والمراجعة، ويعجبني فيه إحسانه وحسن أخلاقه، وحرصه العظيم على صلاة الفجر جماعة ولو بعد المسجد حتى في أسفاره كما أخبر بذلك عن نفسه، وحرصه على دعاء الله سبحانه، وهذا سبب عظيم للهداية، وقد قال الشقيري في خاتمة كتابه: "ما كتبتُه في هذا الكتاب يُلخِّصُ تجربتي البشرية وقناعاتي الحالية وأنا عمري في الأربعينات، قد تتغير هذه القناعات أو تتعدل في السنين القادمة، ولعلي أكتب كتابًا بعد عشر سنوات أُغَيِّر فيه أو أصحح بعض المفاهيم أو أعمقها، فالإنسان دائم التغير، وثبات الحال من المحال"، فنسأل الله لنا وله الهداية وحسن الخاتمة.

هذا، وقد وجدت حلقة مرئية في قناة السبيل في اليوتيوب بعنوان: **(مراجعة كتاب أربعون لأحمد الشقيري)** للأستاذ أحمد دعوش، فيها نقدٌ قيمٌ للكتاب، وتنبهاتٌ مهمةٌ، فأحيل إليه من أراد بعض التفاصيل، وأما نقدي في هذا الكتاب فهو إجماليّ بلا تفصيل، أذكر أربعين فصلاً، في كل فصل تصحيح بعض المفاهيم التي أخطأ فيها الشقيري أو فيها بيان بعض المفاهيم العقدية والحقائق العلمية التي يجب معرفتها والتأكيد عليها، وبعضها ذكرها الشقيري في كتابه باختصار، وحقها التفصيل والبيان<sup>(١)</sup>، وذكرتُ في آخر الكتاب فوائد حسنة منتقاة من كتاب **(أربعون)**، وهذا من الإنصاف للشقيري حتى لا نبخسه جهده، ولا ننكر فوائد كتابه، ومن النصح للقراء حتى لا تفوتهم تلك الفوائد الحسنة، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

## محمد بن علي بن جميل المطري

صنعاء - اليمن

٢٦ شهر ذي الحجة ١٤٤٥هـ

(١) مثل كون الإسلام صالح لكل زمان ومكان، واجتهاد العلماء المعاصرين، والتجديد في الدين، ومنزلة العلماء في الإسلام، والوسطية. يُنظر: أربعون للشقيري (ص: ١٤).

## (١) هداية القرآن وتبينه لكل شيء

فضل القرآن عظيم، وعظمته وبركته لا نهاية لها، فهو كلام الله الذي جعله نورًا وهداية للناس في كل زمان ومكان، يخرجهم به من الظلمات إلى النور، ويهديهم به إلى الحق المبين في جميع أمورهم الدنيوية والدنيوية، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فكل ما يحتاج الناس إليه بيّنه الله في كتابه العظيم نصًا أو دلالة أو استنباطًا، علمه من علمه، وجهله من جهله، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، أي: يهدي الناس للخصلة التي هي أحسن الخصال في جميع الأمور، وفي كل الأحوال.

يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، ويقول سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، ويقول ﷻ: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، فالقرآن نورٌ وهدايةٌ ورحمةٌ في الدنيا والآخرة لكل من آمن به واتبعه، ففيه صلاح الأفراد والشعوب والدول، وفيه حل جميع مشاكل الناس المختلفة، فهو كتاب هداية وحكم، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال

سبحانه: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْسِدُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَحْكَمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وإنَّ المتدبر في آيات القرآن يجد أن الله قد بيَّن الحق للناس بوضوح في جميع الأمور، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩]، فأعظم مقاصد القرآن هداية الناس إلى الصراط المستقيم، وإخراجهم من ظلمات الكفر والشرك والجهل والمعاصي والظلم، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

فالقرآن أفضل وأعظم كتاب على الإطلاق، وهو أحق ما يُقرأ ويُستمع له ويُحفظ ويُدرَس، كتاب كامل لا نقص فيه، أخباره صادقة، وأحكامه عادلة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام، كتاب قيِّم مستقيم، لا خطأ فيه أبدًا، لا في حروفه وألفاظه، ولا في معانيه وأحكامه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا﴾ [الكهف: ١-٢]، فهو مستقيم لا إفراط فيه ولا تفريط، وهو مقيم لمصالح العباد في دينهم ودنياهم، فبه قيام الأمة إن تمسكت به، كما قال

تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: في هذا القرآن عزكم وشرفكم، أفلا تعقلون؟!

هذا القرآن حبل النجاة، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومن اتَّبَعَ القرآن فلا خوف عليه بعد موته، ولا يحزن على ما ترك في دنياه، ولا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

أولو العقول يستمعون القرآن ويتبعونه، ويتدبرونه ويهتدون به، ويتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

حين استمع القرآن نفرٌ من الجن آمنوا به في جلسة واحدة، وشهدوا له بالعجب في فصاحته وبلاغته، وفي معانيه وهداياته، وفي بركته وتأثير مواظته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١-٢].

لو أنزل الله القرآن على جبل ففهمه لتصدع من خشية الله سبحانه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

هذا القرآن يُثَبِّتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [النحل: ١٠٢]، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَى الْحَقِّ فَعَلِيهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿١٧٢﴾﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨].

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٧٣﴾﴾ [القمر: ١٧]، يسر الله هذا القرآن للذكر، فينتفع به كل من يتلوه ويتدبره، ويجد كل إنسان في القرآن من الهدايات ما يناسب حاله، ففيه هدايات للعلماء والعامة، والرؤساء والوزراء، والقادة والزعماء، والأغنياء والفقراء، والتجار والعمال، والأصحاء والمرضى، والرجال والنساء، فيه هدايات للمنتصرين والمنهزمين، فيه هدايات للمستضعفين، فيه بيان أسباب النصر والتمكين، فيه هدايات لجميع الناس في كل زمان ومكان، فيه ذكر أصول الإيمان وتصحيح العقائد، فيه الأمر بتوحيد الله سبحانه والإخلاص له، والنهي عن الشرك به، فيه تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن سيئها، فيه الحث على عبادة الله وذكره ودعائه، فيه أفضل الدعوات، فيه بيان الأحكام التي شرعها الله لمصالح عباده، فيه الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ، المبيّن بسنته ما أنزل الله عليه في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّهُوْا﴾ [الحشر: ٧]، وقال β: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٥٤﴾ [النور: ٥٤].

في هذا القرآن بيان الحق في كل ما يختلف الناس فيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ [النحل: ٦٤]، فمن أبصر الحق في القرآن واتبعه فقد اهتدى، ومن أعرض عن الحق فلا يلومنَّ إلا نفسه، قال تعالى: ﴿فَدَجَّاءَ كُفَّ بَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ [الأنعام: ١٠٤].

في هذا القرآن ذكر صفات المؤمنين لنقتدي بهم، وفيه ذكر صفات الكافرين والمنافقين لنحذر من الاتصاف بصفاتهم، في القرآن الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، والبشارة للمؤمنين، والإنذار للكافرين والمنافقين والظالمين والفاسقين، في القرآن بيان حقيقة الدنيا الفانية، وحقيقة الآخرة الباقية، وفيه المواعظ البليغة، والأمثال العظيمة، والقصاص التي فيها عبرة، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٥٤﴾ [الكهف: ٥٤].

في القرآن بيان من يحبهم الله، ومن لا يحبهم الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الظالمين ﴿٥٧﴾ [آل عمران: ٥٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاتًا أَثِيمًا ﴿١٧﴾﴾  
[النساء: ١٠٧]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣].

أيها القارئ الكريم، ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾  
﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾  
[العلق: ١-٥]، اجتهد في تلاوة القرآن الكريم، ولا تلتفت إلى من يُزهدك في  
الإكثار من تلاوته، واحرص على تعلم تفسيره وتدبره، فالقرآن خير ما تقرأ،  
وهو خير ما كُتِبَ بالقلم، وهو أعظم ما علَّم الله عباده، ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾  
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمن: ١-٣]، وتلاوة القرآن واتباعه تجارة رابحة لا  
تخسر ولا تنفد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَجُودُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿١٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ  
وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]، وعن عثمان بن  
عفان  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»<sup>(١)</sup>.

أيها القارئ الكريم، اعلم أنك مهما عظمت القرآن الكريم فهو أعظم مما  
تظن، وهدايات القرآن ونوره وبركته وخيره في الدنيا والآخرة أكثر مما  
يخطر ببالك، وكلما تلوته وتدبرته وتعلمته ازدادت إيمانًا وعلماً وحكمة  
وهداية، فهو معجزة النبي  $\mu$  الخالدة.

إنه لقرآن كريم، عظيم، حكيم، مبين، مجيد، مبارك، ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ  
وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢].

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

الأعمون

## (٢) بيان أن معاني آيات القرآن ترجع إلى سورة الفاتحة

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) [الحجر: ٨٧]، فالسبع المثاني هي سورة الفاتحة كما في حديث أبي سعيد بن المعلى  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»<sup>(١)</sup>، وقد اشتملت سورة الفاتحة على أصول ما يحتاجه المسلم للهداية إجمالاً، وجاء تفصيل ذلك في بقية القرآن الكريم، فمعاني جميع آيات القرآن ترجع إليها؛ ولهذا تُسمَّى أم القرآن، وهي أعظم سورة في القرآن، ويجب على المصلي قراءتها في كل ركعة، وسُمِّيت سورة الفاتحة لأنَّ المصلي يبدأ بقراءتها في صلاته، ولأنَّه يبدأ بكتابتها وقراءتها في المصاحف، وسُمِّيت السبع المثاني لكونها سبع آيات، وتثنى وتعاد قراءتها في كل ركعة في الصلاة<sup>(٢)</sup>.

يقول الله تعالى في أول سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٢) ذكر الشقيري في كتابه (أربعون) (ص: ٨١، ٨٢) أن بعض الجهال يسأل عن سبب تكرار سورة الفاتحة في كل ركعة، وذلك في كل يوم ١٧ مرة، ورد عليهم الشقيري بأن المصلي لو كان يتذكر حين يقرأ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] نعمة قديمة عليه، فسيشعر بمعنى جديد في كل مرة يقرأها، وهذا جواب ناقص، وفيه قصور شديد، وفي هذا الفصل بيان الجواب بالتفصيل.

علمنا الله أن نبتدئ قراءة القرآن مستعينين به، متبركين بذكر اسمه، كما قال الله في أول سورة أنزلها على رسوله محمد ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فيقول القارئ حين يقرأ القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [الفاتحة: ١] أي: باسم الله أبتدئ قراءتي.

والله هو المعبود الحق دون ما سواه، وهو الاسم الأعظم على التحقيق عند كثير من العلماء؛ لأنه متضمن كل اسم من أسماء الله، وجميع الأسماء الحسنى تابعة له، مضافة إليه، ولا يضاف اسم الله إليها<sup>(١)</sup>، وهو أخص أسماء الرب سبحانه، فلا يسمى به غير الخالق تبارك اسمه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الفاتحة: ١] اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: صاحب الرحمة الواسعة، فالرحمة صفة ذات الله سبحانه، ورحمته وسعت في الدنيا جميع خلقه، فهو الذي أوجدهم من العدم بقدرته، وتفضل عليهم بأنواع النعم الظاهرة والباطنة برحمته، وهو يرحم في الدنيا المسلم والكافر، والصالح والعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]،

(١) يُنظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص: ٢٤، ٢٥)، التوحيد لابن منده (٢ / ٢١)، أحكام القرآن لابن العربي (٢ / ٣٤٣)، التفسير الكبير للرازي (١ / ١١١)، فتح الباري لابن حجر (١١ / ٢٢٤، ٢٢٥)، درر الفرائد المستحسنة لابن عبد الحق (١ / ١٤١)، روح المعاني للألوسي (٥ / ١١٥).

فرحمة الله وسعت في الدنيا كل شيء، لكنها في الآخرة لا تكون إلا لعباده المتقين، الذين يؤتون الزكاة، ويؤمنون بآيات الله، عن أبي هريرة  $\eta$  عن النبي  $\gamma$  قال: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

﴿الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ١] اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: صاحب الرحمة الواصلة إلى عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فالله يرحم المؤمنين في الدنيا والآخرة، ويلطف بهم، وفي هذا ترغيب في تحقيق الإيمان والتقوى ليفوز المؤمن برحمة الله الخاصة، وفضله ولطفه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

يُعَلِّمُ الله عباده أن يحمده بهذا القول، والتقدير: قولوا: الحمد لله. والحمد له معنيان: المعنى الأول: بمعنى الثناء، والمعنى الثاني: بمعنى الشكر، فالحمد بمعنى الثناء والحمد بمعنى الشكر لله سبحانه، فمعنى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] أي: الثناء كله لله وحده، والشكر كله لله وحده.

(١) رواه مسلم (٢٧٥٢).

فالتناء كله لله؛ لأنه الخالق الكامل في صفاته، وما سواه مخلوق ناقص،  
كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ  
﴿١٥﴾ [فاطر: ١٥].

والشكر كله لله؛ لأن جميع النعم الظاهرة والباطنة، الدنيوية والدينية من  
عند الله وحده، وبتييسيره ورحمته، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً  
وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

عن عبد الله بن مسعود  $\eta$  عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَا  
أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»<sup>(١)</sup>.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاحة: ٢] الرب هو الخالق المالك المدبر، والعالمين  
هم كل ما سوى الله من جميع المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن  
والدواب والجمادات، فالله خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومدبر الكون  
وما فيه، والمتصرف في جميع المخلوقات بقدرته وعلمه وحكمته.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاحة: ١]

الرحمن الرحيم اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى، دالان على صفة  
الرحمة كما يليق بعظمة الله، والفرق بينهما أن اسم (الرحمن) يدل على  
رحمة الله العامة بجميع الخلق، واسم (الرحيم) يدل على رحمة الله الخاصة  
بالمؤمنين، وأسماء الله كلها حسنى، بالغة الغاية في حسن الألفاظ والمعاني،

(١) رواه البخاري (٤٦٣٧) ومسلم (٢٧٦٠).

والدلالة على كمال الصفات والعظمة، والتنزه عن جميع النقائص، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن أبي هريرة  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» (١).

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]

أي: مالك يوم الجزاء والحساب، فمن أسماء يوم القيامة: يوم الدين؛ لأن الله يحاسب فيه جميع عباده الأولين والآخرين، ويجازيهم بأعمالهم، خيرها وشرها، ولا يملك أحد في ذلك اليوم شيئاً لنفسه ولا لغيره.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]

يُعَلِّمُ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: نخصك - يا ربنا - بالعبادة، متذللين لك وحدك لا شريك لك، ونستعين بك وحدك في جميع أمور ديننا ودنيانا، ونتوكل عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي حديث عبد الله بن عباس  $\kappa$  أن النبي  $\gamma$  قال له: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» (٢).

(١) رواه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦) وصححه.

فيجب على الإنسان أن يعبد الله وحده لا شريك له، ولا يعبد غيره كائناً من كان، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [١٨] [الجن: ١٨]، فيخلص المسلم جميع عباداته لله وحده، من صلاة وصيام وزكاة وحج، وغير ذلك من العبادات القلبية والقولية والفعلية، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [١١٠] [الكهف: ١١٠].

ويجب على المسلم أن يتوكل على الله وحده، فيعتمد قلبه على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره في دينه ودنياه، مع الأخذ بالأسباب الشرعية، والتوكل عبادة قلبية تدل على كمال إيمان صاحبها، وتفويض أموره إلى الله القادر على كل شيء، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٣] [المائدة: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ [١٣] [التغابن: ١٣].

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفتحة: ٦]

أي: دُلْنَا ووفّقنا إلى الطريق الواضح الواسع، الذي لا اعوجاج فيه ولا ضيق، ولا إفراط فيه ولا تفريط، وهو دين الإسلام الموصل إلى رضا الله وجنته، وهو طريق واحد لا يتعدد، ومن سلك غيره فقد ضل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [١٥٣] [الأنعام: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٨٥] [آل عمران: ٨٥].

وهذا الصراط المستقيم هو الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ، وهو طاعة الله وطاعة رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]، وقال سبحانه عن رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٧٣]. [المؤمنون: ٧٣].

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [٧] [الفاتحة: ٧]

أي: اهدنا طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الذين علموا الحق وعملوا به، وجئنا طريق المغضوب عليهم الذين علموا الحق ولم يعملوا به كاليهود ومن تشبه بهم من هذه الأمة، وجئنا طريق الضالين الذين لم يهتدوا إلى الحق لجهلهم بالحق، فهم يعملون بأهوائهم وآرائهم المخالفة لشرع الله، كالنصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقال الله عن اليهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال الله عن النصارى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال الله عن المنافقين والمشركين: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وعن عدي بن حاتم الطائي  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «الْيَهُودُ مَعْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَلَالٌ»<sup>(١)</sup>.

ويُستحب لمن قرأ سورة الفاتحة أن يقول: (أمين)، بمعنى: اللهم استجب، ففي سورة الفاتحة أعظم وأفضل دعاء، وهو الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، وعن أبي هريرة  $\eta$  عن النبي  $\gamma$  قال: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿عَبَّرَ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ وَاَفَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٤) وحسنه، وصححه الألباني وغيره. قال ابن أبي حاتم في تفسيره

(١ / ٣١): "لا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً".

(٢) رواه البخاري (٧٨٢) وصحيح مسلم (٤١٠).

## هدايات وفوائد مهمة في سورة الفاتحة:

(١) فضل ذكر اسم الله، والابتداء باسمه في الأمور المهمة كالقراءة والكتابة والأكل والشرب ونحو ذلك، فإذا دُكِرَ اسم الله في شيء وضع الله فيه بركته، وقد أخبر الله عن نبيه نوح  $\mu$  أنه قال لأصحاب السفينة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرسَلَهَا﴾ [هود: ٤١].

(٢) الله هو الرحمن الرحيم، وقد بدأ سورة الفاتحة بهذين الاسمين الكريمين، وكررها في هذه السورة للتأكيد على سعة رحمته، ودين الله هو دين الرحمة، فإذا علم المسلم سعة رحمة الله رجاءه، ولم يقنط من رحمته، وتاب إلى الله من ذنوبه مهما عظمت وكثرت، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، والله يحب الرحماء من عباده، وأخبر أن رحمته قريب من المحسنين الذين يرحمون عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فمن أعظم الأخلاق التي يأمر بها الإسلام: الرحمة بالخلق، وعلى الدعاة إلى الله أن يكونوا رحماء بالناس، وأن يكونوا ميسرين لا معسرين، ومبشرين لا منقرين، وعليهم أن يستغفروا للمذنبين، مع نصحهم بالحكمة والكلمة اللينة الطيبة، ووعظهم بالموعظة الحسنة، وهكذا كان نبي الرحمة محمد  $\gamma$ ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين، كما قال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأنْفَضُوا مِن حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال

β: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

(٣) إذا علم المسلم استحقاق الله لجميع المحامد، واستحقاقه الشكر على نعمه التي ربي بها جميع خلقه، فإنه يمتلئ قلبه من محبة الله، كما قال الله عن عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ومن أحب الله اجتهد في عبادته، وحرص على طلب رضاه.

(٤) إذا تذكر المسلم أن الله هو مالك يوم القيامة، وأنه يبعث عباده للحساب والجزاء، خاف ذلك المقام العظيم، فترك المعاصي والآثام، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وتقدّم أن تذكر المسلم سعة رحمة الله تجعله يرجو رحمته الواسعة، ويجب على المسلم أن يجمع في قلبه بين رجاء رحمة الله والخوف من عذابه، كما قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(٥) حث المسلم على الاستعداد ليوم الحساب بالأعمال الصالحة، والصبر على البلاء في الدنيا الفانية، والرغبة في الآخرة الباقية، فالدنيا أمد، والآخرة أبد، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٨] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [١٩] لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ [٢٠] [الحشر: ١٨-٢٠].

(٦) في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] براءة من الشرك والرياء، فيعاهد العبد ربه أنه يعبده وحده، وأنه لا يشرك به شيئاً، وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] براءة من الكِبْر والعُجْب، فيتذكر العبد أن أي فضيلة فيه دينية أو دنيوية فهي من فضل الله عليه، وهو الذي أنعم بها عليه وأدامها، فلماذا يتكبر ويفخر بها على غيره؟ ولماذا يعجب بها وهي من فضل الله عليه، ولو شاء لسلبه إياها؟ فيتواضع العبد حين يتذكر أن الله هو الذي أنعم عليه النعم التي لا تحصى، وأعانه على تحصيل الفضائل، فلا يتكبر على عباد الله ولو كانوا مذنبين، ويتواضع لمن ينصحهم ولو كانوا مخطئين.

(٧) تقديم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] لأن العبادة هي الغاية من خلق الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، والاستعانة هي الوسيلة، فقَدِّمت الغاية على الوسيلة، فيجب على المسلم أن يجعل عبادة الله همه وغايته، ويستعين بالله على تحقيقها.

(٨) علمنا الله أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ولم يقل: إياك أعبد وإياك أستعين، وهذا يدل على أهمية الاجتماع في العبادات التي يشرع الاجتماع فيها كالصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣]، فيصلي المسلم الفريضة في المسجد مع جماعة المسلمين، وفي الآية حث للمسلمين على التعاون على البر والتقوى فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم.

(٩) قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] هذا أعظم دعاء على الإطلاق، فالمسلم يحتاج أن يهديه الله لمعرفة الحق في أمور دينه، ومعرفة الصواب في أمور دنياه، وما يجهله العبد أكثر مما يعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ويحتاج العبد أن يوفقه الله لأحسن الأعمال والأخلاق في جميع أموره وأحواله، وإذا علم العبد الحق يحتاج أن يوفقه الله للعمل به، وإذا عمل به يحتاج أن يوفقه الله للثبات عليه، فحاجة المسلم إلى هذا الدعاء فوق كل حاجة؛ ولذلك أوجب الله على المسلم أن يدعو ربه بهذا الدعاء في كل ركعة من صلاته.

(١٠) القرآن كتاب هداية، فمن أراد الهداية إلى الصراط المستقيم فليتدبر القرآن ويتبعه، فهو يهدي للخصلة التي هي أحسن الخصال في جميع الأمور، وفي جميع الأحوال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وتأمل قول الله في أول سورة البقرة التي تلي سورة الفاتحة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فكأن الله يقول: يا من يريد الهداية إلى الصراط المستقيم تدبر هذا القرآن العظيم واتبعه، فهو يهدي المتقين، ويبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه.

(١١) الصراط المستقيم طريقٌ قديم، سلكه جميع الصالحين من قبلنا، وليس طريقاً جديداً محدثاً، ففي هذه الآية إبطالٌ لجميع البدع التي لم تكن من منهج الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، قال الله لنبيه محمد ﷺ بعد أن ذكر الأنبياء السابقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وعن عائشة ١ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي

أَمْرًا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» (١) أي: من أحدث شيئاً في الدين فهو باطل غير معتد به، وهذا الحديث صريح في رد كل البدع.

(١٢) هذه الآية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] قَسَمْتَ جميع الناس إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** من علم الحق وعمل به، **القسم الثاني:** من علم الحق ولم يعمل به، **القسم الثالث:** من جهل الحق، وعمل بالباطل على جهل. ففي جميع الأمور ينقسم الناس إلى هذه الثلاثة الأقسام، في الواجبات، وفي المحرمات، وفي الفتن والخلافات المالية والأسرية والسياسية، فمن الناس من يعلم الحق ويعمل به، ومنهم من يعلم الحق ولا يعمل به، اتباعاً لهواه، أو طلباً لدنيا زائلة، ومن الناس من يضل عن الحق جهلاً، وهو يحسب أنه يُحسِنُ صُنْعًا، وهذا التقسيم في جميع الأمور والأحوال، فمثلاً: من الناس من يعلم أن الصلوات الخمس واجبة عليه، فهو يحافظ عليها في أوقاتها، فهذا علم الحق في هذا الأمر وعمل به، ومن الناس من يعلم أن الصلوات الخمس واجبة عليه، لكنه يتهاون بها، ويترك بعض الصلوات مع علمه بإثمه العظيم، فهذا تشبّه باليهود الذين يعلمون الحق ولا يعملون به، ويُخشى عليه غضب الله إن لم يتب إلى الله، ومن الناس من لا يعلم أن الصلوات الخمس واجبة عليه، ولا يعلم أنها عمود الدين، ولا يعلم أنه يأثم أعظم الإثم بترك صلاة واحدة، فأضاع الصلاة، واتبع الشهوات، ولا يصلي إلا صلاة الجمعة أو بعض الصلوات بحسب رغبته، فهذا ضال. ومثال آخر: من الناس من يعلم أن

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

التعامل بالربا محرم، فهو يترك التعامل بالربا؛ لعلمه بأن الله حرمه، وأن الله لا يحرم شيئاً إلا لضرره في العاجل والآجل، فهذا من المهتدين في هذا الأمر، ومن الناس من يعلم أن الربا محرم لكنه يتعامل بالربا، مع علمه بأنه من كبائر الذنوب، ومع علمه بأنَّ أكل الربا ومؤكله وكتابه وشاهده ملعونون، ومع هذا يتعامل بالربا طمعاً في ربحٍ فإنَّ أو رغبة في مصلحة زائلة، فهذا فيه شبهة باليهود المغضوب عليهم، ومن الناس من يجهل أن الربا محرم، فهو يتعامل به أو يقع في بعض المعاملات الربوية التي لا يعلم أنها من الربا، ولا يسأل أهل العلم عن حكمها، فهذا ضال. وهكذا في جميع الواجبات وفي جميع المحرمات ينقسم الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة، فعلى المسلم أن يحرص على سؤال الله الهداية في جميع أموره، وأن يدعو الله دعاء الغريق أن يهديه إلى الحق في جميع أحواله.

(١٣) على المسلم أن يتعلم دينه، وأن يسأل الفقهاء عن الحلال والحرام حتى لا يكون من الضالين، وعليه أن يعمل بالحق الذي تعلمه حتى لا يكون من المغضوب عليهم.

(١٤) الحذر من طاعة اليهود والنصارى، ومن التشبه بهم فيما هو من خصائصهم، والحرص على مخالفتهم في أمورهم الخاصة بهم، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال β: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

أَقْوَمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ [المائدة: ٥١]، وعن أبي سعيد الخدري  $\eta$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرٍ ضَبِّ لَاتَبَعْتُمُوهُمْ!» قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟! قال: «فَمَنْ؟»<sup>(١)</sup>. وقد دل هذا الحديث على أنَّ طوائف من شرار هذه الأمة سيتبعون طرق المغضوب عليهم والضالين، فلا يقع اليهود والنصارى في شيء من الضلالات إلا ومن هذه الأمة من يقع فيما وقعوا فيه، فحذرنا نبينا محمد  $\gamma$  من اتباع سبل أولئك الذين تركوا الحق عمدًا لفساد نياتهم أو تركوا الحق جهلاً لفساد علمهم، فما من انحراف في هذه الأمة إلا وأصله يرجع إلى تشبُّه باليهود المغضوب عليهم أو تشبُّه بالنصارى الضالين؛ ولذلك شرع الله للمسلم أن يسأله دائماً الهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية، فأبي مخالفة للحق من هذه الأمة فهي ترجع إلى شُعبةٍ من شُعب اليهود أو شُعبةٍ من شُعب النصارى، فمثلاً عدم تعظيم الله ورسوله، وكتمان الحق، وخط الحق بالباطل، والحسد، وعقوق الوالدين، والتهاون بالصلاة، ومنع الزكاة، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وظلم الناس، والقتل بغير الحق، والإعراض عن الحكم بما أنزل الله، والإيمان ببعض الكتاب دون بعض؛ كلها من صفات اليهود كما بيَّن الله ذلك في كتابه، والجهل بالعقيدة الصحيحة، والابتداع في الدين ابتغاء رضوان الله بما لم يدل عليه دليل، والغلو في الصالحين؛ كلها من صفات النصارى كما بيَّن الله ذلك في كتابه.

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).

## بيان اشتغال سورة الفاتحة على جميع معاني القرآن الكريم:

سورة الفاتحة هي أم القرآن وأساسه، فإليها ترجع جميع معاني آيات القرآن الكريم، وكل آيات القرآن تُفصّل معنى ما أجملته الفاتحة، وبيان ذلك فيما يلي:

• الآيات التي فيها بيان عظمة الله، والتعريف بأسمائه الحسنى، كلها تبين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

• الآيات التي فيها حمد الله وشكره، وبيان كثرة نعمه على عباده، وربوبيته لجميع خلقه من الإنس والجن والملائكة وجميع الدواب والجمادات، كلها تبين وتفصيل لمعنى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

• الآيات التي فيها رحمة الله العامة بخلقه، ورحمته الخاصة بعباده الصالحين، كلها تبين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

• الآيات التي فيها إثبات البعث بعد الموت، وذكر القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار، كلها تبين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

• الآيات التي فيها الأمر بعبادة الله وحده، والتحذير من الشرك به، والآيات التي فيها بيان العبادات المتنوعة من صلاة وصوم وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد وصبر وشكر وذكر لله ودعاء واستعاذة وتوكل وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والنصيحة وغير ذلك من العبادات الظاهرة

والباطنة، كلها تبيين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وكذلك الآيات التي فيها الحث على الاجتماع، وترك التفرق والاختلاف، والأمر بالتعاون على البر والتقوى، كلها تدخل في معنى هذه الآية.

• الآيات التي فيها بيان الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وتوضيح الإسلام وأحكامه وشرائعه، والأمر بالتوسط بلا إفراط ولا تفريط، والنهي عن الغلو والتكلف، والنهي عن تحريم الحلال وتحليل الحرام، كلها تبيين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

• الآيات التي فيها الإخبار عن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وذكر قصصهم، كلها تبيين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ لنقتدي بهم في دعوتهم وصبرهم وأخلاقهم وعبادتهم لله ودعائهم.

• الآيات التي فيها الإخبار عن الكفار والمشركين، وبيان صفات اليهود والنصارى والمنافقين وعلماء السوء، والمعرضين عن كتاب الله وتحكيمه، والغافلين عن عبادة الله وطاعته، كلها تبيين وتفصيل لمعنى قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ لنحذر من الاتصاف بصفاتهم.

### فما أعظم سورة الفاتحة التي هي أفضل سورة في القرآن!

نسأل الله أن يبارك لنا في سورة الفاتحة والقرآن العظيم، وأن يهدينا إلى الاعتصام بالقرآن فنتلوه حق تلاوته، ونتدبره ونعمل به ونتحاكم إليه، ونسأل

الله برحمته أن يهدينا بالقرآن إلى صراطه المستقيم، وأن يجنبنا طريق  
المغضوب عليهم والضالين، آمين.

## (٣) طرق تفسير القرآن الكريم ووجوب تدبره وكيفية الاستنباط منه

لمعرفة تفسير القرآن الكريم خمس طرق صحيحة هي:

- (١) تفسير القرآن بالقرآن.
- (٢) تفسير القرآن بالسنة.
- (٣) تفسير القرآن بأقوال الصحابة الذين أخذوا العلم عن النبي ﷺ.
- (٤) تفسير القرآن بأقوال التابعين الذين أخذوا العلم عن الصحابة ؓ.
- (٥) تفسير القرآن بلغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم.

وقد أمرنا الله سبحانه بتدبر القرآن الكريم فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يمكن تدبره إلا بمعرفة تفسيره، وأكثر الناس غافلون عن دخول الواقع الذي يشاهدونه تحت آيات القرآن الكريم، وتضمنها حل مشاكلهم، ويظنون آيات القرآن في قوم قد خلوا من قبل، وهذا هو الذي يحول بين الناس وبين فهم القرآن الحكيم والانتفاع به في جميع الأمور الخاصة والعامة، وإلا فمن تدبر آيات القرآن العظيم، ونزلها على واقعه تبين له كل ما يحتاج إليه في أمور دينه ودنياه<sup>(١)</sup>.

(١) يُنظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١٦١/٢).

قال الإمام الشافعي: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"<sup>(١)</sup>.

وقال ابن الحاج: "عجائب القرآن والحديث لا تنقضي إلى يوم القيامة، كل قرن لا بد له أن يأخذ منه فوائد جمة خصه الله بها، وضمها إليه؛ لتكون بركة هذه الأمة مستمرة إلى قيام الساعة"<sup>(٢)</sup>.

### ونصوص القرآن تنقسم إلى قسمين:

(١) نصٌ ظاهر لا يخفى، ولا يحتاج إلى تفسير، وهذا يستنبط منه المتدبر مباشرة.

(٢) نصٌ يحتاج إلى تفسير، وهذا يكون الاستنباط منه بعد بيانه وتفسيره. والاستنباط يكون بربط المعنى المستنبط بمدلول الآية، بأي نوع من أنواع الربط، إما بدلالة المطابقة أو دلالة التضمن أو دلالة الالتزام أو دلالة المفهوم أو دلالة السياق أو دلالة الإشارة أو دلالة المناسبة لما قبل الآية أو ما بعدها، أو دلالة موضوع السورة ومقصدها، أو غير ذلك، وقد يكون الاستنباط لفائدة علمية أو لحكم فقهي أو عقدي، أو أدب أخلاقي، وقد يكون الاستنباط لفوائد تربوية<sup>(٣)</sup>.

(١) الرسالة (ص: ١٩).

(٢) المدخل (٧٥/١).

(٣) يُنظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر للطيار (ص: ١٦٠، ١٦١)، الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية لطفه عابدين وياسين قادري وفخر الدين الزبير (٢/ ٥٠٢ - ٥٥٨).

## ويجوز الاستنباط من القرآن العظيم بشرطين هما:

**الشرط الأول:** أن يحتمل المعنى المستنبط ظاهر لفظ القرآن الكريم، بما يوافق قواعد اللغة العربية في الأفراد والتركيب.

**الشرط الثاني:** أن لا يخالف المعنى المستنبط صريح القرآن الكريم أو ما صح من السنة النبوية، فإنَّ القرآن الكريم حقُّ يصدق بعضه بعضاً، والسنة الصحيحة حق توافق القرآن ولا تخالفه، فمن أتى بمعنى أو هداية أو استنباط يخالف ما قرره القرآن الكريم أو السنة الصحيحة فإنَّه معنى خاطئ يقيناً لا يُقبل بحال، ومن أتى بمعنى أو هداية أو استنباط جديد يحتمله لفظ القرآن ولا يخالف ما قرره القرآن أو السنة الثابتة فإنَّه معنى صحيح، يُقبل منه؛ لأنَّ القرآن الكريم حمّال أوجه، وهذا من عظمة القرآن، فالآية الواحدة قد تُفسَّر بأكثر من قول إن كانت تلك الأقوال صحيحة المعاني، ويحتملها اللفظ القرآني بما يوافق قواعد اللغة العربية التي أنزل الله بها القرآن الكريم.

## (٤) نشأة علم التفسير

تعلم الصحابة  $\varphi$  من النبي  $\gamma$  القرآن الكريم والسنة النبوية، وتفقهوا في الدين، ثم علّموا من جاء بعدهم من التابعين هذا العلم النافع من القرآن الكريم وتفسيره والسنة النبوية والفقه، وعلّم التابعون هذا العلم من جاء بعدهم من أتباع التابعين، وحفظ علماء الأمة الميراث النبوي الذي هو العلم الشرعي النافع، ونقله علماء كل عصر إلى من بعدهم جيلاً بعد جيل، وكانوا يحفظونه في صدورهم، ويعلمونه طلابهم، واستعانوا على حفظه وتعليمه بتقييده وتأليفه في الكتب.

فكانت بداية نشأة علم التفسير في عهد الصحابة  $\varphi$  الذين تعلموا من النبي  $\gamma$  القرآن تلاوة وتفسيراً، وتعلموا سنته، وتفقهوا في دين الله، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَعَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٢-٣]، فكان الصحابة أعلم الناس بتفسير كتاب الله وسنة رسوله، ثم جاء بعدهم التابعون فتعلّموا منهم القرآن الكريم بقراءاته وتفسيره وعلومه، وتعلّموا منهم السنة النبوية، وعلّم التابعون هذا العلم من جاء بعدهم من أتباع التابعين، فالصحابية ثم تلامذتهم التابعون ثم أتباع التابعين هم أعلم الأمة بكتاب الله وسنة رسوله، وخير الناس بشهادة الله

ورسوله، وقد أمرنا الله باتباع الصحابة، وأثنى عليهم في آيات كثيرة بياناً لفضلهم<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعود  $\eta$  عن النبي  $\gamma$  قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

فلا غنى للمفسر عن النظر في كلام الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، فهم أفضل هذه الأمة علماً وعملاً، وفيهم - لا سيما الصحابة - من الرسوخ في معرفة اللغة العربية، وفصاحة اللسان، وقوة البيان ما ليس فيمن جاء بعدهم، مع ما هم عليه من الصدق والإخلاص والاحتياط في الكلام، والتحري في تفسير القرآن، وكفي الصحابة فضلاً وشرقاً أنهم أخذوا العلم عن النبي  $\gamma$  مباشرة، وعاصروا التنزيل، وعرفوا أسباب النزول، وكان  $\mu$  يبين لهم ما أنزله الله عليه من القرآن بقوله<sup>(٣)</sup> وفعله<sup>(٤)</sup>، وكانوا يسألونه عما يُشكّل عليهم<sup>(٥)</sup>، وكفي التابعين فضلاً وشرقاً أنهم أخذوا العلم عن الصحابة

(١) يُنظر: مائة آية في فضل الصحابة للمؤلف، منشور في شبكة الألوكة.

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣).

(٣) من ذلك تفسير النبي  $\gamma$  معنى الكوثر بأنه نهر في الجنة، فعن أنس بن مالك  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قرأ سورة الكوثر ثم قال لأصحابه: «أَتَدْرُونَ مَا الْكُوْثَرُ؟»، فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَأَيْتُهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنْبِئْتُهُ عَدَدَ النُّجُومِ» رواه مسلم في صحيحه (٤٠٠).

(٤) من ذلك كيفية صفة الصلاة، وقصر الصلاة الرباعية في السفر، وأحكام الزكاة، ومناسك الحج، وغير ذلك.

(٥) من ذلك سؤالهم عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]،

وقالوا: أين لم يلبس إيمانه بظلم؟ فبين لهم النبي  $\gamma$  أن المراد بالظلم في هذه الآية الشرك، =

٧، ويكفي أتباع التابعين أنهم أخذوا العلم عن التابعين الذين أدركوا أصحاب النبي ٧.

وقد كان القرآن الكريم في عهد النبي ٧ وعهد الصحابة والتابعين أعظم ما يتعلمونه ويُعلّمونه وينشرونه، فهو أصل العلم، حتى أنّ الصحابة ٧ كانوا يُذكّرون الناس بالقرآن في خطب الجمعة، وكانوا يحرصون على تفسير الآيات القرآنية للناس على المنابر وفي المجالس<sup>(١)</sup>، فكان علم التفسير في عهدهم منتشرًا، وهذا من فقههم، ومعرفتهم بفضل القرآن الكريم، ومعرفتهم بعظمته وتأثيره، فالقرآن الكريم يصنع المعجزات في الأفراد والمجتمعات إذا تعلمه المسلمون وتدبروه واعتصموا به.

فالتفسير في عهد الصحابة ٧ كان علمًا مستقلًا منتشرًا؛ لأنّ الصحابة كانوا يعلمونه الناس في كل مقام، فأخذ التابعون عنهم تفسير القرآن بحظ وافر، وكان بعض التابعين يكتب ما يسمعه من التفسير عن الصحابة، ولكن كان غالب اعتمادهم على الحفظ، ثمّ علّم التابعون التفسير من جاء بعدهم، فنقلوا لأتباع التابعين ما سمعوه من تفسير الصحابة، وما فتح الله به عليهم من فهم كتابه، وفي عصر أتباع التابعين ظهر تدوين التفسير مع ظهور تدوين الحديث النبوي وتدوين السيرة النبوية.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، رواه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (٤٧٧٦) من حديث ابن مسعود ٧.

(١) يُنظر: حث الخطباء على تذكير الناس بالقرآن في خطب الجمعة، رسالة للمؤلف منشورة في شبكة الألوكة.

فالعلم الشرعي هو الميراث النبوي الذي نقله علماء كل عصر إلى من بعدهم جيلاً بعد جيل، من القرآن الكريم وتفسيره وعلومه، والحديث النبوي رواية ودراسة، والسيرة النبوية، والفقه والفرائض، والعقيدة الصحيحة، وكانوا يحفظون هذا العلم في صدورهم، ويعلمونه طلابهم، واستعانوا على حفظه وتعليمه بتدوينه في الكتب، ونسخوا تلك الكتب بإتقان، ورواها علماء كل عصر لمن بعدهم عن شيوخهم بالأسانيد المتصلة إلى الصحابة؛ ليبقى الميراث النبوي مستمراً إلى يوم القيامة.

فالله سبحانه حفظ كتابه وسنة رسوله ودينه بواسطة أهل العلم العدول، الذين ورثوا علم القرآن والسنة عن قبلهم بحظ وافر، وورثوا هذا العلم من بعدهم، ونفوا عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فحفظوا لنا القرآن الكريم بقراءته المتعددة، ونقلوا لمن بعدهم كيفية تلاوته وتجويده، ودوّنوا التفسير المأثور، ودوّنوا السنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية والخلقية والخلقية، واجتهدوا في جمع أسانيدها، وضبط أسماء الرواة وكناهم وألقابهم وأنسابهم، ومعرفة تاريخ وفاة كل منهم وولادته، وبيان موطنه ومكان وفاته، ومعرفة أحوال الرواة من حيث الحفظ والعدالة، ومعرفة طبقات الرواة، ومعرفة شيوخهم وتلاميذهم، وقارنوا بين رواياتهم ليتميز لهم الخطأ من الصواب، وميزوا صحيح السنة من سقيمها، وألفوا في ذلك المؤلفات العظيمة التي تفتخر بها أمة الإسلام إلى آخر الدهر، وحفظوا لنا اللغة العربية، فدوّنوا أشعار العرب في الجاهلية والإسلام كالمعلقات السبع وغيرها مما هو محفوظ في دواوين الشعراء وكتب الشعر

والأدب؛ ليستعينوا بذلك على فهم القرآن الذي أنزله الله باللغة العربية، وكل هذا دونوه بالقلم، ونقله المتأخر عن المتقدم بأسانيدهم عن شيوخهم، كما تراه في أصول كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو والتاريخ والأنساب والشعر والأدب.

فبأقلام علماء الإسلام حفظ الله لنا دينه، وقد بين الله فضل القلم وأهميته في أول سورة أنزلها الله على رسوله فقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ٣-٤]، وأقسم الله بالقلم في ثالث السور المنزلة على رسوله فقال: ﴿رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١]، فبالقلم تقوم مصالح الدين والدنيا، وفي ذكر القلم وفضله منذ بداية الإسلام تأكيد على أهمية القلم، وأن على المسلمين الاهتمام بتدوين العلوم، فقد صاروا بالإسلام خير أمة، وصاروا أهل العلم ومعلمي البشرية.

## (٥) التجديد في علم التفسير

أنزل الله القرآن العظيم لتتدبره وتذكر به، فنُصِّدَق أخباره، ونعمل بأحكامه، وللتفسير طرق يسير عليها أهل التفسير قديماً وحديثاً لا يجوز الخروج عنها، ومن خرج عنها فقد أخطأ سواء كان من المتقدمين أو من المتأخرين.

والطرق الصحيحة في التفسير هي: تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة وبأقوال الصحابة والتابعين وباللغة العربية بما يحتمله لفظ التنزيل، فمن فسر القرآن الكريم بأحد هذه الطرق السليمة فقد أحسن وأصاب وإن كان من المتأخرين، وإن جاء بما لم يأت به من سبقه من المفسرين، ما دام أنه سار على ما ساروا عليه من التأمل والتدبر والنظر والاعتبار بإحدى الطرق الصحيحة في التفسير، ولم يخالف النقل الصحيح، ولا العقل الصريح.

ومن يطالع أشهر كتب التفسير المدونة عبر القرون في أزمنة مختلفة يجد كثيراً منها مليئاً بالتجديد في المعاني وفي الأسلوب، وليست مجرد نقل محض لأقوال السابقين، ويعلم صحة مقولة: كم ترك الأول للآخر!

بل إنَّ الممارس للتفسير قراءة وتدريباً يجد الكثير من المعاني والفوائد والاستنباطات التي لم يجدها في كتب التفسير، وهذا من بركة القرآن.

قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: "الإنسان يقرأ السورة مرات، حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى

(١) هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني، ولد سنة ٦٦١ هـ في حرّان، وفي سنة ٦٦٧ هـ أغار التتار على بلده فانتقلت عائلته إلى دمشق، فنشأ بها، وطلب العلم على أيدي علمائها، وحفظ القرآن الكريم، وعني بالحديث والعربية والتفسير والفقه وأصول الفقه، وتأهل للتدريس والفتوى قبل أن يتم العشرين من عمره، وانبهر الناس من ذكائه وقوة حافظته، وكان واسع الاطلاع جدًا في جميع العلوم مع استحضر ما يقرؤه، وكان عابدًا زاهدًا صابرًا ذا عفاف واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يتزوج طوال حياته، أمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وكان له دورٌ عظيم في جهاد التتار وهزيمتهم، وكان كثير التأليف مع جودة العبارة وحسن الترتيب والتقسيم والتبيين، مع الإنصاف وترك التعصب لأي مذهب، وامْتُنِحْن وتُفِي وسُجِن عدة مرات، وتوفي في سجن دمشق سنة ٧٢٨ هـ، قال عنه تلميذه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي: "ابن تيمية: الشيخ الإمام العالم، المفسر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط، مع التدين والذِّكر والصيانة، أقبل على الفقه، ودقائقه، وقواعده، وحججه، والإجماع والاختلاف حتى كان يُقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد، وحق له ذلك فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضرًا لمتون الأحاديث وعزوها، كأن الكتاب والسنن نصب عينيه وعلى طرف لسانه، كان قَوًّا بالأحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ... وتصانيفه نحو أربعة آلاف كراسة وأكثر، وليس له نظير في نقل مذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن المذاهب الأربعة، وقد خالف الأئمة الأربعة في عدة مسائل صنّف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة، ولا أعتقد فيه عصمة، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، ولم يكن متلاعبًا بالدين، ولا ينفرد بمسائل بالتشهي، فله أجر على خطئه، وأجران على إصابته" يُنظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٧/ ١١ - ٢١)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١/ ٦٣ - ٧٢).

كانها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني، ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه" (١).

وقال ابن عبد الهادي عن ابن تيمية: "كتب على تفسير القرآن العظيم جملة كثيرة تشتمل نفائس جليلة، ونكت دقيقة، ومعان لطيفة، وبين في ذلك مواضع كثيرة أشكلت على خلق من علماء أهل التفسير" (٢).

وقال الداوودي: "قال الذهبي في معجم شيوخه: برع ابن تيمية في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، واستنبت منه أشياء لم يسبق إليها" (٣).

ولا شك أن علماء الصحابة رضوان الله عليهم هم أعلم الأمة بتفسير القرآن، ولكن الذين نُقل عنهم التفسير منهم قليل كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله وعائشة ؓ، وأكثر الصحابة لم يُنقل عنهم أي قول في التفسير مع أنهم كانوا قطعاً يتدبرون القرآن ويفهمونه، ولا شك أن الفضل في العلم والعمل للمتقدمين، وفضل علم السلف على علم الخلف لا يخفى على من اطلع منصفاً على علوم السلف وعرف

(١) كتاب الإيمان (ص: ١٨٦، ١٨٧).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٣٧٧). ويُنظر كتاب: تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ، لابن تيمية، وهو مطبوع في مجلدين.

(٣) طبقات المفسرين (١/ ٤٨).

أحوالهم<sup>(١)</sup>، وما نحن فيمن تقدمنا من السلف إلا كبقلٍ في أصول نخل طوال، لكننا قد نجد عند بعض المفسرين المتأخرين تحقيقات لا نجدها في كتب المصنفين الأقدمين، والعلم فضل من الله يؤتیه من يشاء.

واعلم أنّ المشهورين بالتفسير من الصحابة لم يُرو عنهم جميع علمهم في التفسير، فهذا ترجمان القرآن عبد الله بن عباس **ك** لم يُنقل عنه تفسير كل آية في القرآن، فما نُقل عنه أقل بكثير مما تكلم به في التفسير، وهو لم يتكلم بكل ما يعلمه، ولم يستفرغ علمه في كل آية تكلم عنها، بل إنّ المفسر قد يفسر الآية ثم يجد لها معنى آخر صحيح؛ ولذا يُروى عن ابن عباس وغيره أكثر من قول في تفسير بعض الآيات، فالقرآن حمّال أوجه<sup>(٢)</sup>، وقد يُنقل عن المفسر ذلك المعنى الآخر الذي ظهر له، وقد لا يُنقل عنه، فجميع المفسرين الأولين لم يُدوّن عنهم جميع ما علموه من التفسير، بل ولم يدوّن عنهم كل ما تكلموا به في التفسير، وهذا أمر ظاهر لا يخفى على من تأمله.

فإذا أتى بعض العلماء المتأخرين بمعنى جديد في التفسير تحتمله الآية ولم يُنقل عن السابقين فلا يصح أن يُرد قوله لكونه لم يُسبق إليه فيما نعلم، ولا يصح أن يُدعى أنّ جميع السلف لم يعرفوا هذا المعنى الجديد الذي قد يكون ظاهر الآية أو تحتمله الآية، فمن أين لنا أنّ جميع السلف - وكلهم كان يقرأ القرآن - لم يعرفوا هذا المعنى الذي ظهر للمتأخر مما تحتمله الآية؟!!

(١) يُنظر في هذا: بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب.

(٢) عن أبي الدرداء **ه** قال: (لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة) رواه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٢٠٤٧٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٦٣).

فعلماء السلف قطعاً لم يتكلموا بكل ما يعلمونه في التفسير، ونجد في كثير من الروايات أنّ المفسر من الصحابة أو التابعين لم يتكلم بتفسير الآية إلا بعد أن يُسأل عنها، فلو لم يُسأل عنها لم يكن ليُفسرها، فكيف يُظن أن كل عالم من الصحابة والتابعين وأتباعهم تكلم بكل ما يعلمه من التفسير، وأنّ ذلك دون عنه في كتب التفسير!؟

قال صالح آل الشيخ: "الإجماع أن يكون كل من عُرف بالتفسير من التابعين نُقل تفسيره للآية فاتفقوا عليه، نجد أنّ المنقول في الآية يُنقل عن واحد اثنين فقط، لا يسوغ أن نقول: إنّ البقية الذين لم يُنقل كلامهم متفقون معهم في ذلك، كذلك عدم ذكر الخلاف لا يعني الإجماع، بعض العلماء يسميه إجماع سكوتي، وبعضهم يقول: لم يعلم لهم مخالف فكان إجماعاً، هذه كلها فيها تجوّز" (١).

فلا يصح أن نزن أنّه تم تدوين جميع أقوال السلف في كتب التفسير بالمأثور، فهذا ابن عباس مثلاً سأله التابعي الجليل مجاهد بن جبر عن القرآن آية آية كما ثبت ذلك عنه، ومع هذا لا نجد لابن عباس قولاً مروياً في كثير من الآيات، وكذلك لا نجد لتلميذه مجاهد قولاً مروياً في بعض الآيات، وهذا ظاهر لكل من يطّلع على كتب التفسير المسندة كتفسير عبد الرزاق الصنعاني وتفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم وغيرها.

(١) شرح مقدمة التفسير لصالح آل الشيخ دروس صوتية، مفرغ في برنامج المكتبة الشاملة (٢١ / ١٢)، بترقيم المكتبة الشاملة).

ومن الأمثلة على التجديد في التفسير بما لم يُنقل في كتب المفسرين السابقين:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، نجد في كتب المفسرين السابقين تفسير الإنزال هنا بالخلق، ورجح ابن تيمية معنى آخر فقال: "لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة؛ فإن الأنعام تنزل من بطون أمهاتها، ومن أصلاب آبائها تأتي بطون أمهاتها"<sup>(١)</sup>.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، لم يفرّق المفسرون المتقدمون في تفسيريهم بين عذاب جهنم وعذاب الحريق في هذه الآية، وفرق بينهما ابن عاشور، فجوّز أن يكون المراد بعذاب الحريق عذاب القبر<sup>(٢)</sup>.

٣- دليل من القرآن على أنّ الإنسان مسير ومخير لم يذكره المؤلفون في العقائد: يذكر علماء أهل السنة أنّ الإنسان مسير ومخير في نفس الوقت، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] حيث أثبت الله للإنسان مشيئة لكنها تحت مشيئة الله، وقد وجدت دليلاً آخر على هذا، وهو قوله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] حيث ذكر الله أنّه هو الذي ألهم النفس فجورها وتقواها، فهو الذي قدّر ذلك قبل أن يخلقها، ومع

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٤٧). ويُنظر: ١٢ دليلاً من القرآن الكريم على إثبات نعيم القبر وعذابه للمؤلف، بحث منشور في شبكة الألوكة.

هذا نسب الله الفجور والتقوى للعبد، فالإنسان هو الذي فجر أو اتقى، فالدليل على أنه مسير قوله: ﴿فَالْهَمَهَا﴾ [الشمس: ٨]، والدليل على أنه مخير قوله: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، ففعل العبد يُنسب إلى الله خلقاً وتقديراً، ويُنسب للعبد فعلاً واختياراً، وقد ضل من جعل العبد مسيراً فقط كالشعرة في مهب الريح، وهم الجبرية، وضلت القدرية الذين جعلوا العبد مخيراً فقط، ونفوا تقدير الله لأفعال العباد، فالله سبحانه خلق كل شيء بقدر، وعلم كل ما سيكون، ولا يكون في ملكه إلا ما يشاء.

٤- استنباط عجيب من القرآن يدل على براءة كل من صحب النبي ﷺ في حجة الوداع من النفاق: قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣] قال المفسرون: أي: فإن أرجعك الله - يا نبي الله - إلى طائفة من المنافقين فاستأذنوك للخروج معك للجهاد فقل لهم عقوبة لهم: لن تصحبوني في أي سفر للجهاد أو النسك أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً من الأعداء أبداً<sup>(١)</sup>.

قلت: يستنبط من هذه الآية الكريمة: أن كل من صحب النبي ﷺ في حجة الوداع فهو بريء من النفاق، فإن الله أمر رسوله أن يخبر المنافقين بعدم

(١) يُنظر: تفسير ابن جرير (٦٠٨ / ١١)، البسيط للواحدي (٥٧٩ / ١٠)، تفسير البغوي (٢ / ٣٧٥)، تفسير القرطبي (٢١٧ / ٨)، تفسير ابن كثير (١٩٢ / ٤)، تفسير أبي السعود (٤ / ٨٩)، فتح القدير للشوكاني (٤٤٢ / ٢)، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١٠ / ٤٩٣)، تفسير السعدي (ص: ٣٤٦)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠ / ٢٨٢، ٢٨٣).

تشرفهم بصحبة النبي ﷺ بعد رجوعه من غزوة تبوك في أي سفر من أسفاره  
أبدأ، وقد نزلت هذه الآية من سورة التوبة بعد غزوة تبوك سنة ٩ للهجرة،  
ثم حج النبي ﷺ سنة عشر من الهجرة، وخرج معه عشرات الآلاف من  
أصحابه الكرام، وكلهم بريء من النفاق بشهادة هذه الآية؛ فإن الله أخبر أن  
المنافقين لن يخرجوا مع رسوله أبداً في أي سفر من أسفاره، فكل من يتهم  
أصحاب النبي ﷺ بالنفاق فهو مكذب بالقرآن العظيم.

وقد تقدم أن الاستنباط من القرآن يجوز بشرطين:

الشرط الأول: أن يحتمل المعنى المستنبط ظاهر لفظ القرآن، بما يوافق  
قواعد اللغة العربية في الإفراد والتركيب.

الشرط الثاني: أن لا يخالف المعنى المستنبط صريح القرآن أو السنة  
الصحيحة، فإن القرآن حق يصدق بعضه بعضاً، والسنة حق توافق القرآن  
ولا تخالفه.

فمن أتى باستنباط أو معنى جديد يخالف ظاهر الآية أو يخالف ما قرره  
القرآن الكريم أو السنة الصحيحة فإنه خطأ لا يقبل بحال، وقد يكون من  
التلاعب بآيات القرآن، كما يفعل بعض أهل الأهواء، ومن أتى باستنباط أو  
معنى جديد يحتمله لفظ القرآن الكريم، ولا يخالف ما قرره القرآن أو السنة  
الصحيحة فإنه يقبل؛ لأن من خصائص القرآن الكريم أنه حمّال أوجه، وهذا  
من عظمة القرآن المجيد، فالآية الواحدة قد تُفسر بأكثر من قول إن كانت  
تلك الأقوال معانيها صحيحة ويحتملها اللفظ القرآني بما يوافق قواعد اللغة  
العربية.

ومن الخطأ إغلاق باب التجديد في التفسير مطلقاً، والاقْتصار على الاستفادة من كتب التفسير بالمأثور فقط، وإنكار كل معنى صحيح يحتمله لفظ القرآن لكون قائله من المتأخرين، ومن الخطأ أيضاً فتح الباب على مصراعيه لكل من هب ودب من غير ضوابط، فالسلف الصالح أسسوا لنا العلوم الشرعية وبنينا عليها، ولا يصح هدم الأساس الذي بنينا عليه، ولا يصح إنكار التجديد بضوابطه.

قال ابن مالك النحوي في مقدمة كتابه تسهيل الفوائد: "وإذا كانت العلوم منحةً إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدخَّر لبعض المتأخرين ما عسرَ على كثيرٍ من المتقدمين، أعاننا الله من حسدٍ يسدُّ بابَ الإنصاف، ويصدُّ عن جميل الأوصاف"<sup>(١)</sup>.

وقال يوسف الجديع: "في الوقت الذي نوّكّد فيه على ذم التقليد، وندعو إلى التجديد والرجوع إلى منابع هذا الدين الصافية، نقوم على أسس مستقرة في الأعماق لا نخشى معها زلزلة العواصف، بخلاف من يُقدِّم على تفسير القرآن وهو يبذر في تربة سبخة، ويسقي بماء ملح، كشرذمة لا يكاد يخلو منهم زمان بعد خير القرون، يريدون الإبداع - زعموا - دون تاريخ، ويدعون التجديد دون قديم، ولا يُبدع من لا تاريخ له، ولا يُجدد من لا أصل له"<sup>(٢)</sup>.

(١) تسهيل الفوائد (ص: ٢).

(٢) المقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص: ٣١٣).

## (٦) عدم التعارض بين الأمر بتدبر القرآن وفهمه كما فهمه السلف

القرآن كلام الله أنزله بالحق، وهو قول فصل وليس بالهزل، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، وكلام الله معنى يريده الله، ويعرف مراد الله بما بيّنه هو في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ أو بيّنه أصحاب رسوله الذين هم أعلم الناس بالقرآن؛ لأنهم عاصروا التنزيل، وعرفوا أسباب النزول، والقرآن الكريم نزل بلغتهم العربية، فتفسيرهم وتفسير تابعيهم الذين أخذوا العلم عنهم مقدّم على تفسير غيرهم.

وقد وصف الله أصحاب نبيه بأنهم أهل العلم، قال الله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأمرنا الله في كتابه الكريم بأن نؤمن كمايمانهم، وأن نفتدي بهم، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧]، فأخبرنا الله بأن من آمن بمثل ما آمنوا به فقد اهتدى، وقال سبحانه: ﴿وَالسَّيْقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، فمن أراد الجنة فليتبعمهم في علمهم وعملهم وأخلاقهم، وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم يصفون الصحابة بسفاهة الرأي ويحتقرونهم، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ  
السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ [البقرة: ١٣] قال ابن كثير: "يعنون - لعنهم الله  
- أصحاب رسول الله ﷺ" (١).

وقال ابن القيم: "لا ريب أن أقوال الصحابة في التفسير أصوب من أقوال  
من بعدهم،... فإن رسول الله ﷺ بيّن لهم معاني القرآن وفسره لهم كما وصفه  
تعالى بقوله: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيّن لهم القرآن بياناً  
شافياً كافياً، وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه، فأوضحه له" (٢).

والقرآن الكريم كتاب مجيد، وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه، كثير  
البركات، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، فقد احتوى القرآن على ما  
يحتاجه الأولون والآخرين، وهو أعظم من أن يحيط بجميع معانيه عالمٌ  
ومفسّرٌ واحد أو علماء زمن معين، فإن من عظمة القرآن أنه لا تنقضي  
عجائبه، وهو يهدي للتي هي أقوم في كل زمان ومكان، كما قال الله تعالى:  
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أي: لأحسن الخصال في  
كل شيء، سواء للأفراد والأسر والمجتمعات والدول، فكل ما نحتاج إليه في  
ديننا بينه الله لنا في كتابه العظيم نصاً أو دلالة أو استنباطاً.

وقد بين أهل العلم بطلان تفسير الذين يحرفون معاني القرآن بما يوافق  
أهواءهم؛ لأنها تخالف ما قرره الله في آيات أخرى أو تخالف ما ثبت في  
سنة النبي ﷺ أو تخالف ما أجمع عليه السلف الصالح.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٢).

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١١٧) باختصار.

وإنَّ من أسباب الضلال تكلف الاستنباط واتباع المتشابه لرد المحكم، وهذه طريقة أهل الزيغ والأهواء كما قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٧-٩].

عن عائشة <sup>١</sup> قالت: تلا رسول الله <sup>٧</sup>: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] إلى قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قالت: قال رسول الله <sup>٧</sup>: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاخْذَرُوهُمْ»<sup>(١)</sup>.

قال ابن عثيمين: "الراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يُخرِّجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكمًا لا اشتباه فيه. والحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه أنه لو كان القرآن كله محكمًا لفاتت الحكمة من الاختبار به، تصديقًا وعملاً لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابهًا لفات كونه بيانًا وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وأخر متشابهات امتحانًا للعباد، ليتبين

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥).

صَادِقُ الْإِيمَانِ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ، فَإِنَّ صَادِقَ الْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَاطِلٌ أَوْ تَنَاقُضٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وَأَمَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ، فَيَتَّخِذُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ سَبِيلًا إِلَى تَحْرِيفِ الْمُحْكَمِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، فِي التَّشْكِيكِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْأَحْكَامِ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْعُقَايِدِ وَالْأَعْمَالِ يَحْتَجُونَ عَلَى انْحِرَافِهِمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ!"(١).

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ مَا يُسَمَّى الْإِعْجَازَ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَا صَحَّ مِنْهُ هُوَ مِنَ التَّجْدِيدِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَالنَّاسِ فِي الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ طَرَفِينَ وَوَسَطٍ:

قَوْمٌ بِالْغَوَا فِي إِثْبَاتِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ، وَتَكَلَّفُوا فِي حَمْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى بَعْضِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ مَعَ عَدَمِ احْتِمَالِ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ لِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، بَلْ وَفَسَّرُوا بَعْضَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَفَقَّ بَعْضَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي لَمْ تَتَّيَّنْ بِالْأَدْلَةِ الْقَطْعِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ أَفْرَطُوا وَتَكَلَّفُوا.

وَقَوْمٌ نَفَوْا الْإِعْجَازَ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَهَؤُلَاءِ فَرَطُوا وَقَصَّرُوا.

(١) أصول في التفسير (ص: ٤٥) بتصرف يسير.

وقوم توسَّطوا، فأثبتوا منه ما احتمله لفظ القرآن بلا تكلف، بشرط أن يكون الإعجاز في حقيقة علمية لا نظرية قابلة للقبول والرد، فإن ثبت الإعجاز فسروا الآية بما فسرها السلف أولاً بالإضافة إلى المعنى الجديد، فإنَّ القرآن الكريم حمَّالٌ أوجه، فما احتمله لفظ القرآن موافقاً لقواعد اللغة وغير مخالف لما ثبت في الكتاب والسنة؛ فإنَّه مقبول سواء كان هذا القول قديماً أو جديداً؛ فإنَّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، فهذا هو الموقف الصحيح من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بلا إفراط ولا تفريط.

وبهذا يُعلم عدم التعارض بين الأمر بتدبر القرآن الكريم وبين وجوب فهمه كما فهمه السلف، بل لا يستطيع الإنسان تدبر كثير من آيات القرآن حتى يرجع إلى كتب التفسير ليفهم المعنى المراد، وبعد فهم المعنى المراد يتم التدبر، وقد يفتح الله لبعض العباد وجوهاً من الاستنباط، كما قال الخليفة الراشد علي بن أبي طالب  $\eta$ : (إلا فهماً يُعطيهِ اللهُ رجلاً في القرآن)<sup>(١)</sup>.

قال الإمام الشافعي: "فكل ما أنزل في كتابه - جل ثناؤه - رحمة وحجة، علِّمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهله، ولا يجهل من علمه. والناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به. فحقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصّاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنَّه لا يُدرك خيراً إلا بعونه. فإنَّ من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصّاً واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علِّم منه:

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرّيب، ونوّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة... فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها" (١).

وقال ابن القيم: "وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتفعله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَأْمُرْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً! فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومأل أهلها" (٢).

وقال السعدي: "فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله... الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته،

(١) الرسالة (ص: ١٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩، ٤٥٠) باختصار.

فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تُدرَك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأنَّ القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود" (١).

هذا، ولم يزل أهل العلم قديماً وحديثاً يستخرجون من كتاب الله الهدايات القرآنية، الظاهرة والخفية، فمستقل ومستكثر، فأقبل أيها المسلم على تلاوة كتاب الله، وقرأ ما تيسر من كتب التفاسير قديمها وحديثها؛ فإنها تعينك على تدبر القرآن، والله يهدي بالقرآن من اتبع رضوانه، وأخلص نيته، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

(١) تفسير السعدي (ص: ٧١٢).

## (٧) أين الله؟

ذكر الشقيري في موضعين في كتابه أن الله في كل مكان<sup>(١)</sup>، وهذا مخالف لقول الله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ [الملك: ١٦]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ [الأعلى: ١]، وغير ذلك من الآيات.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لجارية: «أَيْنَ اللَّهُ؟»، قالت: في السماء، قال: «مَنْ أَنَا؟»، قالت: أنت رسول الله، فقال لسيدها: «أَعْتَفَهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أَلَا تَأْمِنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِّنْ فِي السَّمَاءِ»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (ما بين كل سماء إلى أخرى مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء

(١) (ص: ٤٧).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله على العرش، ويعلم أعمالكم<sup>(١)</sup>.

ومعنى أن الله سبحانه في السماء أي فوق السماء لا أنه داخلها، تعالى الله عن ذلك، فهو المحيط بكل شيء، و (في) تأتي في اللغة بمعنى علا وفوق، وهذا معلوم في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، كقول الله تعالى حاكياً قول فرعون: ﴿وَأَصْلَبَنَّا فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على النخل، وليس المراد داخلها، وعن عبد الله بن عمرو ك قال رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ»<sup>(٢)</sup> أي: ارحموا من فوق الأرض يرحمكم من فوق السماء، فالله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله، فلا تلتفت لأي فلسفة تصرفك عن هذه العقيدة التي دل عليها القرآن والسنة والعقل الصحيح والفطرة السليمة، ومن ذلك قول بعضهم: الله في كل مكان، وقول بعضهم: كان الله ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما كان عليه، ويريدون بذلك إنكار صفة استواء الله على عرشه كما أخبرنا بذلك في كتابه، ويؤلون ذلك بتأويلات غير سائغة، ويقررون أن الله لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق ولا تحت، وهذه فلسفة أضلت كثيراً من الناس.

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٨٩٨٧)، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٥٦٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٥١)، وغيرهم، وإسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤) وصححه هو والألباني.

وهذه أقوال بعض العلماء في إثبات علو الله سبحانه:

(١) قال أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان: "أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازاً وعرافاً، وشاماً ويمناً، فكان من مذهبهم: أن الله β على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله γ بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]"<sup>(١)</sup>.

(٢) قال أبو الحسن الأشعري: "أجمعوا على أنه β فوق سماواته على عرشه دون أرضه، وقد دل على ذلك بقوله: ﴿ءَأَمْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ [الملك: ١٦]"<sup>(٢)</sup>.

(٣) قال ابن قدامة المقدسي: "الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك محمد خاتم الأنبياء، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء، والأئمة من الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمع الله تعالى عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروراً في طباع الخلق أجمعين"<sup>(٣)</sup>.

(٤) نقل النووي عن الأرموي كلاماً طويلاً في العقيدة مقرراً له، وفيه: "نؤمن بأن الله على عرشه كما أخبر في كتابه العزيز، ولا نقول: هو في كل مكان، بل هو في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه مكان، كما قال: ﴿ءَأَمْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] وكما جاء في حديث الإسراء"، ثم قال النووي: "هذا

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٩٨).

(٢) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص: ١٣١).

(٣) إثبات صفة العلو (ص: ٦٣).

آخر ما أردنا ذكره من هذا المختصر من معتقد مصنفه، مما ذكره في كتابه غاية المرام في مسألة الكلام للشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن الأرموي الشافعي، وهو الذي عليه الجمهور من السلف والخلف" (١).

(٥) قال ابن تيمية: "كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أنّ الله سبحانه فوق كل شيء، وعليّ على كل شيء، وأنّه فوق العرش، وأنّه فوق السماء" (٢).

(٦) قال الذهبي: "روى يحيى بن يحيى التميمي وجعفر بن عبد الله وطائفة قالوا: جاء رجل إلى مالك فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرُّحْضَاءُ يعني: العَرَق، وأطرق القوم، فسُرِّي عن مالك وقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنني أخاف أن تكون ضالاً. وأمر به فأخرج. هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة، أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنّه كما يليق به، لا نعلم، ولا نتحدق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت، ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر

(١) جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات للنووي (ص: ٦٨، ٦٩).

(٢) الفتوى الحموية (ص: ٢٠١).

إلى بيانه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله ﷻ لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه" (١).

(٧) قال محمد بن إبراهيم الوزير اليماني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ يَقُولُ لِلْمَلَكِ أَتِي بِكِتَابٍ﴾ [الملك: ١٦] (في) هنا بمعنى فوق، كقوله: ﴿وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، ولا يحيط بالله شيء بالإجماع، وهي في الفوقية حقيقة لا مجاز، وآيات الاستواء توضح ذلك" (٢).

فعلماء أهل السنة والجماعة لا يقولون: إن الله داخل السماء، ولا أنه في مكان محصور فيها، سبحانه هو الكبير الأكبر العظيم جل جلاله، بل يقولون: الله فوق السماء، مستو على عرشه، كما أخبر الله في كتابه، قال ابن تيمية: "من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السموات، فهو جاهل ضال بالاتفاق" (٣).

أما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، فمعناها: أن الله معبود في السماوات ومعبود في الأرض، يعبده أهل السماء من الملائكة، ويعبده أهل الأرض، وهذه الآية كقوله سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

(١) العلو للعلي الغفار (ص: ١٣٩).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٥ / ٩٢).

(٣) التدمرية (ص: ٨٥). ويُنظر: تفسير ابن كثير (٣ / ٤٢٦، ٤٢٧)، أضواء البيان للشنقيطي (١٨ / ٣٢ - ٣٢).

فالله في السماء، وعلمه في كل مكان، كما قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤]، فهو معنا أينما كنا بعلمه، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧]، فبدأ هذه الآية بالعلم، وختمها بالعلم<sup>(١)</sup>.

## الأئمة

(١) يُنظر: الرد على الجهمية لأحمد بن حنبل (ص: ١٤٦)، التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٥٤ - ٢٨٩)، الإبانة لأبي الحسن الأشعري (ص: ١٠٥، ١٠٦)، رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري (ص: ١٣٠، ١٣١)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لللالكائي (٣/ ٤٢٩)، رسالة في إثبات الاستواء للجويني (ص: ٣٣)، التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٢٩)، شرح السنة للبغوي (١/ ١٦٨ - ١٧١)، الانتصار في الرد على المعتزلة لابن أبي الخير العمراني (٢/ ٦٠٧ - ٦٢٥)، الحموية لابن تيمية (ص: ٢٠١)، العلو للذهبي (ص: ٥٩٦)، اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (٢/ ٩٥ - ٣٣١)، شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٣٧٥ - ٣٩٤)، العواصم والقواصم لابن الوزير (٤/ ١٤٨) و (٥/ ٩٢)، التحف في مذاهب السلف (ص: ١٧).

## (٨) أهمية السنة النبوية وتدوينها

السُّنَّةُ النبوية هي المبينة للقرآن الكريم، وَمِنْ جِظِ اللهُ للقرآن أن حَفِظَ السنة التي تبين مجمله، وتفصل أحكامه، فحفظ القرآن الكريم يستلزم حفظ بيانه وهو السنة، وحفظ لسانه وهو اللغة العربية، وقد أمرنا الله سبحانه في كتابه العظيم بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة الله تكون باتباع القرآن، وطاعة الرسول تكون باتباع السنة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، قال التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح: (طاعة الله: اتباع كتابه، وطاعة الرسول: اتباع سنته) (١).

والسنة النبوية كلها تدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ولا يستغني المسلم عن الأخذ بالسنة النبوية، فقد أمرنا الله مثلاً في القرآن بإقامة الصلاة، ولم يبين الله لنا في القرآن كيفيتها وأحكامها، وبين لنا ذلك الرسول ﷺ بسنته؛ فبين عدد كل صلاة، وما يُقرأ في القيام، وما يُقال في الركوع والسجود والتشهد، وبين صفتها وأحكامها وأنواعها، وهكذا الصيام والزكاة والحج وغير ذلك من الأحكام، فلا غنى للمسلم عن السنة النبوية.

وقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذه القدوة الحسنة

(١) رواه عبد الله بن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع (٩ / ٢).

مستمرة لكل المؤمنين في كل زمان، ويلزم من ذلك أن يحفظ الله السنة النبوية لجميع الأمة أولها وآخرها، حتى يتمكنوا من الاقتداء بالنبي ٧.

والنبي ٧ كان يُعَلِّم أصحابه القرآن والسنة، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَعَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٢-٣]، فهذه سنته وطريقته في التعليم، ومن اقتدى فقد اهتدى.

وقد وعد الله رسوله ٨ أن يبين له القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَمْتُ بِبَيِّنَاتِهِ﴾ [القيامة: ١٩]، وكان رسوله ٧ يبين للناس أحكام القرآن ومعانيه بسنته القولية والعملية، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وجعل الله في الكتاب والسنة المبيّنة له المخرج من كل خلاف في الأمة فقال ٩: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤]، والقرآن يهدي لاتباع السنة النبوية المبيّنة للقرآن، فالهداية والرحمة والنجاة من كل فتنة شبهة أو شهوة في الاعتصام بالقرآن والسنة.

وقد كان الصحابة ١٠ يتعلمون من النبي ٧ القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم يؤمروا بكتابة الأحاديث النبوية في أول الأمر حتى لا يختلط كلام الرسول بكلام الله سبحانه، وأمرهم النبي ١١ بحفظ أحاديثه وتبليغها، فعن زيد

بن ثابت  $\eta$  قال: سمعت رسول الله  $\gamma$  يقول: «نُضِرَ اللهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس  $\kappa$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ»<sup>(٢)</sup>، فأمر النبي  $\gamma$  صحابته أن يسمعوا منه الحديث ثم يسمع منهم التابعون ثم أتباعهم، وهذا هو الذي حصل بتوفيق الله.

وقد كان بعض الصحابة يكتب بعض الأحاديث النبوية كعبد الله بن عمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب وسمرة بن جندب وجابر بن عبد الله  $\varphi$ ، لكن كان اعتمادهم الأول على الحفظ لا على الكتابة<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد التابعين انتشر تدوين الأحاديث النبوية، ولا سيما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، قال التابعي الجليل عبد الله بن دينار: (كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله  $\gamma$  فاكتبوه، فإني قد خفتُ دُرُوسَ العلم، وذهاب أهله)<sup>(٤)</sup>، فخاف عمر بن عبد العزيز من ذهاب العلم بالسنة النبوية بموت العلماء الذين كانوا يحفظونها ويروونها عن الصحابة؛ فأمر التابعين بكتابة الأحاديث النبوية، وتدوينها للناس، ومن أشهر التابعين الذين كتبوا كثيرًا من الأحاديث التي سمعوها من الصحابة أو

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٦) وأبو داود (٣٦٦٠) بسند صحيح.

(٢) رواه أحمد (٢٩٤٥) وأبو داود (٣٦٥٩) وصححه ابن حبان في صحيحه (٦٢).

(٣) يُنظر تفصيل ذلك في كتاب: كتابة الحديث في عهد النبي  $\gamma$  وصحابته وأثرها في حفظ السنة النبوية للدكتور أحمد بن معبد بن عبد الكريم، وكتاب تدوين السنة النبوية للدكتور محمد الزهراني.

(٤) رواه الدارمي في سننه (٥٠٥) بسند صحيح.

التابعين: محمد بن شهاب الزهري<sup>(١)</sup>، والزيبر بن عدي<sup>(٢)</sup>، وهمام بن منبه اليماني<sup>(٣)</sup>، وغيرهم.

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي المدني، ولد في المدينة النبوية سنة ٥٠ للهجرة، وطلب العلم عند سيد التابعين سعيد بن المسيب ٨ سنوات متواصلة وتفقه به، وسمع الحديث من بعض الصحابة الذين تأخر موتهم كأنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي، وحرص على سماع الأحاديث النبوية من كبار التابعين وأبناء الصحابة الذين أدركهم كعروة بن الزبير بن العوام وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وغيرهم، وبلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم الحديث ٢٤٧، وكان مشهوراً بسرعة الحفظ، حريصاً على كتابته، ما ترك شيئاً سمعه من السنة النبوية وأقوال الصحابة وأخبارهم إلا كتبه، وكان ثقة متقناً عابداً كريماً زاهداً، روى عنه الحديث ٢٣٦ راوياً، وبلغت جميع أحاديث الزهري ٢٢٠٠ حديثاً، جمعها المحدثون ورووها بالأسانيد المتعددة عن تلاميذ الزهري، وبين نقاد المحدثين الصحيح منها، وضعفوا ما رواه الزهري عن قوم ضعفاء أو مجاهيل أو أرسلها من غير ذكر من حدثه بها، وبينوا الروايات التي لا أصل لها من حديث الزهري التي رواها عن الزهري بعض تلاميذه الضعفاء، ولم يتابعهم على روايتها غيرهم، توفي الزهري  $p$  بالقرب من فلسطين سنة ١٢٤ هجرية وعمره بضع وسبعون عاماً.

(٢) الهمداني الكوفي، قاضي الري، ثقة فقيه، توفي سنة ١٣١ هـ، وكتابه مطبوع باسم (نسخة الزيبر بن عدي).

(٣) الصنعاني، ثقة، توفي سنة ١٣١ هـ، وكتابه مطبوع باسم (صحيفة همام)، وهي صحيفة صحيحة كتبها همام عن أبي هريرة، فيها ١٣٨ حديثاً، أشهر من رواها عن همام تلميذه: معمر بن راشد، وأشهر من رواها عن معمر تلميذه: عبد الرزاق الصنعاني، وروى جميع أحاديث تلك الصحيفة أحمد بن حنبل في مسنده عن شيخه عبد الرزاق، وروى البخاري ومسلم كثيراً منها عن بعض تلاميذ عبد الرزاق.

ثم في عهد أتباع التابعين بدأ العلماء في تصنيف الكتب الجامعة للسنة النبوية، ومن ذلك كتب ابن جريج المكي<sup>(١)</sup>، وجامع مَعْمَر بن راشد<sup>(٢)</sup>، وموطأ مالك بن أنس<sup>(٣)</sup>، وكُتِبَ عبد الله بن المبارك<sup>(٤)</sup> ونسخة إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف<sup>(٥)</sup>.

وغيرهم من علماء القرن الثاني الهجري<sup>(٦)</sup>.

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكي، ثقة متقن حافظ فقيه مقرئ عابد، أول من دوّن العلم بمكة، روى الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وفتاواهم عن ٢٠٠ شيخ من التابعين وأتباعهم، ومن أشهر طلابه: عبد الرزاق الصنعاني والأوزاعي والليث بن سعد ووكيع بن الجراح وأبو عاصم النبيل وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وحمام بن زيد وحمام بن سلمة، طُبع من كتبه: جزء ابن جريج وتفسير ابن جريج، توفي سنة ١٥٠ هـ.

(٢) البصري ثم الصنعاني، ثقة متقن فقيه، كان أطلب أهل زمانه للعلم، وأدرك كبار محدثي التابعين كقتادة والزهري وأبي إسحاق السبّيعي وعمرو بن دينار والأعمش، وهو أول من رحل لطلب العلم إلى اليمن، وأول من دوّن العلم في اليمن، وكتابه (جامع معمر) مطبوع في آخر مصنف عبد الرزاق الصنعاني، توفي سنة ١٥٤ هـ.

(٣) المدني، الإمام المشهور في الحديث والفقه، ثقة متقن عظيم الشأن، كتبه الموطأ مطبوع مشهور، ومن أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر، روى البخاري ومسلم أحاديث موطأ مالك عن تلاميذ مالك، توفي سنة ١٧٩ هـ.

(٤) الخراساني المروزي، ثقة ثبت فقيه عالم جواد مجاهد، له كتاب المسند والزهد والجهاد، وكلها مطبوعة، روى البخاري ومسلم أحاديث عبد الله بن المبارك عن تلاميذه، توفي سنة ١٨١ هـ.

(٥) المدني، ثقة، كتبه مطبوع باسم (نسخة إبراهيم بن سعد)، روى البخاري ومسلم أحاديثه عن تلاميذه، توفي سنة ١٨٣ هـ.

(٦) يُنظر تفصيل ذلك في كتاب: تدوين السنة النبوية في القرنين الثاني والثالث للهجرة للدكتور محمد بنكيران.

ثم جاء بعد أتباع التابعين علماء القرن الثالث الهجري فاجتهدوا في تدوين الأحاديث اجتهادًا عظيمًا، ورووا الأحاديث بالأسانيد المتعددة، ولم يكتفوا أن يرووا الحديث من طريق واحد، بل من عدة طرق؛ ليتبين لهم أي خطأ وقع من بعض الرواة، وصنّفوا كتبًا عظيمة في أسماء الرواة، يُعلم منها حال كل راوٍ من رواة الأحاديث، ومنزلته في الديانة والحفظ، وكانوا يعرفون منزلة الراوي في الحفظ بمقارنة رواياته برواية زملائه الذين شاركوه في رواية الأحاديث عن شيخهم، فيعلمون بذلك من أتقن حفظ الحديث عن الشيخ ومن زاد فيه أو نقص، وأي خطأ يقع لبعض الرواة في رواية الحديث يتبين لهم خطؤه بهذا الميزان، وهو مقارنة رواية الراوي برواية غيره، وعرفوا بهذه الطريقة الأحاديث الغرائب التي تفرد بروايتها راوٍ واحد ولم يشاركه أحد في روايتها، وحكموا على كل حديث بما يستحق من القبول أو الرد، وبينوا الأحاديث الصحيحة التي يُعتمد عليها، وبينوا الأحاديث الموضوعة التي رواها الكذابون، والأحاديث الضعيفة التي رواها الضعفاء الذين لم يتقنوا حفظ الأحاديث فأخطأوا في روايتها لضعفهم في الحفظ، أو لكونهم لا يُعتمد على ما تفردوا بروايتها لجهالتهم أو فسقهم أو غير ذلك مما هو مبين في كتب أهل الحديث.

فالله سبحانه حفظ كتابه وسنة رسوله ﷺ بالعلماء العدول، فبهم حفظ الله دينه، وقد أثنى عليهم في كتابه في آيات كثيرة معلومة، فجزى الله عنا علماء الإسلام خيرًا، فقد حفظوا لنا الإسلام بحفظ وكتابة كل ما نحتاج إليه في ديننا، من القرآن الكريم وتفسيره، والحديث النبوي وعلومه، وسيرة النبي

μ، وأخبار أصحابه، ونقلوا لنا فتاوى الصحابة ومن بعدهم من التابعين وأتباعهم، وحفظوا لنا أسماء الرواة وأنسابهم وأخبارهم وتواريخ وفياتهم، ونقلوا لنا أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم، ونقلوا لمن بعدهم التاريخ الذي عاصروه والذي سمعوه ممن قبلهم، وألفوا الكتب العظيمة في القراءات، والتفسير، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والسيرة النبوية، والفقه، والعقيدة، واللغة، والشعر، والنحو، والتاريخ، والأنساب، وكتبوا الأحاديث بالأسانيد، وجمعوا طرق الروايات مع كثرتها من غير كلال ولا ملل، وقارنوا بين جميع الروايات وتأملوها، وتكلموا عن الرواة بما يستحقون من توثيق أو تضعيف، وميزوا صحيح الحديث من سقيمه، فالحمد لله الذي حفظ لنا دينه بأقلام العلماء وجهودهم.

وإنما لم يؤمر المسلمون بكتابة الأحاديث النبوية في أول عهد النبوة لكونه شاقاً عليهم، فإنَّ النبي γ كان يخطب الجمعة بأصحابه، ويحدثهم كثيراً في الحضر والسفر، ويجيب عن أسئلتهم، فكتابة كل ذلك شاق عليهم، بل فوق طاقتهم، فاقْتَصِرَ على كتابة ما كان ينزل من القرآن شيئاً فشيئاً حتى اكتمل نزوله، والشريعة جاءت بالتيسير، وعدم الإعانات، ووجهت معظم العناية إلى التقوى، والمقصود من السنة النبوية حفظ معانيها، فلا يضر روايتها بالمعنى، ومقاصد الدين وأصوله معلومة في القرآن الكريم، وفي القرآن الكريم وفيما صح من الأحاديث النبوية ما يكفي المسلم لمعرفة دينه، وحفظ القرآن الكريم والتوسع في معرفة السنة النبوية فرض كفاية على جميع الأمة، وخير الناس من تعلَّم القرآن وعلمه، ثم من تعلَّم السنة النبوية وعلمها، ولا

يجب على كل مسلم أن يحفظ القرآن الكريم كله فضلاً عن أن يحيط علماً بجميع الأحاديث النبوية، فمعرفة الدين ليست أمراً لا يزيد ولا ينقص، ولم توجب الشريعة على كل مسلم أن يكون عالماً، بل عليه أن يوجّد الله ويعبده ويتقيه ما استطاع، ويسأل أهل العلم عما يجهله، وقد تكفّل الله بحفظ دينه، فمَحَالٌّ أن يذهب من الدين ما يقتضي نقصه<sup>(١)</sup>.



(١) يُنظر: الأنوار الكاشفة لعبد الرحمن المعلمي (ص: ٥٤، ٢٣٣، ٢٩٤، ٢٩٧).

## (٩) خطورة التكذيب بما صح من حديث رسول الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].  
وعن أنس بن مالك  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «مَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(١)</sup>.

وعن سعيد بن جبیر أنه حدث يوماً بحديث عن النبي  $\gamma$ ، فقال رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا، قال: (لا أراني أحدثك عن رسول الله  $\gamma$  وتعرض فيه بكتاب الله! كان رسول الله  $\gamma$  أعلم بكتاب الله منك)<sup>(٢)</sup>.

وقال الشافعي: "إذا ثبت عن رسول الله الشيء فهو اللازم لجميع من عرفه، لا يقويه ولا يوهنه شيء غيره، بل الفرض الذي على الناس اتباعه، ولم يجعل الله لأحد معه أمراً يخالف أمره"<sup>(٣)</sup>.

وقال أحمد بن حنبل: "من ردَّ حديث رسول الله  $\gamma$  فهو على شفا هلكة"<sup>(٤)</sup>.  
وقال الأجرى: "باب التحذير من طوائف يعارضون سنن النبي  $\gamma$  بكتاب الله تعالى، وشدة الإنكار على هذه الطبقة، ينبغي لأهل العلم والعقل إذا سمعوا قائلاً يقول: قال رسول الله  $\gamma$  في شيء قد ثبت عند العلماء، فعارض إنسان

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) رواه الدارمي (٦١٠).

(٣) الرسالة (١/٣٣٠).

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٤٧٨).

جاهل فقال: لا أقبل إلا ما كان في كتاب الله تعالى، قيل له: أنت رجل سوء، وأنت ممن يحذرناك النبي ﷺ، وحذر منك العلماء، وقيل له: يا جاهل، إن الله أنزل فرائضه جملة، وأمر نبيه ﷺ أن يبين للناس ما أنزل إليهم، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فأقام الله تعالى نبيه ﷺ مقام البيان عنه، وأمر الخلق بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وأمرهم بالانتهاء عما نهاهم عنه، ... ثم فرض على الخلق طاعته ﷺ في نيف وثلاثين موضعاً من كتابه تعالى، وقيل لهذا المعارض لسنن رسول الله ﷺ: يا جاهل، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] أين تجد في كتاب الله تعالى أن الفجر ركعتان، وأن الظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، وأن العشاء الآخرة أربع؟ أين تجد أحكام الصلاة ومواقيتها، وما يصلحها وما يبطلها إلا من سنن النبي ﷺ؟ ومثله الزكاة، أين تجد في كتاب الله تعالى من مائتي درهم خمسة دراهم، ومن عشرين ديناراً نصف دينار، ومن أربعين شاة شاة، ومن خمس من الإبل شاة، ومن جميع أحكام الزكاة، أين تجد هذا في كتاب الله تعالى؟ وكذلك جميع فرائض الله التي فرضها الله في كتابه، لا يعلم الحكم فيها إلا بسنن رسول الله ﷺ، هذا قول علماء المسلمين، من قال غير هذا خرج عن ملة الإسلام، ودخل في ملة الملحدين، نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى" (١).

وقال ابن حزم: "لو أن امرأً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة، وكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق

(١) الشريعة (١/ ٤١٠ - ٤١٢).

الليل وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ... وأما من تعلق بحديث التقسيم فقال: ما كان في القرآن أخذناه، وما لم يكن في القرآن لا ما يوافقه ولا ما يخالفه أخذناه، وما كان خلافاً للقرآن تركناه، فيقال لهم: ليس في الحديث الذي صح شيء يخالف القرآن" (١).

وقال ابن الوزير: "التكذيب بحديث رسول الله ﷺ مع العلم أنه حديثه كفرٌ صريح" (٢).

وقال السيوطي: "اعلموا رحمكم الله أن من أنكر كون حديث النبي ﷺ قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف في الأصول حجة؛ كفر وخرج عن دائرة الإسلام" (٣).

ومن أراد أن يفهم الأحاديث النبوية فليرجع إلى ما قاله العلماء في شرح ذلك الحديث الذي لم يفهمه، فمن فهم معنى الحديث فليحمد الله، ومن لم يفهمه فلا ضير عليه، وقد يفهمه غيره، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

وليس بالضرورة أن نفهم كل حديث قاله النبي ﷺ، فكم من عالم يتوقف في بيان معنى بعض الأحاديث أو يتوقف في وجه الجمع بين حديثين، لكن يجب علينا أن نؤمن بأن ما قاله النبي ﷺ حق وإن لم نفهم معناه.

(١) الأحكام في أصول الأحكام (٢ / ٨٠).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٢ / ٣٧٤).

(٣) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة (ص: ٥).

قال البخاري في صحيحه: قال الزهري: (من الله الرسالة، وعلى رسول الله  $\gamma$  البلاغ، وعلينا التسليم)<sup>(١)</sup>.

حتى في القرآن الكريم توجد آيات يُشكّل فهمها على كثير من العلماء، وكثير من المفسرين المتخصصين في التفسير يتوقفون في تفسيرها، ولا يجوز لمن لم يفهم آية أو حديثاً أن يكذب بما لم يفهمه، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومن الآيات التي لا يعلم تفسيرها كثير من العلماء: الحروف المقطعة في أوائل بعض السور مثل: ﴿الْم ﴿١﴾ [البقرة: ١]، ﴿الر ﴿١﴾ [يونس: ١]، ﴿المر ﴿١﴾ [الرعد: ١]، ﴿كهيعص ﴿١﴾ [مريم: ١]، ﴿طسم ﴿١﴾ [الشعراء: ١]، ﴿حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ [الشورى: ١-٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤].

وقال القرطبي: "واختلف الناس في الرقيم، فقال ابن عباس: كل شي في القرآن أعلمه إلا أربعة: غسيلين، وحنان، والأواه، والرقيم ... وقال ابن زيد: الرقيم كتاب غمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته"<sup>(٢)</sup>.

وروى ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله في باب ما يلزم العالم إذا سئل عما لا يدره من وجوه العلم عن عبد الله بن مسعود  $\eta$  قال:

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ط﴾ [المائدة: ٦٧] (١٥٤ / ٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٠ / ٣٥٦، ٣٥٧).

"أيها الناس من علم منكم شيئاً فليقل، ومن لم يعلم فليقل لما لا يعلم: الله أعلم؛ فَإِنَّ مِنْ عِلْمِ المرء أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] (١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن شيء فقال: (لا أدري)، فلما ولى الرجل قال: (نعمًا قال عبد الله بن عمر، سئل عما لا يعلم فقال: لا علم لي به) (٢).

وقال بكر أبو زيد: "جُنة العالم (لا أدري)، ويهتك حجابها الاستتكاف منها، وقوله: يُقال. وعليه، فإن كان نصف العلم (لا أدري)، فنصف الجهل (يُقال) و (أظن)" (٣).

والواجب إذا تعارض النقل والعقل في الظاهر أن يُقدّم النقل على العقل؛ لأنّ النقل علم الخالق الكامل، والعقل علم المخلوق القاصر، وهذا التعارض يكون بحسب الظاهر لا في حقيقة الأمر؛ فإنّه لا يمكن أبدًا حصول تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح، وإذا وجد تعارض فإما أن يكون النقل غير صحيح أو العقل غير صريح. والعقل كالبصر، والنقل كالنور؛ لا ينتفع المبصر بعينه في ظلام دامس، ولا ينتفع العاقل بعقله بلا وحي، وبقدر النور تهتدي العين، وبقدر الوحي يهتدي العقل، وبكمال العقل والنقل تكتمل الهداية والبصيرة؛ كما تكتمل الرؤية حين الظهيرة، فالمؤمنون أبصر الناس

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٥٥٦).

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٦٣).

(٣) حلية طالب العلم (ص: ١٨٤).

بالحقائق الشرعية لجمعهم بين النقل الصحيح والعقل الصريح. ويجب اتباع الوحي وعدم الاستغناء عنه بالعقل وحده، ومن قال: إنّه يهتدي إلى الله بعقله المجرد بلا وحي، فهو كمن قال: إنّه يهتدي إلى طريقه بعينه المجردة بلا ضياء، وكل منهما جاحد لقطعي ضروري، والأول بلا دين، والثاني بلا دنيا. والأول بلا بصيرة والثاني بلا بصر قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والوحي هو الذي يهدي الأنبياء، ويهدي أتباعهم، فلا هداية إلا لمن اتبع الوحي ومن لم يتبعه فقد ضل ضلالاً مبيئاً.

ويجب التسليم للنقل الصحيح أخباراً وأحكاماً سواء عرفنا العلة أو لم نعرفها، فبعض القضايا العقلية الثابتة بالأدلة القطعية لا تدركها بعض العقول لعدم فهمها لها، فكيف بالقضايا التي لا تحيط بها العقول وهي كثيرة جداً مما نراه ونشاهده، ومن أقربها سبب تناؤب بعض الناس عند تناؤب شخص آخر في المكان الذي هو فيه، فلا تعرف العقول سبب ذلك، ومن تكلم في سبب ذلك بالظن لا يمكنه أن يطلب من جميع الناس أن يُسلّموا بتفسيره، ومثل ذلك الروح لا تحيط العقول بحقيقتها.

وقد ضل مَنْ يقول: لا أوْمَنُ إلا بما أدركه العقل من حكم الله، وما لا يدركه لا أوْمَنُ به، فإنّ هذا قدّم العقل القاصر الناقص الذي يجهل أكثر مما يعلم على النقل الصحيح الكامل الشافي الشامل الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فالمؤمن العاقل يُقَدِّم النقل الصحيح على كل عقل، فما لا يدركه العقل لا يعني عدم وجوده، ولكنه هو غير مدرك له، فللعقل حد ينتهي إليه، كما أنَّ للبصر حدًا ينتهي إليه لا ينتهي الكون والوجود بنهايته، وللسمع حد لا تنتهي الأصوات بنهايته؛ فللنملة صوت لا يسمع، وفي الكون فضاء وكواكب ونجوم لا ترى.

ومعلوم أنَّ النصوص الشرعية منها ما يفهمه غالب الناس، ومنها ما لا يفهمه إلا العلماء، ومنها ما لا يفهمه ويعرف دلالاته إلا الراسخون من أهل العلم، فيكون موقفنا هو العمل بالمحكّم، والوقوف عند المتشابه. والمتشابه: هو ما لا يعلمه إلا الراسخون من أهل العلم، وأما جعل هذا المتشابه أصلًا، أو التشكيك في المحكمات بضربها بالمتشابهات فهذا سبيل أهل الغي.

والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح بحال، ومتى توهم متوهم أنَّ نصًّا من النصوص الشرعية الثابتة مخالف للعقل فليتهم عقله هو، والشرعية الإسلامية - بحمد الله- تأتي بما تُحار فيه العقول ولا تأتي أبدًا بما تُحيله العقول كما قرر ذلك العلماء المحققون، بمعنى أنَّ الشرعية لا تأتي بما تعده العقول السليمة أمرًا مستحيلًا، لكنها تأتي بما لا يفهمه الناس إلا عند وقوعه أو في زمنٍ يتطور فيه العلم الدنيوي بما يفسر ما كان محيرًا للعقول في الزمن الماضي، فيجب على المسلم أن يُقَدِّم قول الله وقول رسوله على كل قول، وعلى كل قياس، وعلى كل ذوق، وعلى كل استحسان، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

قال المفسرون: أي: يا أيها الذين آمنوا لا تعجلوا بقضاء أمر في دينكم أو شئونكم العامة قبل أن يأذن الله لكم فيه ورسوله فتخالفوا كتاب الله وسنة رسوله باعتقاد أو فعل أو قول.

قال أبو المظفر السمعاني في آخر كتابه الانتصار لأصحاب الحديث: "اعلم أنّ فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل؛ فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول، وأما أهل السنة قالوا: الأصل الاتباع، والعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء صلوات الله عليهم، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بُني على المعقول وجب ألا يجوز للمؤمنين أن يقبلوا شيئًا حتى يعقلوا، ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء في أمر الدين من ذكر صفات الله  $\beta$ ، وما تعبد الناس به من اعتقاده، وكذلك ما ظهر بين المسلمين وتداولوه بينهم ونقلوه عن سلفهم إلى أن أسندوه إلى رسول الله  $\gamma$  من ذكر عذاب القبر، وسؤال الملكين، والحوض، والميزان، والصراط، وصفات الجنة، وصفات النار، وتخليد الفريقين فيهما؛ أمور لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها، والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئًا من أمور الدين وعقلناه وفهمناه فله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق، وما لم يمكن إدراكه وفهمه، ولم تبلغه عقولنا؛ أمّا به، وصدقنا، واعتقدنا أنّ هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه ومشيبته، وقال تعالى في مثل هذا: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ

عَلِمَهُ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿ [البقرة: ٢٥٥]... وإنما علينا أن نقبل ما عقلاه إيماناً وتصديقاً، وما لم نعقله قبلناه تسليماً واستسلاماً" (١).

وقال ابن تيمية: "العقل الصريح دائماً موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط، لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تُخبر بمحارات العقول، لا تُخبر بمحالات العقول، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم" (٢).

والإسلام دين العقل والفطرة، والقرآن الكريم يحث على التفكير، ويدعو لاستعمال العقل، والإسلام يجعل للعقل قيمة عظيمة ولكن بلا غلو، فللعقل حدود، وللبصر والسمع حدود، فالعاقِل لا يُكابِر الشرع، ويُقر بأنّه لم يُؤت من العلم إلا قليلاً، واعلم - أيها المسلم - أنّ العقل لا يعارضه الشرع أبداً، وأنّ المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، قال ابن تيمية في أول كتابه الموسوعي درء تعارض العقل والنقل: "وقد تأملتُ عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع!" (٣).

(١) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: ٨١ - ٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧ / ٤٤٤).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٤٧).

الأبجدان  
في نقد كتاب (أربعون) للشقيري

الأبجدان

## (١٠) خطورة الظن السيء بالعلماء الراسخين

قال الله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "ما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة... لِيُقَدَّرَ الظان أن ظنه كاذب، ثم لينظر بعد في عمله الذي بناه عليه، فيجده قد عاملَ به من لا يستحق تلك المعاملة من اتهامه بالباطل؛ فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم، وقد قال العلماء: إنَّ الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز... وإن كان اعتقادًا في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضارًا، أو الاهتداء بمن ظنه ضالًّا، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلًا، ونحو ذلك" (١).

وقال السعدي مبيِّنًا معنى الظن الذي قد يَأْثَمُ به الإنسان: "كالظن الخالي من الحقيقة والقريضة، وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإنَّ بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضا إساءة الظن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه" (٢).

فالواجب على المسلم أن يعرف قدر العلماء الراسخين، فقد بين الله في القرآن منزلتهم الرفيعة، وعلى المسلم أن يسأل المتخصصين في كل علم

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٠١).

عَمَّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴿٤٣﴾﴾  
[النحل: ٤٣].

وإنَّ من الضلال المبين أن يحتقر غير المتخصص أهل العلم المتخصصين، ويظن نفسه أعلم منهم أجمعين، كالذين يطعنون في كتب السنة النبوية، ويتناولون على أئمة الحديث كالبخاري وغيره من علماء الأمة، أو كالذين يُعظِّمون كتب السنة في الجملة، لكنهم يردون بعض الأحاديث الصحيحة التي أجمع علماء الحديث على صحتها، فَنُذَكِّرُ من كان فيه خير منهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَخَرِّجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُوصٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ونحذرهم أن يكونوا ممن ذمهم الله بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣]، وننصحهم بما جاء في حديث أبي هريرة  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ» (١).

ونقول لهم: هَبْ أَنْ البخاري أو غيره من رواة الحديث فاسق، ألم يأمركم الله بالتبين من خبر الفاسق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الحجرات: ٦]!؟

فالله لم يأمرنا برد خبر الفاسق قبل التبين، بل أمرنا بالتأكد والتحري من صحة خبره، فإن ظهر لنا بعد التثبت والبحث أن خبره كاذب فلنرده على علم، أما المسارعة بالتكذيب فهذا من صفات الكافرين والمنافقين، قال الله

(١) رواه البخاري (٦٠٦٤) ومسلم (٢٥٦٣).

تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، وقال سبحانه عن المنافقين:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

﴿البقرة: ١٠﴾ [البقرة: ١٠] بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة كما في قراءة

نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، وقال β: ﴿فَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢].

فاحذر يا مسلم أن تكون من أظلم الناس بتكذيب حديث صحيح!

وننصح الطاعن في حديث من صحيح البخاري بالتبين كما أمره الله، ونقول ناصحين له: إنك لو بحثت في أحاديث صحيح البخاري لوجدت أنه قد رواها غير البخاري، ممن كانوا قبله أو معاصرين له أو جاءوا بعده، فلا معنى لتكذيبك خبره، فتبين بارك الله فيك حتى لا تصيب قوماً من العلماء بجهالتك، فتندم يوم القيامة.

وندعو كل الطاعنين في كتب السنة النبوية، المحتقرين لعلماء الأمة، إلى التوبة من مخالفة كتاب فيما أمر من التبين، وفيما نهى عن ظن السوء، ومن ذلك الظن السيء بعلماء الأمة الراسخين الذين نقلوا لنا العلم النافع، فإلى متى لا نتدبر كتاب الله ولا نعمل به؟!

ولو تدبرت - أيها المسلم - القرآن العظيم فإنه يهديك للتي هي أقوم، ومن ذلك أنه يهديك إلى تعظيم علماء الدين الصادقين، وسؤال أهل العلم الراسخين، ويرشدك إلى التبين من الأخبار، وعدم المسارعة إلى إنكارها بلا برهان.

وإنّ من صفات الذين في قلوبهم زيغ وهوى أنهم يحتقرون علماء الأمة الراسخين في العلم، ويسعون لإسقاطهم؛ ليصرفوا الناس عن سؤالهم، ويحسبون أنهم يصلحون وهم المفسدون في الأرض بأفكارهم وأعمالهم، ولكن لا يشعرون بفسادهم.

ومن صفاتهم أنهم يتبعون المتشابهات ابتغاء فتنة الناس، فهم دعاة على أبواب جهنم، من يجيبهم قذفوه فيها، والله يمهلهم يزخرفون أقوالهم المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله؛ ليكونوا فتنة للناس، فقد صاروا من شياطين الإنس، ومن أصغى إليهم واتبعهم فهو مفتون، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

وبلغ الضلال ببعضهم أنه يريد أن يُقدّم للناس دينًا جديدًا يُرضي اليهود والنصارى، وهم لن يرضوا عنه حتى يكفر بدينه ويتبع ملتهم، فنجد بعض هؤلاء المفتونين يصحح دين اليهود والنصارى بعد تحريفهم له، أو يحكم بعدم كفرهم وقد كفرهم الله في كتابه، وحقيقة أمرهم ما قاله الله سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿١١٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

فيا أيها المسلم ويا أيتها المسلمة، استقم على دينك، واترك المفتونين وما يفترونه من الكذب على الله ودينه، فلن يضرّوا إلا أنفسهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿فَذَرْهُمْ يُخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف: ٨٣].

واحرص على عبادة الله وتقواه، وتعلم كتاب الله وتدبره واتبعه، وأطع رسوله ﷺ الذي أمرك الله بطاعته، وكن محباً لأهل العلم الصادقين، ولا تكن من الذين فرّقوا دينهم وفارقوه، فسيلقون عذابهم بعد حين، قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَّهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٤].

## (١١) تعريف بالإمام البخاري وصحيحه

هو محمد بن إسماعيل البخاري، إمام الدنيا في الحديث، حفظ القرآن الكريم وهو غلام، وحبَّب الله إليه حفظ الحديث وعمره عشرة أعوام، واجتهد في طلب العلم من صغره حتى أنه لما بلغ ستة عشر عامًا كان قد حفظ جميع كتب عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح وفيها عشرات الآلاف من الأحاديث والآثار، وعرف في أول شبابه كلام أصحاب أبي حنيفة في الأحكام الفقهية، وصنَّف وعمره ثمانية عشر عامًا كتاب قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم، وصنَّف في شبابه كتاب التاريخ الذي ذكر فيه أسماء آلاف الرواة من الصحابة والتابعين وأتباعهم، مع ذكر شيء من أنسابهم، وبعض من روى عنهم ورووا عنه، وربما ذكر تاريخ وفياتهم.

رحل البخاري لسماع الحديث إلى أكثر مُحدِّثي الأمصار في خراسان ومدن العراق والحجاز والشام ومصر، ولقي كبار علماء عصره، وبلغ عدد شيوخه في الحديث ألفًا وثمانين شيخًا، وكان البخاري إذا كتب عن شيخ سألَه عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث، وربما سألَه أن يُخرج إليه أصله ونسخته ليتأكد من صحة ما يرويه عن مشايخه، واشتهر البخاري في حياة شيوخه بالحفظ والإتقان والتحري، حتى أن بعض شيوخه روى عنه، وطلب منه بعض شيوخه أن يفيدَه بما في كتابه من سقط أو غلط، وكان شيوخه يفضلونه على أنفسهم، وكان بعضهم يسألونه عن علل الحديث، وكانوا يهابونه لسعة علمه وإتقانه ومعرفته بغالب أحاديثهم من طرق أخرى.

ورحل طلاب العلم إلى البخاري لسماع الحديث منه، وبلغ عدد طلابه عشرات الآلاف، قال تلميذه صالح بن محمد: كان البخاري أحفظهم للحديث، وكنت أستملي له ببغداد، فبلغ من حضر المجلس عشرين ألفاً، وقال تلميذه الفِرْبَرِي: سمع كتاب صحيح البخاري تسعون ألف رجل.

وكان البخاري حريصاً على نشر الحديث النبوي، أملى يوماً حديثاً كثيراً على أحد طلابه، فخاف أن يمل، فقال له: طِبْ نفساً، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه.

قال محمد بن حمدويه: سمعت البخاري يقول: أحفظ مائة ألف حديثٍ صحيح، ومائتي ألف حديثٍ غير صحيح.

ومن عجيب حفظ البخاري لأسماء الرواة ما نقله محمد بن أبي حاتم الوراق قال: سمعت البخاري يقول: تفكرت أصحاب أنس بن مالك فحضرني في ساعة ثلاث مائة. أي: أنه استحضر التابعين الذين روى عن أنس بن مالك فعد منهم من حفظه ثلاثمائة راوٍ في ساعة!

وقال أبو بكر الكلذواني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل البخاري، كان يأخذ الكتاب فيطلع عليه اطلاعاً، فيحفظ عامة أطراف الحديث من مرة واحدة!

وقال الترمذي: لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل البخاري.

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري.

وقال حاتم بن منصور: محمد بن إسماعيل البخاري آية من آيات الله.

وقال الحسين بن حُرَيْث: لا أعلم أني رأيت مثل البخاري، كأنه لم يُخْلَق إلا للحديث.

ولم يكن البخاري محدثًا فقط، بل كان حافظًا لكتاب الله، عالمًا بتفسيره، فقيهاً مجتهدًا، ومن يطلع على أبواب صحيحه يعلم قدر فقهه، ودقة استنباطه.

قال شيخه نُعَيْم بن حماد: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

وكان البخاري صابراً زاهداً، شاكراً كريماً، دقيق الورع، وكان لا يشتغل بأمور الناس، كل شغله في العلم والعبادة، وكان يتجنب الدخول على السلاطين والأمراء، وكانت له قطعة أرض يكرها كل سنة بسبع مائة درهم، وكان قليل الأكل، نحيفاً، ليس بالطويل ولا بالقصير.

وكان البخاري يختم في شهر رمضان في النهار كل يوم ختمة، ويقوم بعد التروايح كل ثلاث ليال بختمة.

وقال تلميذه محمد بن أبي حاتم الوراق: كان البخاري يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة.

وقال سليم بن مجاهد: ما رأيت بعيني منذ ستين سنة أفقه، ولا أورع، ولا أزهد في الدنيا من محمد بن إسماعيل البخاري.

وقال بكر بن منير: سمعت البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني  
أني اغتبت أحدًا.

قال الذهبي: كان البخاري إمامًا حافظًا، حجة، رأسًا في الفقه والحديث،  
مجتهدًا، من أفراد العلم مع الدين والورع والتأله.

وكان البخاري مع علمه مجاهدًا في سبيل الله، وكان ماهرًا بالرمي،  
مرابطًا في الثغور.

وللبخاري مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه الصحيح، والتاريخ الكبير،  
والتاريخ الأوسط، والضعفاء الصغير، والأدب المفرد، وخلق أفعال العباد،  
ورفع اليدين في الصلاة، وكلها مطبوعة.

توفي البخاري ليلة عيد الفطر في قرية حَرْتَنَّاك قرب سمرقند سنة ٢٥٦  
هجريَّة وعمره ٦٢ عامًا<sup>(١)</sup>.



(١) نقلت هذه الترجمة من كتابي: الحفاظ الأربعون تراجم مختصرة لأشهر حفاظ السنة، وهو  
منشور في شبكة الألوكة.

## وهذه نبذة تعريفية مختصرة بكتاب صحيح البخاري:

اسم صحيح البخاري هو: (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) (١).

وقد اعتنى الإمام البخاري في تأليفه للجامع الصحيح عناية بالغة، قال البخاري: "صنفتُ الجامع من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله (٢)".

وعدد أحاديث صحيح البخاري (٢٥٠٠) حديث تقريباً بدون تكرار، وعدد أحاديثه مع التكرار (٧٥٦٣).

وقد رتب البخاري صحيحه ترتيباً عجبياً في كتب متنوعة تدرج تحتها أبواب كثيرة، وعدد الكتب التي عقدها البخاري في صحيحه (٩٧) كتاباً، بدأها بكتاب بدأ الوحي، فكتاب الإيمان، فكتاب العلم، ثم كتب العبادات من الوضوء والغسل... إلخ، وتناول في تلك الكتب سائر أحكام الشرع العملية والاعتقادية، ومن الكتب التي عقدها: كتاب تفسير القرآن، وكتاب فضائل القرآن، وكتاب الأدب، وكتاب الدعوات، وكتاب الرقاق، ومما ذكره كتاب أحاديث الأنبياء، وكتاب المناقب، وكتاب أصحاب النبي ﷺ، وضمنه: باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن (٣)، وباب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، وباب مناقب الحسن والحسين (٤)، وباب مناقب فاطمة

(١) يُنظر: مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (ص: ٢٦)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١/٨).

(٢) يُنظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦/١٤٧).

٥. وعقد كتاب المغازي لذكر سيرة النبي ﷺ وغزواته، ثم ذكر أخيراً: كتاب الفتن وكتاب الأحكام وكتاب التمني وكتاب أخبار الأحاد وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة وختم كتابه بكتاب التوحيد.

وكل كتاب في صحيح البخاري يتضمن أبواباً يذكر فيها البخاري بعض الآيات المناسبة للباب، ويروي في كل باب عددًا من الأحاديث بإسناده، ويكرر بعض الأحاديث في أكثر من باب ليستخرج منها بعض الأحكام الفقهية وبعض الفوائد المستنبطة؛ ولذلك قال العلماء: فقه البخاري في تراجمه، أي: في الأبواب التي عقدها في صحيحه، فهي تدل على فقهه وحسن استنباطه، وقد يذكر البخاري في بعض الأبواب أقوالاً لبعض الصحابة والتابعين.

روى الفربري عن شيخه البخاري أنه قال: "ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين" (١).

ونقل عمر بن محمد البحيري عنه أنه قال: "ما أدخلت فيه -يعني: كتاب صحيح البخاري- حديثاً حتى استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وثيقنت صحته" (٢).

وهذا من البخاري لزيادة التأكد من صحة الأحاديث التي بذل جهده في اختيارها من أصح الأسانيد، وإلا فهو إمام الدنيا في حفظ السنة النبوية وتمييز صحيحها من سقيمها ومعرفة الرواة كما يُعلم ذلك من ترجمته.

(١) يُنظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨٩).

ومن العجائب أن بعض جهال هذا الزمان يستبعد أن يكون البخاري اغتسل وصلى ركعتي الاستخارة عند كل حديث كتبه في صحيحه! فنقول لهم -تصحيحاً لأفهامهم-: لو كان زمن اغتسال البخاري وصلاته ركعتين نصف ساعة؛ فهذا يستغرق (١٢٥٠) ساعة، وهذا لا يستغرب إذا عرفنا أنه ألف صحيحه في (١٦) عامًا، فلو كان يكتب حديثاً واحداً في كل يومين أو في كل ثلاثة أيام ويغتسل ويصلي ركعتي الاستخارة؛ لأمكن هذا في تلك المدة الطويلة التي استغرقها في تأليف صحيحه، فلماذا تعجبون من هذا؟!!

وقد وضع الله القبول لكتاب صحيح البخاري بما لا نظير له في الكتب المصنفة، فتلقاه العلماء في مختلف البلدان وعلى مر الأعصار بالرواية والسماع، والنسخ والشرح، والحفظ والدرس، بما لا ترى مثله لأي كتاب آخر بعد كتاب الله سبحانه.

قال الحافظ ابن كثير: "أجمع العلماء على قبول صحيح البخاري وصحة ما فيه، وكذلك سائر أهل الإسلام"<sup>(١)</sup>.

وقال النووي في مقدمة شرحه لصحيح الإمام مسلم: "اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز: الصحيحان البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة

(١) البداية والنهاية (٢٤/١١).

وغامضة، وقد صحَّ أن مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنَّه ليس له نظير في علم الحديث" (١).

واعلم أنَّ كل حديث في صحيح البخاري قد تابعه على روايته غيره من أقرانه أو شيوخه أو شيوخ شيوخه، وكذلك تابعه على روايته من جاء بعده من غير طريقه.

وهذه حقيقة يخفيها الطاعنون في صحيح البخاري، ويوهمون العوام الذين يسمعون لهم أنَّ البخاري تفرد برواية الأحاديث التي في صحيحه، وأنَّه افتراها، ويخفون عن الناس هذه الحقيقة التي يكرهون ظهورها؛ لأنَّها تبطل كل كلامهم في الطعن في أي حديث في صحيح البخاري، وذلك لأنَّ البخاري لم يتفرد برواية ما في صحيحه من الأحاديث، ولا يخفى على طلاب العلم والباحثين أنَّ كل الأحاديث التي في صحيح البخاري موجودة في كتب غيره من علماء الحديث، وبعض تلك الكتب كانت مصنَّفة من قبل أن يُخلَق البخاري، فلا يصح الطعن في البخاري من أجل حديثٍ هو موجود في كتب غيره من مشايخه أو مشايخ مشايخه أو أقرانه.

ومن كتب الحديث التي كانت موجودة من قبل أن يؤلف البخاري صحيحه: جامع معمر بن راشد، وموطأ مالك، ومسند عبد الله بن المبارك، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف ابن أبي شيبة، ومسند إسحاق بن راهويه، ومسند أحمد بن حنبل، وغيرها من الكتب المطبوعة.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤). ويُنظر: مقدمة ابن الصلاح (ص: ١٧ - ١٩).

وبعض هذا الكتب موسوعات كبيرة جدًا، فيها من أحاديث النبي ﷺ وأقوال أصحابه والتابعين وأخبارهم الشيء الكثير، فمثلًا مصنف عبد الرزاق الصنعاني عدد أحاديثه (١٩٤١٨) أي: ما يقارب عشرين ألف حديث، منها المرفوع إلى النبي والموقوف على الصحابي والمقطوع عن التابعي أو أتباع التابعين، ومصنف ابن أبي شيبة عدد أحاديثه المرفوعة والموقوفة والمقطوعة (٣٧٩٤٣)، ومسند أحمد بن حنبل عدد أحاديثه (٢٧٦٤٧)، وغالبها أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ، ومنها الصحيح والضعيف، وكثير منها مكرر، وهؤلاء الثلاثة كلهم قبل البخاري، فعبد الرزاق الصنعاني توفي سنة ٢١١ هجرية، وهو من مشايخ شيوخ البخاري، وابن أبي شيبة توفي سنة ٢٣٥ هجرية، وهو من مشايخ البخاري، وأحمد بن حنبل توفي سنة ٢٤١ هجرية، وهو أيضًا من مشايخ البخاري.

أما البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هجرية، وتلميذه مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هجرية فقد اقتصر في صحيحيهما على أصح الصحيح من الأحاديث النبوية، فعدد أحاديث صحيح البخاري (٢٥٠٠) حديث تقريبًا بدون تكرار، وعدد أحاديثه مع التكرار (٧٥٦٣)، وعدد أحاديث صحيح مسلم (٣٠٣٣) حديث بلا تكرار.

ولنتكلم عن كتاب واحد من الكتب التي كانت قبل أن يولد البخاري، وهو كتاب (جامع معمر بن راشد)، ومؤلفه معمر بن راشد ولد في أواخر القرن الأول الهجري سنة ٩٥ هجرية، وطلب العلم وكتب الأحاديث في حياة كثير من التابعين الذين رأوا أصحاب النبي ﷺ، واشتمل كتاب جامع معمر على

١٦٤٥ حديثاً، بعضها مرفوع إلى النبي ﷺ، وبعضها موقوف على الصحابة من أقوالهم وأفعالهم وأخبارهم، وبعضها من أقوال التابعين في التفسير والفقه والزهد والآداب، وأسانيد معمر عالية، فبينه وبين النبي ﷺ راويان أو ثلاثة فقط، والبخاري ولد بعد موت معمر بأمد طويل، فإن معمرًا توفي سنة ١٥٤ هجرية، والبخاري ولد سنة ١٩٤ هجرية، أي: بعد وفاة معمر بـ ٤٠ عامًا، فنقول لمن يوهم العوام أن البخاري هو أول من دوّن الأحاديث: قد دوّن الحديث شيوخ البخاري وشيوخ شيوخه وشيوخ شيوخ شيوخه، فإن معمر بن راشد من شيوخ شيوخ البخاري، وكتاب جامع معمر مطبوع في آخر مصنف عبد الرزاق الصنعاني، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما كثيرًا من الأحاديث التي في جامع معمر إما من طريق تلاميذ عبد الرزاق الصنعاني عن معمر أو من طريق غير عبد الرزاق أو من طريق بعض قرناء معمر أو من طريق بعض شيوخ معمر أو من طريق شيوخ شيوخه، ونجد تلك الأحاديث موافقة تمامًا لما في كتاب جامع معمر، وهذا يدل على إتقان البخاري ومسلم، ولنذكر مثالاً يوضح ذلك، فبالمثال يتضح المقال:

قال معمر بن راشد كما في جامعه المطبوع في آخر مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٦٥٦): عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، وعن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مَنِ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

فهذا الحديث رواه معمر عن شيخه أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة، ورواه معمر أيضاً عن شيخه همام عن أبي هريرة، فلمعمر في هذا الحديث إسنادان، الأول بينه وبين النبي ثلاثة رواة، والثاني بينه وبين النبي راويان فقط.

وقد روى هذا الحديث مسلم في صحيحه رقم (٢٦٧٧) من طريق عبد الرزاق عن معمر، قال الإمام مسلم: حدثني محمد بن رافع، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، وعن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

فانظر موافقة ما في صحيح مسلم لما في جامع معمر في المتن والإسناد! وروى البخاري هذا الحديث من غير طريق معمر، قال الإمام البخاري في صحيحه رقم (٧٣٩٢): حدثنا أبو اليمان، قال: أخبرنا شعيب، قال: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

فهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه من طريق شيخ شيخ معمر، وهو الصحابي أبو هريرة نفسه.

وهذا الحديث موجود في صحيفة همام بن منبه (ص: ٣٦) رقم (٣٣) قال همام: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وصحيفة همام أقدم كتاب حديث موجود لدينا، فإن همام بن منبه توفي سنة ١٣١ هجرية، أي: قبل ولادة البخاري بـ ٦٣ سنة، وقد اشتملت صحيفة همام على (١٣٨) حديثاً، يرويها همام عن أبي هريرة مباشرة، وهذا الحديث في صحيح البخاري كما في صحيفة همام.

وروى هذا الحديث أيضاً إسماعيل بن جعفر كما في كتاب أحاديث إسماعيل بن جعفر رقم (١٦٨) قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وإسماعيل بن جعفر توفي سنة ١٨٠ هجرية، أي: قبل أن يولد البخاري بـ ١٤ سنة، وهو من شيوخ شيوخ البخاري، وله كتاب حديث مطبوع باسم (أحاديث إسماعيل بن جعفر)، عدد الأحاديث فيه (٤٧٧).

وقد روى هذا الحديث أيضاً محمد بن فضيل بن غزوان الضبي المتوفى سنة ١٩٥ هجرية في كتابه الدعاء (١٠٨) فقال: حدثنا داود بن أبي هند، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ اسْمٍ غَيْرَ وَاحِدٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وقد روى هذا الحديث أيضاً الحميدي، قال الحميدي في مسنده (١١٦٤): حدثنا سفيان بن عيينة، قال: حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ غَيْرَ وَاحِدٍ، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

والحميدي هو عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي، المتوفى سنة ٢١٩ هجرية، وهو من أشهر مشايخ البخاري، وللحميدي مسند مطبوع، وعدد أحاديث مسنده (١٣٣٧).

وروى هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد بن حنبل في مسنده رقم (٧٥٠٢)، قال أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا محمد بن إسحاق، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ غَيْرَ وَاحِدٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

ونلاحظ أنّ الحديث الذي رواه البخاري من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قد رواه الحميدي وأحمد بن حنبل من نفس الطريق التي رواها البخاري، أي: من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

ونكتفي بهذا المثال، ولو أردنا أن نجمع كل من وافق البخاري على رواية هذا الحديث من أقرانه وممن جاء بعده لطلال البحث جدًّا، وفيما ذكرناه كفاية، وأنصح كل طالب علم أو باحث أن يبحث بنفسه عن أي حديث في صحيح البخاري، لينظر كثرة من يوافقه من المحدثين على رواية كل حديث، وهذه طريقة نافعة جدًّا لتدريب الطلبة على البحث، وتعريفهم بهذه الحقيقة بطريقة عملية، وكم هو نافع أن تُعقد دورة لطلاب العلم وللمتقنين في أي مكتبة عامة، حتى يعرف عامة الناس هذه الحقيقة العلمية العظيمة بطريقة عملية، فلا يستطيع أحد بعدها أن يشككهم في صحيح البخاري؛ لأنهم حين يرون بأنفسهم توافق الأسانيد والمتون في كتب الحديث الكثيرة يزدادون طمأنينة.

وبهذا يتبين أنّ الإمام البخاري لم يتفرد برواية الأحاديث التي في صحيحه، ولو أنّ البخاري لم يُخلق فالأحاديث التي رواها في صحيحه محفوظة في كتب غيره من علماء الحديث، الذين كانوا قبله أو عاشوا في زمنه أو جاءوا من بعده، فلا معنى لأي طعن في صحيح البخاري، والحمد لله رب العالمين.



## (١٢) هل البخاري معصوم في كتابه الصحيح؟

أهل السنة والجماعة لا يجعلون العصمة لغير الأنبياء، وكل عالم يعلم ويجهل، ويصيب ويخطئ، والأمر كما قال عالم المدينة الإمام مالك بن أنس: (كلُّ يؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب هذا القبر) وأشار إلى قبر النبي محمد .٧

والبخاري غير معصوم كغيره من العلماء، وقد تتبعت العلماء صحيح البخاري وغيره من مؤلفاته، وذكروا بعض أوهامه، وهذه نصوص تبين هذا:

قال الحافظ الإسماعيلي في مستخرجه على صحيح البخاري: "رحم الله أبا عبد الله البخاري، من ذا الذي يسلم من الغلط؟!"<sup>(١)</sup>.

والغلط المشار إليه أنّ البخاري قال في كتاب الغسل: "باب من بدأ بالحنبل أو الطيب عند الغسل"، ثم ذكر حديثاً في صفة غسل النبي ﷺ وهو الحديث رقم (٢٥٨) قال: حدثنا محمد بن المثنى، قال: حدثنا أبو عاصم، عن حنظلة، عن القاسم، عن عائشة، قالت: (كان النبي ﷺ إذا اغتسل من الجنابة، دعا بشيء نحو الحنبل، فأخذ بكفه، فبدأ بشق رأسه الأيمن، ثم الأيسر، فقال بهما على وسط رأسه).

(١) يُنظر: فتح الباري لابن حجر (١/٣٦٩).

قال الحافظ ابن رجب في شرح صحيح البخاري: "ظاهر تبويب البخاري على هذا الحديث: يدل على أنه فهم منه أن الحلاب نوع من الطيب، وأن النبي ﷺ كان يستعمل شيئاً من الطيب في رأسه في غسل الجنابة، وقد أنكر العلماء ذلك على البخاري p، ونسبوه فيه إلى الوهم، منهم: الخطابي والإسماعيلي وغير واحد، وقالوا: إنما الحلاب إناء يُحَلَّب فيه، ويُقال له: المحلب أيضاً. والمراد: أنه كان يغتسل من مُدِّ نحو الإناء الذي يُحلب فيه اللبن من المواشي، وهو معنى الحديث الآخر: أنه نحو الصاع" (١).

فهذا المثال يبين أن العلماء لا يقولون بعصمة البخاري، ويبينون أي غلط أو وهم يقع له.

ومما يزيد ذلك وضوحاً أن الإمام البخاري عقد في صحيحه كتاباً كبيراً في التفسير (٦/ ١٧-١٨١)، وطريقة البخاري في كتاب التفسير أنه يعتمد على التفسير النبوي المعصوم، وإذا لم يجد حديثاً نبوياً في تفسير الآية ينقل أقوال الصحابة والتابعين لا سيما ابن عباس وتلميذه مجاهد بن جبر، وإذا لم يجد البخاري رواية عن الصحابة والتابعين فإنه ينقل التفسير عن أئمة اللغة كأبي عبيدة معمر بن المثنى والفراء، وأكثر من النقل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ولا شك أن كل مفسر قد يصيب في التفسير ويخطئ، وربما فسر البخاري الكلمة القرآنية بنفسه، وقد يكون في الآية قولاً آخر أرجح مما فسر بها الإمام البخاري، ولم يقل أحد من العلماء والمفسرين: أن كل ما فسر به البخاري في صحيحه هو الراجح.

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ٢٦٩).

قال ابن تيمية: "وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس، بل في الصحابة من قد يغلط أحياناً وفيمن بعدهم؛ ولهذا كان فيما صُتِفَ في الصحيح أحاديث يُعلم أنها غلط، وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يُعلم أنه حق"<sup>(١)</sup>.

ومن المعروف عند علماء الحديث أن البخاري قد يذكر حديثاً صحيحاً، لكن فيه جملة أو لفظة ليست صحيحة، وإنما ذكرها البخاري لكونها مذكورة في الحديث الذي رواه عن شيوخه، مثال ذلك:

روى البخاري (٦٩٨٢) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة **١** حديثاً طويلاً في أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه من الوحي في غار حراء، وقصته مع خديجة وورقة بن نوفل، وفي آخر الحديث ما لفظه: "وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي **٧** - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رعوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلقى منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك".

فهذا الكلام الأخير هو من قول الزهري فيما بلغه من فعل النبي **٨**، ومعلوم عند المتخصصين في الحديث أن الإمام البخاري عندما يروي الحديث الطويل قد يكون في ذلك الحديث لفظة أو جملة قالها بعض الرواة كتفسير أو رواية مرسلة يذكرها الراوي حين يروي ذلك الحديث الطويل، فالبخاري يذكر الحديث بطوله بكل ما ورد فيه، ولا يحذف منه تلك اللفظة

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥٠).

أو الجملة التي قالها بعض الرواة، وأهل الحديث يميزون الحديث المتصل من غيره، فقول الزهري في هذا الحديث: (فيما بلغنا) يبين أنّ هذه الجملة ليست مما رواه عن عروة عن عائشة، بل رواها عن أناس لم يسمهم، فهي رواية ضعيفة غير متصلة، وليست على شرط البخاري في الصحة، وإنما ذكرها البخاري لكونها متصلة في نفس الحديث الطويل.

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: "القائل: فيما بلغنا هو الزهري، ومعنى الكلام: أنّ في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري، وليس موصولاً"<sup>(١)</sup>.

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل في مسنده (٢٥٩٥٩) كما رواه البخاري، وقال محققو مسند أحمد: "قوله: حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً، غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال... إلخ، إنما هو من بلاغات الزهري، ومعلوم عند أهل العلم أنّ بلاغات الزهري واهية ليست بشيء".

وأكتفي بما تقدم لإبطال قول من يزعم أنّ أهل السنة يجعلون صحيح البخاري كالقرآن الكريم تماماً، ولا عاقل يقول بهذا، فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكل حرف من القرآن بقراءته العشر صحيح لا ريب فيه، ولا يوجد هذا في كتاب غيره، ومعلوم أنّه توجد لصحيح البخاري نسخ كتبها تلاميذه ثم تلاميذ تلاميذه ثم من بعدهم، ومع تطابقها في الجملة إلا أنّه يوجد بينها بعض الاختلافات

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٣٥٩ / ١٢).

اليسيرة، مثل كتابة بعضهم في نسخة: حدثنا، وكتابة بعضهم في نسخة: أخبرنا، ومثل كتابة بعضهم: حدثنا فلان غير منسوب، وفي بعضها بيان كونه فلان بن فلان، وفي بعض النسخ تكرار الكلمة مرتين، بل أحياناً يكون بين نسخ صحيح البخاري خلاف في بعض الكلمات، مثل: فقام ناس، وفي نسخة: فقام أناس، ومثل: في مسجدنا، وفي نسخة: في مساجدنا، وهي كما ترى خلافاً يسيرة لا تؤثر، والمقصود الرد على من يزعم أن أهل الحديث يجعلون صحيح البخاري مثل القرآن تماماً في كل حرف، وكيف يكون هذا ومعلوم عند أهل الحديث جواز رواية الحديث الشريف بالمعنى، ولا يجوز ذلك في القرآن الكريم، فمثلاً أول حديث في صحيح البخاري: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وفي رواية أخرى: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وفي هذا الحديث: «وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا»، وفي رواية: «أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا»، وكلها روايات في صحيح البخاري، وهي بمعنى واحد، ولكن لا يجوز عند كتابة القرآن الكريم أو تلاوته أن يكتب أو يُقرأ بدل الكلمة القرآنية معناها، وبهذا يتبين أن العلماء لا يجعلون صحيح البخاري بمنزلة القرآن الكريم، ومن ادعى ذلك عليهم فقد كذب عليهم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ [طه: ٦١].

هذا؛ وللإمام الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هجرية كتاب عظيم سماه (التتبع)، قال في أوله: "ابتداء ذكر أحاديث معلولة اشتمل عليها كتاب البخاري ومسلم أو أحدهما بينتُ عللها والصواب منها".

وللحافظ أبي علي الغساني الجياني المتوفى سنة ٤٩٨ هجرية كتاب (التنبيه على الأوهام الواقعة في المسندين الصحيحين).

ولالإمام الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية كتاب (موضح أوهام الجمع والتفريق)، وهو مطبوع في مجلدين، ذكر فيه أوهام كثير من أئمة الحديث في أسماء الرجال وكناهم، وابتدأ الخطيب البغدادي بذكر أوهام الإمام البخاري، ذكر فيه ٧٤ وهماً وقع للبخاري في كتابه التاريخ الكبير، ثم ذكر أوهام يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني ومسلم بن الحجاج وغيرهم من أئمة الحديث.

وأوسع كتاب في بيان أخطاء البخاري في كتابه التاريخ الكبير هو كتاب (بيان خطأ محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه) تأليف الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية، يذكر في الكتاب كلام أبيه الحافظ الكبير أبي حاتم الرازي والحافظ الكبير أبي زرعة الرازي، فقد تتبع هذان الحفاظان الكبيران كتاب التاريخ الكبير للبخاري، وذكر ما يريانه من أوهام البخاري في بعض ما ذكره من الأسماء، قال ابن أبي حاتم في أول كتابه: "بيان خطأ البخاري في تاريخه: سمعت أبي يقول: قال أبو زرعة: حمل إليّ الفضل بن العباس المعروف بالصائغ كتاب التاريخ، ذكر أنه كتبه من كتاب محمد بن إسماعيل البخاري، فوجدت فيه: محمد بن إبراهيم بن سليمان بن سمرة. وإنما هو محمد بن إبراهيم بن خبيب بن سليمان بن سمرة بن جندب. سمعت أبي يقول كما قال". ثم سرد ابن أبي حاتم ما ذكره

الحافظان أبو زرعة وأبو حاتم من أوهام البخاري في كتابه التاريخ الكبير، مع أن بعض ما ذكره لم يخطئ البخاري فيه.

ومن الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط؟

واعلم أن كتاب التاريخ الكبير للإمام البخاري مطبوع في ٨ مجلدات، ولم يكن أحد سبقه إلى مثل هذا التأليف العجيب في علم الرجال والجرح والتعديل، فقد ذكر فيه أسماء ٣٤٥٢ راويًا من رواة الحديث، يذكرهم غالبًا بأسمائهم وأسماء آبائهم، وربما ذكر أجدادهم ومن فوقهم، ويذكر نسبتهم وكناهم، ويذكر بعض مشايخهم وتلاميذهم، وربما ذكر تاريخ وفياتهم، فهو يعتبر أم كتب الجرح والتعديل، فقد حفظ لنا فيه أسماء آلاف الرواة وأسماء مشايخهم وتلاميذهم، فإذا حصل للبخاري في هذا الكتاب نحو سبعين أو مائة وهم فهي نسبة قليلة جدًا، فرحم الله الإمام البخاري وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

## (١٣) تعليل أحاديث الصحيحين بين المحدثين والمغرضين

المحدثون ٥ انتقدوا بعض الألفاظ أو الروايات في أحاديث يسيرة في الصحيحين وهي قليلة جداً، وتكلمهم فيها يزيد المسلم يقيناً بصحة أحاديث الصحيحين؛ لأنّ المحدثين لا يجاملون أحداً ولا حتى الإمامين البخاري ومسلماً، واجتهدوا في تتبع أحاديث الصحيحين كلها حديثاً حديثاً، وتكلموا عن أي علة خفية تظهر لهم في بعض طرق أحاديثهما أو في لفظة واحدة وإن كان الحديث صحيحاً محفوظاً من طريق آخر، وكتاب الإمام الدارقطني (الإلزامات والتتبع) خير شاهد على ذلك، فقد تتبع أحاديث الصحيحين وتكلم على أدنى علة تظهر له وإن كانت غير مؤثرة في صحة الحديث، وكذلك فعل غيره من أهل العلم المتخصصين في الحديث كابن عمار الشهيد وأبي مسعود الدمشقي وأبي علي الغساني وغيرهم، وأكثر ما يعلن الحديث بأنّه روي من طريق آخر موقوفاً أو مرسلأ، ولا يلزم من هذا تضعيفه مرفوعاً أو متصلأ؛ لأنّ الراوي قد يروي الحديث مرفوعاً ويرويه أحياناً موقوفاً على الصحابي ولا يرفعه، أو يرويه متصلأ ويرويه أحياناً مرسلأ، فإن كان من رفعه أو وصله ثقة حافظ فلا جناح على البخاري أو مسلم في ذكر الرواية المرفوعة أو الموصولة، والعبرة عند المحدثين في ترجيح المرفوع أو الموقوف أو الموصول أو المرسل بالقرائن.

ولا يصح لأي عالم من علماء الحديث فضلاً عن غيرهم أن يشكك في حديث من أحاديث الصحيحين أو غيرهما مما صح سنده إلا إذا أتى بحجة بيّنة بحسب القواعد التي وضعها أهل الحديث ٥ لمعرفة حال الحديث، فإنهم يجمعون طرق الحديث فيتبين لهم الصواب من الخطأ، وجمعهم للروايات يتبين لهم حال الرواة في الحفظ والإتقان، فمن وافق أصحابه الذين يشاركونه في الرواية عن شيخهم تبين لهم ضبطه وإتقانه، فإن خالفهم بالزيادة والنقصان والخطأ تبين لهم ضعف حفظه، فإن أضاف إلى ذلك تفرد بروايات عن شيخهم الواحد ولم يذكرها غيره من طلاب ذلك الشيخ تبين لأهل الحديث كذب ذلك الراوي أو اتهموه بالكذب بحسب إكثاره من التفرد وبحسب مروياته ومخالفته لأقرانه الذين يروون عن شيخ واحد، وبحسب متن الحديث الذي تفرد به، فإنهم ينظرون في متن الحديث كما ينظرون في إسناده.

ومن تكلم في طرق الحديث بعلم وإنصاف بحسب قواعد المحدثين في البحث والتحقيق فلا عتب عليه، ويبقى قوله ورأيه ظنيًا كما هو رأي من يخالفه؛ لأنَّ تعليل الأحاديث مبني على غلبة الظن كما قال الحافظ ابن حجر: "تعليل الأئمة للأحاديث مبني على غلبة الظن فإذا قالوا: أخطأ فلان في كذا لم يتعين خطؤه في نفس الأمر بل هو راجح الاحتمال" (١).

والناظر في كتاب (التتبع) للدارقطني بتحقيق الشيخ مقبل الوداعي يجد أن أكثر ما انتقده الدارقطني على البخاري لا يؤثر في صحة الحديث؛ لأنَّ

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١ / ٥٨٥).

انتقاده إنما هو في بعض الطرق مع كون البخاري رواه من طريق آخر سنده صحيح لا علة فيه، ولم يتم انتقاد الدارقطني للبخاري إلا في حديث واحد فقط مع كون صحته ليست بعيدة للمتأمل فيه، وهو حديث رقم (٢٨٥٥)، قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله بن جعفر، حدثنا معن بن عيسى، حدثنا أبي بن عباس بن سهل، عن أبيه، عن جده، قال: (كان للنبي ﷺ في حائطنا فرس يقال له اللّحيف).

قال الدارقطني في كتابه التتبع: "أبي بن عباس ضعيف" (١).

وصدق الدارقطني في ذلك، وغالب الظن أنّه لا يخفى على البخاري ضعف هذا الراوي، لكنه يعلم أنّ أخاه تابعه، فقد ذكر الحافظ ابن حجر أنّ هذا الحديث رواه عبد المهيم بن عباس بن سهل وتابع أخاه أبيًا في روايته عن أبيه عن جده، وعبد المهيم ضعيف مثل أخيه، لكن يقال: ليس واحدٌ منهما متهمًا بالكذب، وروايتهما عن أبيهما عن جدهما لا تخفى عليهما؛ لأنّ هذا السند ليس مما يغلط فيه الراوي، ولا يخشى من خطئهما في منته؛ فإنّ متن الحديث قصير، ولعل مجموع هذه الأمور جعلت البخاري يطمئن إلى صحة هذا الحديث، وهذا هو الحديث الوحيد الذي تم انتقاد الدارقطني للبخاري فيه بحسب قواعد المحدثين، ومع هذا فانتقاده محتمل، وقد يكون الصواب مع البخاري كما شرحت.

وأما مسلم فقد تم للدارقطني انتقاده في عدة أحاديث، وهي قليلة، لكن هناك حقيقة علمية خفيت على كثير من العلماء وطلاب العلم، وهي أنّ مسلمًا قد

(١) الإلزامات والتتبع (ص: ٢٠٣).

يروى الحديث في صحيحه ليبين علتها، ولا يريد من ذكره أن يُثبت صحته، فطريقته في صحيحه أن يروي الحديث من أصح الطرق ثم قد يذكر طريقاً لذلك الحديث فيها زيادة ضعيفة فيرويهما في صحيحه ليبين علتها، وقد أشار إلى طريقته هذه في مقدمة صحيحه، ولم يتنبه لهذا بعض من ينتقده، فينتقد حديثاً في صحيح مسلم، وإنما ذكره مسلم ليبين علتها!

قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: "إنّا إن شاء الله مبتدئون في تخريج ما سألت وتأليفه، على شريطة سوف أذكرها لك، وهو إنّا نعمد إلى جملة ما أسند من الأخبار عن رسول الله ﷺ، فنقسمها على ثلاثة أقسام، وثلاث طبقات من الناس على غير تكرار، إلا أن يأتي موضع لا يستغنى فيه عن ترداد حديث فيه زيادة معنى، أو إسناد يقع إلى جنب إسناد، لعلّة تكون هناك، فأما القسم الأول فإنّا نتوخى أن نقدم الأخبار التي هي أسلم من العيوب من غيرها، فإذا نحن تفحصنا أخبار هذا الصنف من الناس، أتبعناها أخباراً يقع في أسانيدنا بعض من ليس بالموصوف بالحفظ والإتقان، كالصنف المقدم قبلهم، وسنزيد إن شاء الله تعالى شرحاً وإيضاحاً في مواضع من الكتاب عند ذكر الأخبار المعللة إذا أتينا عليها في الأماكن التي يليق بها الشرح والإيضاح إن شاء الله تعالى" (١).

قال العلامة عبد الرحمن المعلمي في كتابه النافع (الأنوار الكاشفة): "عادة مسلم أن يرتب روايات الحديث بحسب قوتها، يقدم الأصح فالأصح" (٢).

(١) صحيح مسلم (١ / ٤ - ٧) باختصار.

(٢) الأنوار الكاشفة (ص: ٢٩).

وما أحسن ما يقوله شيخنا المحدث مقبل الوداعي في تحقيقه لكتاب الدارقطني (الإلزامات والتتبع): "أخرجه مسلم ليبيين علتة" (١).

وأذكر مثلاً لحديث أعله بعضهم في صحيح مسلم مع كون الإمام مسلم ذكره في صحيحه ليبيين علتة فيه مع كون أصل الحديث صحيح:

قال مسلم في حديث رقم (٢٠٦٥): "حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن نافع، عن زيد بن عبد الله، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي آيَةِ الْفِضَّةِ، إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» وحدثناه قتيبة، ومحمد بن رمح، عن الليث بن سعد، ح وحدثنيه علي بن حجر السعدي، حدثنا إسماعيل يعني ابن علي، عن أيوب، ح وحدثنا ابن نمير، حدثنا محمد بن بشر، ح وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن سعيد، ح وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، والوليد بن شجاع، قالوا: حدثنا علي بن مسهر، عن عبيد الله، ح وحدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا الفضيل بن سليمان، حدثنا موسى بن عقبة، ح وحدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا جرير يعني ابن حازم، عن عبد الرحمن السراج، كل هؤلاء عن نافع، بمثل حديث مالك بن أنس، بإسناده عن نافع، وزاد في حديث علي بن مسهر، عن عبيد الله، «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آيَةِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ»، وليس في حديث أحد منهم ذكر الأكل والذهب إلا في حديث ابن مسهر".

(١) يُنظر مثلاً: (ص: ١٤٧) و (ص: ٣٥١) و (ص: ٣٦٦).

فانظر كيف بيّن الإمام مسلم علة الحديث، وأنّ علي بن مسهر زاد الأكل وزاد الذهب، وأنّ الصواب في الحديث ذكر الشرب فقط في آنية الفضة بدون ذكر الأكل وبدون ذكر الذهب.

وما أحسن ما قاله ابن الصلاح: "ما انفرد به البخاري أو مسلم مندرج في قبيل ما يُقطع بصحته؛ لتلقي الأمة كل واحد من كتابيهما بالقبول على الوجه الذي فصلناه من حالهما فيما سبق، سوى أحرفٍ يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد من الحفاظ، كالدارقطني وغيره، وهي معروفة عند أهل هذا الشأن، والله أعلم" (١).

وقال ابن تيمية: "كتاب البخاري أجل ما صنف في هذا الباب، والبخاري من أعرف خلق الله بالحديث وعلمه، مع فقهه فيه، وقد ذكر الترمذي أنّه لم ير أحداً أعلم بالعلل منه؛ ... ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخاري مما صححه يكون قوله فيه راجحاً على قول من نازعه، بخلاف مسلم بن الحجاج، فإنّه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها، وكان الصواب فيها مع من نازعه، ... ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث تلقوها بالقبول، وأجمعوا عليها، وهم يعلمون علماً قطعياً أنّ النبي ﷺ قالها" (٢).

(١) علوم الحديث (ص: ٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

## (١٤) أقسام الأحاديث النبوية وحجية أحاديث الأحاد الصحيحة

تنقسم الأحاديث باعتبار حكم العلماء عليها إلى أربعة أقسام:

- ١- صحيح بلا خلاف بين أهل الحديث، فيجب قبوله.
  - ٢- موضوع بلا خلاف بين أهل الحديث، فيجب رده.
  - ٣- ضعيف بلا خلاف بين أهل الحديث، ومعنى كونه ضعيفاً أنه يُتوقف في قبوله ورده، ولا يُنسب إلى النبي ﷺ وإن كان معناه صحيحاً، لكن بعض الأحاديث الضعيفة ضعفها غير شديد، فأجاز بعض العلماء العمل بها في فضائل الأعمال، ورأى بعضهم العمل بها إن لم يكن في المسألة غيرها، ورأى بعضهم عدم العمل بها مطلقاً، وبعض الأحاديث الضعيفة ضعفها شديد، فهي أقرب إلى الرد.
  - ٤- مختلف في تصحيحه وتضعيفه بين أهل الحديث، فمن أخذ بأحد القولين اجتهداً أو تقليداً فلا حرج عليه؛ لأنّ مبنى التصحيح والتضعيف على غلبة الظن، وقد يصل العالم أو الباحث إلى اليقين في حكمه بصحة حديث أو ضعفه لقرائن تحتف بالحديث عند جمع طرقه والنظر في متنه وأسانيده.
- وينقسم الحديث باعتبار وصوله إلينا إلى قسمين: متواتر، وآحاد.

فالمتواتر ما رواه جمعٌ كثيرٌ عن جمعٍ كثيرٍ، وتحيل العادة تواطؤهم على الكذب، والآحاد ما رواه الواحد والاثنان والثلاثة ونحو ذلك من غير أن يصل إلى حد التواتر الذي يرويه جمع كثير عن جمع كثير.

ومسائل الاعتقاد والأحكام تؤخذ من القرآن الكريم، ومن الحديث الصحيح بقسميه المتواتر والآحاد، والذي عليه الصحابة ومن تبعهم بإحسان من العلماء المحققين أن خبر الواحد المتلقى بالقبول يفيد العلم والعمل حتى في مسائل الاعتقاد، ومما يدل على ذلك حديث ابن عباس **ك** أن النبي **γ** لما بعث معاذ بن جبل **η** إلى أهل اليمن قال له: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ تَعَالَى...»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام الشافعي: "فإن قال قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه أو إجماع. قلت له: أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي قال: «نُصِرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفَظَهَا وَوَعَاَهَا وَأَدَّأَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهٍ غَيْرِ فَفَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» ... فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأاً يؤديها، والمرء واحد: دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه؛ لأنه إنما يؤدي عنه حلالاً وحرماً يُجْتَنَبُ، وَحَدٌّ يُقَامُ، وَمَالٌ يُؤْخَذُ وَيُعْطَى، وَنَصِيحَةٌ فِي دِينٍ وَدُنْيَا... لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد"<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) الرسالة (ص: ٤٠١-٤٠٣، ٤٥٨).

وقال الخطيب البغدادي: "على العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين، في سائر أمصار المسلمين إلى وقتنا هذا، ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكار لذلك، ولا اعتراض عليه، فنثبت أنّ من دين جميعهم وجوبه، إذ لو كان فيهم من كان لا يرى العمل به لنقل إلينا الخبر عنه بمذهبه فيه"<sup>(١)</sup>.

وقال السمعاني: "إنّ الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ ورواه الثقات والأئمة وأسنده خلفهم عن سلفهم إلى رسول الله ﷺ وتلقته الأمة بالقبول فإنّه يوجب العلم فيما سبيله العلم، هذا قول عامة أهل الحديث والمتقنين من القائمين على السنة، وإنما هذا القول الذي يُذكر أنّ خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، ولا بد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به؛ شيءٌ اخترعته القدرية والمعتزلة، وكان قصدهم منه رد الأخبار"<sup>(٢)</sup>.

فالعلماء مجمعون على قبول خبر الواحد، وإفادته العلم والعمل، وإن اختلفوا في كونه يفيد العلم النظري اليقيني أو يفيد غلبة الظن<sup>(٣)</sup>، فالواجب

(١) الكفاية في علم الرواية (ص: ٣١).

(٢) الانتصار لأصحاب الحديث (ص: ٣٤).

(٣) الراجح عند المحققين أنّ حديث الأحاد قد يُفيد العلم اليقيني لقرائن تحتف بالخبر، كأن يكون الحديث في أحد الصحيحين مما لم ينتقده الحفاظ، أو يكون الحديث مشهوراً له طرق سالمة من ضعف الرواة ومن العلل، أو يكون إسناد الحديث مسلسلاً بالحفاظ المتقنين. يُنظر: مقدمة ابن الصلاح (ص: ٢٨، ٢٩)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٨/٤٠، ٤١) و (٢٠/٢٥٧ - ٢٦٢)، اختصار علوم الحديث لابن كثير (ص: ٣٥، ٣٦)، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر (ص: ٥٢ - ٥٥).

في الشريعة العمل بكل ما يفيد اليقين أو غلبة الظن حتى في مسائل الطهارة واستقبال القبلة والبيوع والنكاح والأنساب والقضاء وغير ذلك.

قال ابن أبي العز الحنفي: "خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملاً به وتصديقاً له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع، ... وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله أحاداً، ويرسل كتبه مع الأحاد، ولم يكن المرسل إليهم يقولون: لا نقبله لأثمه خبر واحد! ... والتفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلاً بالحديث، والبحث عن سيرة الرواة، ليقف على أحوالهم وأقوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نُقل إليهم، فهم عصابة الإيمان، ونقاد الأخبار، وصيارفة الأحاديث، فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه، ومن له عقل ومعرفة يعلم أنّ أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ما ليس لغيرهم به شعور، فضلاً أن يكون معلوماً لهم أو مظنوناً، كما أنّ النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكل ذي صنعة هو أخبر بها من غيره"<sup>(١)</sup>.

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٠١ - ٥٠٣) باختصار وتصرف يسير.

وقال ابن عثيمين: "جوابنا على من يرى أنّ أحاديث الآحاد لا تثبت بها العقيدة لأنّها تفيد الظن، والظن لا تبني عليه العقيدة أن نقول: هذا رأي غير صواب لأنّه مبني على غير صواب وذلك من عدة وجوه:

١ - القول بأنّ حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن ليس على إطلاقه، بل في أخبار الآحاد ما يفيد اليقين إذا دلت القرائن على صدقه، كما إذا تلقته الأمة بالقبول مثل حديث عمر بن الخطاب  $\eta$ : «**إنما الأعمال بالنيات**» فإنّه خبر آحاد، ومع ذلك فإننا نعلم أنّ النبي  $\gamma$  قاله، وهذا ما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر وغيرهما.

٢ - أنّ النبي  $\gamma$  كان يرسل الآحاد بأصول العقيدة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإرساله حجة ملزمة، كما بعث معاذاً إلى اليمن، واعتبر بعثه حجة ملزمة لأهل اليمن بقبوله.

٣ - إذا قلنا بأنّ العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد أمكن أن يقال: والأحكام العملية لا تثبت بأخبار الآحاد؛ لأنّ الأحكام العملية يصحبها عقيدة أنّ الله تعالى أمر بهذا أو نهى عن هذا، وإذا قيل هذا القول تعطل كثير من أحكام الشريعة، وإذا رد هذا القول فليُرد القول بأنّ العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد إذ لا فرق كما بينا.

٤ - أنّ الله تعالى أمر بالرجوع إلى قول أهل العلم لمن كان جاهلاً فيما هو من أعظم مسائل العقيدة وهي الرسالة فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، وهذا يشمل سؤال الواحد والمتعدد، والحاصل أنّ خبر الآحاد

إذا دلت القرائن على صدقه أفاد العلم، وثبتت به الأحكام العملية والعلمية"<sup>(١)</sup>.



(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١ / ٣١، ٣٢).

## (١٥) لماذا دَوَّن العلماء السابقون الأحاديث والآثار الضعيفة؟

العلماء السابقون  $\sigma$  كتبوا كل ما وصل إليهم من علمٍ، ورووه عن مشايخهم، سواء في التفسير وعلوم القرآن أو في الحديث والفقه، ودَوَّنوا ما وصل إليهم من أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم وفتاواهم وأخبارهم، وكتبوا كل ما استطاعوا تدوينه حتى من الأنساب والأشعار والحوادث والطرائف وتاريخ الوفيات وغير ذلك، وكتبوا ما لهم وما عليهم، وكتبوا حتى ما يُشكِل فهمه؛ لأنَّه قد يعلم معناه غيرهم، أو يتضح معناه في غير زمانهم، وقد دَوَّن علماء الحديث جميع الأحاديث التي سمعوها من مشايخهم، الصحيحة والضعيفة والموضوعة، وكتبوا الأحاديث بالأسانيد المتعددة، ولم يكتفوا بكتابة الحديث بإسناد واحد؛ لأنَّه بجمع طرق الحديث والمقارنة بين الروايات يتبين لهم أو هام الرواة، وحفظ المتقنين، وأخطاء الضعفاء، وكذب الوضاعين، ويتبين لهم علة الحديث الذي ظاهره الصحة، ويتبين لهم صحة الحديث الذي في إسناده ضعف إذا جاء من طرق معتبرة.

وعلماء الحديث يذكرون في كتبهم الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال والأخلاق وفي الزهد والرقائق من غير جزم بثبوتها، ولا يُجيزون إنكارها بلا علم، فالجزم بالإثبات أو النفي في مقام الاحتمال معيب عندهم، أما الأحاديث الموضوعة المعلوم كذبها فلم يذكرها غالب المحدثين في كتبهم، وكانوا يعيرون من يذكرها إلا لبيان بطلانها، أما الأحاديث الضعيفة الإسناد

التي قد تكون صحيحة في نفس الأمر فإنهم كتبوها في مصنفاتهم بأسانيدها، وبين كثير منهم ضعفها مع روايتهم لها، ومعنى كون الحديث ضعيفاً أنه يتوقف في نسبه إلى النبي ﷺ لكونه مروياً بإسناد فيه ضعف لسقط في إسناده أو طعن في بعض رواته، مع أنه قد يكون صحيحاً في نفس الأمر، كالحديث المرسل الذي يرويه تابعي عن النبي ﷺ، ولا يذكر من حدثه به، فقد يكون الذي حدثه صحابي فيكون ذلك الحديث المرسل صحيحاً، وقد يكون الذي حدثه تابعي ثقة سمعه من صحابي فيكون صحيحاً، وقد يكون الذي حدثه تابعي غير ثقة فيكون ضعيفاً، فاحتاط علماء الحديث للسنة النبوية بكتابة جميع الأحاديث الضعيفة، وبينوا ضعف الحديث الذي لا يروى إلا بإسناد منقطع أو تفرد به راو ضعيف الحفظ أو مجهول أو مبهم، مع احتمال أن يكون الحديث صحيحاً في نفس الأمر، فإن من كان ضعيف الحفظ قد يكون في نفس الأمر حفظ ذلك الحديث الذي تفرد به، وقد يكون المجهول أو المبهم ثقة في نفس الأمر، فاحتاط علماء الحديث بكتابة جميع الأحاديث الضعيفة حتى لا يضيع شيء من السنة النبوية، واجتهدوا في الحكم على الأحاديث، وميزوا بين الصحيح منها والضعيف والموضوع، فالحديث الصحيح يقبلونه، والحديث الضعيف لا يقبلونه كالصحيح، ولا يردونه كالموضوع، بل يتوقفون في نسبه إلى النبي ﷺ إلا أن يأتي ذلك الحديث من طريق أخرى معتبرة تدل على صحته.

قال المعافى بن زكريا (ت ٣٩٠ هـ): "كثير من العامة ومن لا نظر له من النقلة يظن أن ما ضعف روايه فهو باطل في نفسه، مقطوع على إنكاره

من أصله، وهذا جهلٌ ممن ذهب إليه، وذلك أنَّ راويًا معروفًا بالكذب في رواياته لو روى خبرًا انفراديًّا به مما يمكن أن يكون حقًّا وأن يكون باطلًا لوجب التوقف عن الحكم بصحته، والعمل بما تضمنه، ولم يجز القطع على تكذيب راويه والحكم بتكذيب ما رواه" (١).

وقال ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ): "إذا قالوا في حديث: إنَّه غير صحيح فليس ذلك قطعًا بأنَّه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صدقًا في نفس الأمر، وإنما المراد به أنَّه لم يصحَّ إسناده على الشرط المذكور" (٢).

وقال العراقي (ت ٨٠٦ هـ): "حيث قال أهل الحديث: هذا حديث صحيح، فمرادهم فيما ظهر لنا عملاً بظاهر الإسناد، لا أنَّه مقطوع بصحته في نفس الأمر، لجواز الخطأ والنسيان على الثقة ... وقولهم: هذا حديث ضعيف فمرادهم أنَّه لم يظهر لنا فيه شروط الصحة، لا أنَّه كذب في نفس الأمر، لجواز صدق الكاذب، وإصابة من هو كثير الخطأ" (٣).

ومعلوم أنَّ الشريعة الإسلامية السمحة لا تكلف المسلم إلا ما يغلب على ظنه، سواء في العبادات أو المعاملات، فمثلاً يجب الوضوء بالماء الذي يغلب على الظن أنَّه طاهر، وتصح الصلاة به وإن لم يكن طاهرًا في نفس الأمر، فلو كان الماء نجسًا ولم يعلم المسلم بنجاسته، وتوضأ منه، فوضوؤه صحيح، وكذلك لو اجتهد في الصلاة إلى جهة القبلة فأخطأ، فصلاته

(١) الجليس الصالح (ص: ٧٣٧).

(٢) معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح) (ص: ١٤).

(٣) شرح التبصرة والتذكرة (١/ ١٠٥، ١٠٦).

صحيحة، ويجب الصيام لرؤية الهلال، فإن كان هناك سحابٌ فعلينا أن نكمل عدة شعبان ثلاثين يوماً، مع احتمال أن الهلال طلع فعلاً ولكن غم علينا، فالشريعة تأمرنا بالظاهر، حتى في المعاملات، لو اشترى الإنسان شيئاً يظنه ملكاً لباعه كما هو الظاهر من حاله، وكان المبيع في الواقع مسروقاً لا يملكه بائعه، فلا إثم على المشتري، فالشريعة تكلف الإنسان بما يظهر له، ولا تأمره بالنتع والتكلف، حتى في الخصومات والحقوق يجب على القاضي الحكم بما يظهر له من شهادة الشهود والبيّنات، فلو أخطأ في حكمه فلا إثم عليه، بل يؤجر على اجتهاده، فالحمد لله على تيسير دينه، وهكذا على العالم أن يفتي الناس بما يظهر له أنه الحكم الشرعي، وعلى المحدث أن يحكم بصحة الحديث أو ضعفه بما يظهر له أنه الصواب.

قال ابن الأمير الصنعاني: "معلوم أن ما في نفس الأمر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، وأنه لا يُكفّ أحداً إلا بالعمل بما خوطب به، وظهر له صحته أو غيرها"<sup>(١)</sup>.

ومن فوائد التوسع في علم الحديث ومعرفة الأحاديث بأسانيد وطرقها أن يميز الطالب بين الصحيح والضعيف والموضوع، ويعلم ما اتفق المحدثون على صحته، وما اتفقوا على ضعفه أو وضعه، وما اختلفوا في تصحيحه، فالأحاديث التي يختلف العلماء في الحكم بتصحيحها وتضعيفها، أو يعطلها بعض النقاد بعِلِّ خفيت على غيرهم، هي أحكام بما يظهر لهم ويغلب على ظنهم، وطالب العلم المتخصص في علم الحديث يفرح إذا علم

(١) توضيح الأفكار (١/ ٣٠).

بعلة حديث، وإن لم ير العلة قادحة في صحة الحديث، فيستفيد من معرفته بعلة الحديث الذي ظاهره الصحة أن تنزل رتبة الحديث في نفسه من درجة اليقين إلى درجة غلبة الظن، فيعلم ما يجزم به وما لا يجزم به، مثل من رأى هلال رمضان بعينه فصام بيقين، ومن قبل خبر غيره برؤية الهلال فصام بغلبة الظن، وكلاهما مصيب، وكمن علم جهة القبلة بنفسه فصلى إليها بيقين، ومن أخبره غيره عن جهتها فقبل خبره لكونه يغلب على ظنه صدقه، فكلاهما صلاتهما صحيحة، وإن اختلفا في درجة العلم، ومن توسع في علم الحديث رواية ودراية يستفيد العلم بما يجزم به وما يكتفي فيه بغلبة الظن، ويعلم طريقة المحدثين في التعامل مع الأحاديث الضعيفة الإسناد، فلا يتعامل معها وكأنها كذب، بل كثير منها محتمل الصحة، ولا سيما ما في سنده ضعف يسير، وبعض الأحاديث الضعيفة أصلها من كلام الصحابة أو التابعين أخطأ بعض الرواة في نسبتها إلى النبي ﷺ؛ ولذلك نجد كثيرًا من الأحاديث الضعيفة صحيحة المعنى؛ لأن أصل غالبها من كلام بعض الصحابة أو التابعين أو أتباعهم، فجعلها بعض الضعفاء من قول النبي ﷺ، فحكم عليها المحدثون بالضعف، وإن كان معناها صحيحًا؛ فغالب الأحاديث الضعيفة يمكن الاستفادة منها في المواعظ والآداب ونحوها، من غير أن ننسبها إلى النبي ﷺ، فلا يعني الحكم بضعف الحديث أن يُهمل كالموضوع، فتنبّه.

ومن الأحاديث الضعيفة التي معناها صحيح: (الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه)، فهذا حديث ضعيف، ومعناه صحيح عند

الفقهاء، ولعله قاله بعض فقهاء الصحابة أو التابعين، فنسبه بعض الضعفاء إلى النبي ﷺ، ومن الأحاديث الضعيفة: (كفى بالموت واعظاً)، ومعناه صحيح، فمن يقرأ الأحاديث الضعيفة يجد فيها كثيراً من الفوائد الصحيحة من الأحكام والحكم والآداب والمواعظ، التي لو قالها أحد المعاصرين لاستحسنها منه، فما بالك بكونها مروية بالأسانيد في القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخيرية؟!!

## (١٦) جواز ذكر الحديث الضعيف في الفضائل من غير جزم بثبوتها

تقدم في الفصل السابق بيان أن كثيراً من الأحاديث الضعيفة هي قول أحد علماء الصحابة أو التابعين أو أتباعهم، أخطأ بعض الرواة في نسبتها إلى النبي ﷺ؛ ولذلك دون علماء الحديث الأحاديث الضعيفة لكثرة ما فيها من فوائد؛ ولاحتمال أن يكون بعضها من قول النبي ﷺ، وقد أجاز العلماء ذكر الحديث الضعيف في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب، وذكروا أنه لا يجوز الجزم بثبوتها عن النبي ﷺ، كما أنه لا يجوز نفيه وإنكاره بلا علم، قال ابن تيمية: "سوغ العلماء أن يروى في باب الوعد والوعيد من الأحاديث ما لم يعلم أنه كذب وإن كان ضعيف الإسناد، بخلاف باب الأمر والنهي فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما يثبت أنه صدق؛ لأنَّ باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقاً وأمکن أن يوجد الخبر كذباً لم يجز نفيه؛ لا سيما بلا علم كما لم يجز الجزم بثبوتها بلا علم؛ إذ لا محذور فيه"<sup>(١)</sup>.

واعلم أنَّ جهاذة المحدثين المتقدمين هم أسعد الناس بمعرفة السنة النبوية وتمييز صحيحها من ضعيفها، حتى أنهم يحكمون على بعض الثقات بالوهم في بعض الروايات التي تبين لهم أنَّ الراوي الثقة غلط، بدليل مخالفته غيره من الثقات الذين رووا نفس الحديث، ولهم كلام كثير ودقيق في تحليل الأحاديث التي ظاهرها الصحة، فعلى طالب العلم أن يسلك سبيل علماء

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٩٣).

الحديث الذين يميزون بين الصحيح والضعيف والموضوع، ولا يردون الضعيف كالموضوع، بل يستفيدون مما في الأحاديث الضعيفة من فوائد ومعان صحيحة، وقد أجاز النبي ﷺ التحديث عن بني إسرائيل بما لا يُعلم كذبه مع عدم الجزم بصدقه ولا الجزم بكذبه، فمن باب أولى جواز رواية الحديث الضعيف الذي لا نعلم كذبه، ويُحتمل أنه صحيح في نفس الأمر، لكن لا نجزم بصحته ونسبته إلى النبي ﷺ، وهذه طريقة العلماء المتقدمين كما هو ظاهر في كتبهم، واتبعهم عليها مشاهير العلماء المتأخرين كالبيهقي وابن عبد البر والبغوي وابن الجوزي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب وابن حجر وغيرهم من حفاظ الحديث الذين يذكرون أحياناً في مصنفاتهم أحاديث ضعيفة من غير جزم بصحتها، وكثيراً ما يبينون ضعفها، وأحياناً يكتفون بذكر مَنْ أخرجها مِنْ غير ذكر ضعفها، فيعجب بعض طلاب العلم مِنْ إيراد هؤلاء العلماء الكبار لبعض تلك الأحاديث الضعيفة في كتبهم، ولو علم أَنَّ العلماء لا يَرُدُّون الأحاديث الضعيفة مطلقاً كالموضوعة لزال عجبه، فهم يستفيدون من المعاني الصحيحة المذكورة في الأحاديث الضعيفة، ويروونها في فضائل الأعمال والزهد والرقائق ونحوها، وإن كانوا لا يعتمدون على الأحاديث الضعيفة في الأحكام الشرعية من الحلال والحرام، ولا يثبتون بها شيئاً من الواجبات والسنن، بل إنَّ العلماء ينقلون بعض أشعار الجاهليين والإسلاميين التي فيها حكم وفوائد، وقد يذكرون بعض الأمثال الصحيحة مما قاله العرب في الجاهلية أو العجم، ويذكرون بعض الحكايات التي فيها عبرة وموعظة، وإن لم يكن لكثيرٍ منها

أسانيد متصلة، فمن بابٍ أولى ذكر بعض الأحاديث الضعيفة التي معانيها صحيحة، والاستئناس بها، فالعلماء لا يصححون الحديث الضعيف الذي تفرد بروايته راوٍ ضعيف، ولا يُكذِّبون ذلك الحديث الضعيف، بل يتوقفون فيه، فيحكمون على حديثه بالضعف بحسب الظاهر، ولا يجزمون بكذب راويه وإن كان ضعيفاً عندهم؛ لأنَّ الله سبحانه أمر بالتبيين في خبر الفاسق، ولم يأمر برد خبره مطلقاً؛ لأنَّ الفاسق قد يصدق في بعض أخباره، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وكثير من الرواة الضعفاء هم صالحون في دينهم، وإنما ضَعُفُوا لسوء حفظهم، وعدم اعتنائهم بضبط الأحاديث التي سمعوها من شيوخهم.

ومن أخطاء بعض طلاب العلم الجزم بتكذيب الحديث الضعيف، وليس هذا معروفاً عن أهل العلم الراسخين، فأهل العلم حين يُبينون ضعف حديث لا يجزمون بكذبه، والجزم بتكذيب الحديث الضعيف خطأ مقابل خطأ العوام الذين يجزمون بتصديق الحديث الضعيف، وأما علماء الحديث فلا يُصدِّقون بالحديث الضعيف لعدم صحة إسناده، ولا يُكذِّبونه إلا إذا كان سنده شديد الضعف أو كان موضوعاً أو مخالفاً لآية قرآنية أو لحديث صحيح أو مخالفاً للأصول أو لغير ذلك من القرائن التي تدل على بطلانه.

قال ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] "أي: لم يحيطوا بمعرفته، ... هذه الآية توجب أن الإنسان لا يُكذِّب إلا بخبر يعلم ويعرف أنه كذب، والخبر المجهول يسكت عنه" (١).

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨ / ٢٨٨).

وَمِنْ أخطاء بعض طلاب العلم الإعراض عن الآثار التي رواها العلماء في كتب الزهد والرقائق والأخلاق، أو جعل غالب همهم ومبلغ علمهم الانشغال ببيان ما صح منها مما لم يصح، ثم يُعرضون عن الضعيف، مع أنّ المقصد من الروايات المذكورة في كتب الزهد والرقائق والأخلاق ترقيق القلوب، وتزكية النفوس، وزيادة الإيمان، والترغيب في التوبة إلى الرحمن، والتزهيد في الدنيا الفانية، والرغبة في الآخرة الباقية، والحث على الأعمال والأخلاق الحسنة، والزجر عن الأعمال والأخلاق السيئة؛ ولهذا تساهل علماء الإسلام في رواية أخبار الزهد والرقائق وإن كان في أسانيدها ضعف، وقد دوّن العلماء تلك الأقوال والحكايات في الزهد والرقائق والأخلاق؛ لأنّ في معرفتها فوائد عظيمة، منها: أنّ نعلم حال الصالحين السابقين، وما كانوا عليه من الزهد وقوة الإيمان واليقين، وما كانوا عليه من الأخلاق التي فيها صلاح الدين والدنيا، وفيها تنبيه للغافلين، وحث على الاجتهاد في إقامة الدين، وفيها تأنيب نفوسنا على التقصير في العبادة، والغفلة عن الخشوع والزهادة، ونستفيد من تلك الروايات احتقار أنفسنا إذا قارناها بحال الزهاد العابدين، والعلماء العاملين<sup>(١)</sup>.

وبعض طلاب العلم المعاصرين يتبنى محاربة الأحاديث والآثار الضعيفة، ولا ينظر إلى ما فيها من المعاني الصحيحة، حتى أنّ بعضهم ينشغل في تدريس التفسير بتصحيح وتضعيف الآثار المروية في التفسير،

(١) لي كتاب بعنوان: (تهذيب كتب الزهد المسندة)، واختصرته في كتاب (الزهد الصغير)، وكلاهما بحمد الله منشور في شبكة الألوكة.

فيفوته تدبر معاني الآيات، ومعرفة تفسيرها، ومعلوم أنّ طريقة العلماء التساهل في قبول أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، ولا يشددون في أسانيدها كما يشددون في الأحاديث المرفوعة، وقد يُضعفون بعض الأسانيد التي يروى بها أقوال الصحابة ومن بعدهم لنكارة في متنها أو تفرد راوٍ ضعيف بإسناد يخالف المعروف عن ذلك الصحابي أو التابعي.

روى الخطيب البغدادي عن يحيى بن سعيد القطان (ت ١٩٨ هـ) قال: "تساهلوا في أخذ التفسير عن قوم لا يوثقونهم في الحديث، ثم ذكر ليث بن أبي سليم، وجويبر بن سعيد، والضحاك، ومحمد بن السائب الكلبي، وقال: هؤلاء لا يُحمد أمرهم، ويُكتب التفسير عنهم" (١).

وفي قول الإمام الكبير يحيى القطان تنبيه مهم، وهو التساهل في قبول روايات التفسير، وإن كان بعض رواياتها ضعيفاً في الحديث، ولا سيما الروايات الموجودة في نسخ التفسير المعروفة، فهي نسخٌ كتبها العلماء في القرن الأول أو الثاني الهجري، ونقلها عنهم من بعدهم، ففيها علم نافع، ولا بأس برد بعض الروايات التي فيها مخالفة للقرآن الكريم أو للسنة النبوية الصحيحة أو لغرابة القول ومخالفته لقول أكثر السلف والمعروف في اللغة، أما الحكم على كل رواية من روايات التفسير كما يُحكم على أسانيد الأحاديث النبوية، وتضعيف بعض أسانيد التفسير لكون بعض رواياتها ضعيفاً عند المحدثين أو لكونه لم يسمع ممن روى عنه التفسير الثابت عنه من طريق غيره؛ فهذا مخالف لمنهج العلماء الراسخين.

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨ / ٢٨٨).

ولا شك أن الأنسب لعامة الناس الاقتصار على معرفة الأحاديث الصحيحة والحسنة، ففيها كفاية عن الأحاديث الضعيفة والمعلولة، كما أن الأفضل لهم عدم الانشغال بذكر الروايات الإسرائيلية المذكورة في كتب التفسير وغيرها، لكن من ذكرها من المفسرين فلا حرج عليه بنص قول النبي **ص: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»<sup>(١)</sup>**، وهذا بيان لعذر المفسرين الذين يذكرونها أخذًا بهذه الرخصة، وإن كان بعضهم يتوسع في ذلك، ويروي ما يُعلم بطلانه، والمقصود بيان سبب ذكر العلماء للأحاديث الضعيفة في كتبهم، وأؤكد على أن الأفضل والأكمل والأسلم للعالم ولطالب العلم وللخطيب عدم ذكر الأحاديث الضعيفة والإسرائيليات لعامة الناس، لا سيما والعامة يصدقونها، ولا يعلمون أن العلماء إذا ذكروها لا يُصدّقون بها ولا يُكذّبونها، ومن احتاج إلى ذكر حديثٍ ضعيف - ولو في فضائل الأعمال - في خطبة أو كتاب أو مقال فليبين ضعفه إبراءً للذمة، ونصًا للأمة.

وينبغي لطالب العلم الاعتناء أولاً بالقرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، لا سيما الصحيحان، ويهتم أعظم الاهتمام بتفسير القرآن وشروح الأحاديث والتفقه في الدين، ثم بعد ذلك يستفيد من الكتب الجامعة لأقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، ثم بعد ذلك يستفيد من الكتب الجامعة للأحاديث الضعيفة؛ ككتب المراسيل، والمعاجم، والأجزاء الحديثية، وكتب الزهد، ففيها خير كثير، وعلم غزير، وفوائد جمة، ونقول نفيسة، ويستفيد أيضًا من كتب الشعر والأدب، والأمثال والتراجم، ونحوها، ففي كل ذلك فوائد وآداب،

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص **ص**.

وَجَمِّ ومواعظ، وإنَّ من الشعر لَحِكْمَةٌ، وإن كان قائله مشرِّكًا جاهليًّا،  
(الحكمة ضالَّة المؤمن أتى وجدها فهو أحق بها)؛ وهذا حديث ضعيف،  
لكن معناه صحيح.

فهنيئًا لمن تعلم القرآن الكريم وتفسيره، وتعلم السنة النبوية رواية ودراية،  
وتفقه في الدين بلا تعصب، وعرف ما كان عليه الصحابة والتابعون  
وأتباعهم الذين هم خير القرون، واطَّلَع على أقوالهم وفتاواهم وأخبارهم،  
وما كانوا عليه في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم.

قال عبد الرزاق الصنعاني: عن معمر عن صالح بن كيسان قال:  
"اجتمعت أنا وابن شهاب الزهري ونحن نطلب العلم، فقلنا: نكتب السنن،  
فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ، ثم قال: نكتب ما جاء عن أصحابه فأثَّه سنة،  
وقلت أنا: ليس بسنة فلا نكتبه، وكتب ولم أكتب، فأنجَحَ وضيَعْتُ!"<sup>(١)</sup>.

وعلى طالب العلم أن يُفَرِّق بين ذكر الحديث الضعيف وبين العمل به،  
فالحديث الضعيف - وإن جاز ذكره في الفضائل - لا يجوز العمل به في  
العقائد والأحكام، ولا تثبت به المشروعية والاستحباب، قال ابن تيمية: "لا  
يجوز أن يُعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة  
ولا حسنة، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جَوَّزوا أن يُروى في  
فضائل الأعمال ما لم يُعلم أنَّه ثابت إذا لم يُعلم أنه كذب، وذلك أنَّ العمل إذا  
عُلم أنَّه مشروع بدليل شرعي ورُوي في فضله حديث لا يُعلم أنه كذب جاز  
أن يكون الثواب حقًّا، ولم يقل أحد من الأئمة: إنَّه يجوز أن يُجعل الشيء

(١) يُنظر: جامع معمر بن راشد (٢٠٤٨٧)، وجامع بيان العلم لابن عبد البر (٤٤٢).

واجبًا أو مستحبًا بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع، وهذا كما أنه لا يجوز أن يُحرّم شيء إلا بدليل شرعي، لكن إذا عُلم تحريمه ورُوي حديث في وعيد الفاعل له ولم يُعلم أنه كذب جاز أن يرويه، فيجوز أن يروي في الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب، لكن فيما عَلم أنّ الله رَغَّب فيه أو رَهَّب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله، وهذا كالإسرائيليات يجوز أن يُروى منها ما لم يُعلم أنه كذب للترغيب والترهيب فيما عَلم أنّ الله تعالى أمر به في شرعنا، ونهى عنه في شرعنا، فأما أن يُثبت شرعًا لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله عالم<sup>(١)</sup>.

وروى الخطيب البغدادي عن النوفلي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: "إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال، وما لا يضع حُكمًا أو يرفعه تساهلنا في الأسانيد"<sup>(٢)</sup>.

وروى الحاكم عن الحافظ الكبير عبد الرحمن بن مهدي قال: "إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال، وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات تساهلنا في الأسانيد"<sup>(٣)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٢) الكفاية في علم الرواية باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال (ص: ١٣٤).

(٣) المستدرک (١/ ٦٦٦).

الأعمون

## (١٧) مشروعية اجتهاد العلماء فيما ليس فيه نص ولا إجماع

الاجتهاد في اللغة: بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال.  
وفي اصطلاح الأصوليين: بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بالأحكام  
الشرعية بطريق الاستنباط.

ومن المقرر شرعاً أنّ كل حادثة أو واقعة من أمر الدنيا تتعلق بالإنسان  
لها حكم شرعي عند الله تعالى، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، وأنّه  
يجب على علماء الأمة أن يبينوا الحكم الشرعي في ذلك الأمر، فكل ما تراه  
وتسمعه من أقوال المكلفين وأفعالهم له حكمٌ في الشرع، فإما أن يكون واجباً  
أو مستحباً أو محرماً أو مكروهاً أو مباحاً، وإن كان من العقود فإما أن يكون  
صحيحاً أو باطلاً، وهذا أمر غير محدود ولا محصور، ولا ينتهي مع التقدم  
والتطور.

ومعلوم أنّ النصوص الواردة في القرآن والسنة لبيان الأحكام الشرعية  
محدودة ومحصورة، وأنّ أحداث الكون التي تتعلق بالإنسان في مختلف  
الأزمنة والأمكنة، ومع تطور الحياة، وتقدم العلوم، وورقي الأمم  
والحضارات، غير محدودة ولا محصورة، وهذا يقتضي مشروعية اجتهاد  
العلماء ليبينوا أحكام الحوادث التي لم يرد فيها نص في القرآن ولا في السنة،  
ويجب على غير العلماء أن يسألوا أهل العلم والاختصاص، وهم المجتهدون

والعلماء والفقهاء، قال تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وليست كل الأحكام الشرعية محل اجتهاد، وإنما الاجتهاد فيما ليس فيه دليل قطعي من نص من القرآن الكريم والسنة الصحيحة أو إجماع ثابت، فالأحكام الشرعية التي فيها أدلة قطعية لا تحتمل الاجتهاد والاختلاف، وأما الأحكام التي لم ترد فيها نصوص قطعية، وإنما وردت فيها نصوص ظنية الثبوت أو الدلالة فهي التي يكون فيها الاجتهاد.

واجتهاد العلماء لا يتقيد بزمان ولا مكان، بل هو أمر ممكن في كل عصر لمن توافرت فيه شروط الاجتهاد من العلماء، فالاجتهاد باق إلى يوم القيامة، بشرط أن تكمل في العالم شروط الاجتهاد التي بينها العلماء في كتب أصول الفقه، حتى يتمكن المجتهد من استنباط الأحكام الشرعية.

ولم تنزل الأمة تمر عليها النوازل، ويحتاج المسلمون إلى معرفة حكم الله تعالى فيها، ولا يتم ذلك إلا بنظر العالم المجتهد في الأدلة الشرعية لمعرفة الحكم الشرعي فيها، وقد اجتهد علماء الصحابة **p** في معرفة الأحكام الشرعية التي حدثت بعد موت النبي **ﷺ**، وهكذا اجتهد علماء التابعين ومن بعدهم من أئمة الدين والفقهاء، ونُقلت إلينا اجتهاداتهم، ووضع العلماء شروطاً وضوابط للاجتهاد حتى يكون مقبولاً، وهذه الشروط تضمن أن لا يتحول الاجتهاد إلى تلاعب بالأدلة الشرعية، فليست المسألة فوضى يقول مَنْ شاء ما شاء، بل هناك شروط للاجتهاد يجب على المجتهد التقيد بها، وإلا كان اجتهاده نوعاً من التلاعب والعبث.

فَيُشْتَرَطُ فِي الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، عَارِفًا بِمَوَاطِنِ الْإِجْمَاعِ وَالْإِخْتِلَافِ، مُطَّلِعًا عَلَى فَتَاوَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَاتِّبَاعِهِمْ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةِ الدِّينِ، وَأَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، عَالِمًا بِأَصُولِ الْفِقْهِ وَالْقَوَاعِدِ الْفِقْهِيَّةِ وَمِصْطَلَحِ الْحَدِيثِ، يَسْتَطِيعُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ صَحِيحِ الْحَدِيثِ وَضَعِيفِهِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِالرَّجُوعِ إِلَى كُتُبِ الْمُتَخَصِّصِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَأَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ، وَأَنْ يَكُونَ فَقِيهًا عِنْدَهُ قُدْرَةٌ يَتِمَكَّنُ بِهَا مِنْ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْ أَدْلَتِهَا، وَالصَّحِيحِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَجَزَأَ الْاجْتِهَادُ بِأَنْ يَجْتَهِدَ الْبَاحِثُ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ، فَيُبْحِثُهَا وَيُحَقِّقُهَا وَيَكُونُ مُجْتَهِدًا فِيهَا أَوْ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ ثِقَةً فِي دِينِهِ، مُنْصَفًا فِي بَحْثِهِ، لَا يَخْشَى فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَلَا يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَلَا هَوَىٰ غَيْرِهِ، وَبِهَذِهِ الشَّرُوطِ يَكُونُ الْاجْتِهَادُ مُنْضَبِطًا، بَعِيدًا عَنِ التَّلَاعِبِ وَالْهَوَىٰ (١).

سُئِلَ عُلَمَاءُ اللُّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلْإِفْتَاءِ: هَلْ يُعْتَبَرُ بَابُ الْاجْتِهَادِ فِي الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَفْتُوحًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَوْ أَنَّ هُنَاكَ شُرُوطًا لَا بَدَّ أَنْ تَتَوَافَرَ فِي الْمُجْتَهِدِ؟ وَهَلْ يَجُوزُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَفْتِيَ بِرَأْيِهِ دُونَ مَعْرِفَتِهِ بِالْأَدْلِيلِ الْوَاضِحِ؟ فَأَجَابُوا: "بَابُ الْاجْتِهَادِ فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لَا يَزَالُ مَفْتُوحًا لِمَنْ كَانَ أَهْلًا

(١) يُنظَرُ: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني (٢/ ٢٠٥ - ٢١٧)، الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان (ص: ٢٢١ - ٢٢٥)، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي لمحمد الزحيلي (٢/ ٢٦٨، ٢٦٩)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١/ ١٨، ١٩، ٤٢، ٤٣)، الأصول من علم الأصول لابن عثيمين (ص: ٨٥، ٨٦)، آراء العلماء المعاصرين في الاجتهاد الجماعي لشعبان بن محمد (ص: ١ - ٣).

لذلك، بأن يكون عالمًا بما يحتاجه في مسأله التي يجتهد فيها من الآيات والأحاديث، قادرًا على فهمهما والاستدلال بهما على مطلوبه، وعالمًا بدرجة ما يستدل به من الأحاديث، وبمواضع الإجماع في المسائل التي يبحثها حتى لا يخرج على إجماع المسلمين في حكمه فيها، عارفًا من اللغة العربية القدر الذي يتمكن به من فهم النصوص؛ لينأى له الاستدلال بها، والاستنباط منها، وليس للإنسان أن يقول في الدين برأيه أو يفتي الناس بغير علم، بل عليه أن يسترشد بالدليل الشرعي، ثم بأقوال أهل العلم، ونظرهم في الأدلة، وطريقتهم في الاستدلال بها والاستنباط، ثم يتكلم أو يفتي بما اقتنع به ورضيه لنفسه دينًا<sup>(١)</sup>.

فما سكت الوحي عن تفصيله، فلاهل الاجتهاد تفصيله؛ شريطة أن لا يصادم حكمًا لله ثابتًا، فإن التشريع الإسلامي جاء بقواعد وأصول كلية تدرج فيها كل حادثة؛ لأن الشريعة صالحة لكل وقت، وملائمة لجميع البيئات، وقد بُنيت الشريعة على التيسير ورفع الحرج ودفع الضرر، وفي جانب تشريع المعاملات لم تعتمد الشريعة إلى التفصيل، بل أنت بقواعد عامة صالحة للتطبيق في كل حين، بما يحقق مصالح الناس على اختلاف الأزمان والبيئات؛ لأنها تشريع للناس كلهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن النصوص الشرعية والقواعد الفقهية والأصولية يستنبط أهل الاجتهاد الأحكام، ويبينون الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

(١) فتاوى اللجنة الدائمة - ١ (٥/٢٤، ٢٥).

الْكِتَابَ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ [النحل: ٨٩]،  
فالقرآن العظيم تبيان لكل شيء يحتاج الناس إلى بيانه إما نصاً أو ظاهراً أو  
استنباطاً أو إشارة، علم ذلك من علمه وجهله من جهله، وليس معنى أن  
القرآن تبيان لكل شيء أنه أحاط بجزئيات الوقائع والحوادث، ونص على  
تفاصيل أحكامها، وإنما أتت الأحكام في القرآن والسنة في صورة قوانين  
عامة ومبادئ كلية يمكن تحكيمها في كل ما يعرض للناس في حياتهم  
اليومية، فهي قوانين محكمة ثابتة لا تختلف، ولا يسوغ الإخلال بشيء منها،  
وعامة كلية يمكن أن تتماشى مع اختلاف الظروف والأحوال.

ومن تلك المبادئ والقوانين: الأمور بمقاصدها، ورفع الحرج، ودفع  
الضرر، والمشقة تجلب التيسير، والبقاء على الأصل، وعدم زوال اليقين  
بالشك، واعتبار العادة والعرف في إثبات الحكم إذا لم يُنص في الشرع على  
خلافه، والبينة على المدعى، واليمين على من أنكر، ووجوب العدل، وحرمة  
الظلم، والحث على الشورى، وأداء الأمانات إلى أهلها، والرجوع بمهام  
الأمر إلى أهل الاختصاص، والأمر بالحرص على ما ينفع في أمور الدين  
والدنيا.

عن النعمان بن بشير **ك** قال: سمعت رسول الله **ص** يقول: «إِنَّ الْحَالَ بَيْنَ  
وَأَنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى  
الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ،  
كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى،

أَلَا وَإِنَّ حَمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»<sup>(١)</sup>.

قال ابن تيمية: "بيان الأحكام يحصل تارة بالنص الجلي المؤكد، وتارة بالنص الجلي المجرد، وتارة بالنص الذي قد يعرض لبعض الناس فيه شبهة بحسب مشيئة الله وحكمته، وذلك كله داخل في البلاغ المبين، فإنه ليس شرط البلاغ المبين أن لا يُشكَل على أحد، فإن هذا لا ينضب، وأذهان الناس وأهواؤهم متفاوتة متفاوتًا عظيمًا، وفيهم من يبلغه العلم، وفيهم من لا يبلغه إما لتفريطه وإما لعجزه، وإنما على الرسول البلاغ المبين البيان الممكن، وهذا - والله الحمد - قد حصل منه  $\gamma$ ، فإنه بلغ البلاغ المبين، وترك الأمة على البيضاء ليلا كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، وما ترك من شيء يقرب إلى الجنة إلا أمر الخلق به، ولا من شيء يقربهم من النار إلا نهاهم عنه، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبيًا عن أمته"<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن رجب: "الله تعالى أنزل على نبيه الكتاب، وبين فيه للأمة ما يحتاج إليه من حلال وحرام، ووكل بيان ما أشكل من التنزيل إلى الرسول  $\gamma$  كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وما قبض  $\gamma$  حتى أكمل له ولأمة الدين، وفي الجملة فما ترك الله ورسوله حلالًا إلا مبيّنًا ولا حرامًا إلا مبيّنًا، لكن بعضه كان أظهر بيّنًا من بعض، فما ظهر بيانه واشتهر وعلم من الدين بالضرورة

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٨ / ٥٧٥، ٥٧٦).

من ذلك لم يبق فيه شك، ولا يُعذر أحدٌ بجهله في بلد يظهر فيه الإسلام، وما كان بيانه دون ذلك، فمنه ما اشتهر بين حملة الشريعة خاصة، فأجمع العلماء على حله أو حرمة، وقد يخفى على بعض من ليس منهم، ومنه ما لم يشتهر بين حملة الشريعة أيضًا، فاختلّفوا في تحليله وتحريمه وذلك لأسباب: منها أنّه قد يكون النص عليه خفيًا لم ينقله إلا قليل من الناس، فلم يبلغ جميع حملة العلم. ومنها أنّه قد يُنقل فيه نسان، أحدهما بالتحليل، والآخر بالتحريم، فيبلغ طائفة منهم أحد النصين دون الآخر، فيتمسكون بما بلغهم، أو يبلغ النسان معًا من لم يبلغه التاريخ، فيقف لعدم معرفته بالناسخ. ومنها ما ليس فيه نص صريح، وإنما يؤخذ من عموم أو مفهوم أو قياس، فتختلف أفهام العلماء في هذا كثيرًا. ومنها ما يكون فيه أمر أو نهي، فتختلف العلماء في حمل الأمر على الوجوب أو الندب، وفي حمل النهي على التحريم أو التنزيه، وأسباب الاختلاف أكثر مما ذكرنا. ومع هذا فلا بد في الأمة من عالم يوافق الحق، فيكون هو العالم بهذا الحكم، وغيره يكون الأمر مشتبهًا عليه ولا يكون عالمًا بهذا، فإنّ هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الحق مهجورًا غير معمول به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا قال **٧** في المشتبهات: **«لا يعلمهن كثير من الناس»**، فدل على أنّ من الناس من يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء ... فالأمور المشتبهة التي لا تتبين أنها حلال ولا حرام لكثير من الناس كما أخبر به النبي **٧**، قد يتبين لبعض الناس أنّها حلال أو

حرام، لما عنده من ذلك من مزيد علم، وكلام النبي ﷺ يدل على أن هذه المشتبهات من الناس من يعلمها، وكثير منهم لا يعلمها ... وقوله ﷺ: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام» قسّم الناس في الأمور المشتبهة إلى قسمين، وهذا إنما هو بالنسبة إلى من هي مشتبهة عليه، وهو ممن لا يعلمها، فأما من كان عالمًا بها، واتبع ما دله علمه عليها، فذلك قسم ثالث لم يذكره لظهور حكمه، فإنّ هذا القسم أفضل الأقسام الثلاثة؛ لأنّهُ علم حكم الله في هذه الأمور المشتبهة على الناس، واتبع علمه في ذلك. وأما من لم يعلم حكم الله فيها فهم قسمان: أحدهما من يتقى هذه الشبهات، لاشتباهاها عليه، فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه. ومعنى استبرأ: طلب البراءة لدينه وعرضه من النقص والشين، والعرض: هو موضع المدح والذم من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل مدح، وبذكره بالقبيح قدح، وقد يكون ذلك تارة في نفس الإنسان، وتارة في سلفه، أو في أهله، فمن اتقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حصّن عرضه من القدح والشين الداخل على من لا يجتنبها، وفي هذا دليل على أنّ من ارتكب الشبهات فقد عرض نفسه للقدح فيه والطنن، كما قال بعض السلف: من عرض نفسه للطنن، فلا يلومن من أساء به الظن. والذي يأتي الشبهات مع اشتباهاها عليه قد أخبر عنه النبي ﷺ أنّه وقع في الحرام، فهذا يُفسّر بمعنيين: أحدهما: أن يكون ارتكابه للشبهة مع اعتقاده أنّها شبهة ذريعة إلى ارتكابه الحرام الذي يعتقد أنّه حرام بالتدرّج والتسامح. والمعنى الثاني: أنّ من أقدم

على ما هو مشتبه عنده، لا يدري أهو حلال أو حرام، فإنه لا يأمن أن يكون حراماً في نفس الأمر، فيصادف الحرام وهو لا يدري أنه حرام" (١).



## (١٨) أسباب اختلاف الفقهاء

### الخلاف ثلاثة أنواع:

- (١) **خلاف تضاد:** وهو مخالفة النص الصحيح الصريح بلا تأويل سائغ، وهو محرّمٌ لما فيه من المشاققة لله ورسوله واتباع غير سبيل المؤمنين.
  - (٢) **خلاف أفهام:** وهو الخلاف بسبب الاختلاف في فهم النص أو للاختلاف في ثبوته أو في نسخه أو في الجمع بينه وبين غير من الأدلة، وهو جائز، ومن أصاب له أجران، ومن أخطأ له أجر.
  - (٣) **خلاف تنوع:** وهو الخلاف بسبب ورود النص بالأمرين جميعًا، تخييرًا وتوسعة للمسلمين، فهو خلاف مشروع، والأفضل عمل هذا أحيانًا وهذا أحيانًا، ومن اقتصر على عمل أحدهما فلا بأس.
- وغالب خلاف فقهاء الإسلام هو من خلاف الأفهام وخلاف التنوع، وهما خلاف رحمة وتوسعة، أما خلاف التضاد فهو شر وفتنة، ومثال خلاف التضاد: الخلافات المشهورة بين أهل السنة وأهل البدع، ومثال خلاف الأفهام: اختلاف الفقهاء في حكم المضمضة والاستنشاق في الوضوء والغسل، واختلافهم في حكم زكاة حلي المرأة، واختلافهم في حكم الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، ومثال خلاف التنوع: أوجه القراءات المتواترة، والتخيير في كفارة اليمين، والتنويع في أدعية الاستفتاح، وأذكار الركوع والسجود، وصلاة الوتر ثلاث ركعات متصلة أو ركعتان ثم ركعة، والقنوت في الوتر وتركه، وبعض العلماء جعل من خلاف التنوع: الجهر بالبسملة

والإسرار بها، والقنوت في الفجر وتركه، والتورك في الصلاة أو الافتراش، وسجود السهو قبل السلام أو بعده.

### وهذه أهم أسباب اختلاف الفقهاء:

- ١ - الاختلاف في فهم الآية أو الحديث.
- ٢ - الاختلاف في ثبوت الحديث وعدم ثبوته.
- ٣ - الاختلاف في نسخ الآية أو الحديث.
- ٤ - الاختلاف في طرق الجمع والترجيح بين النصوص المتعارضة في ظاهرها.
- ٥ - عدم الاطلاع على دليل المسألة سواء كان الدليل نصًا أو ظاهرًا أو استنباطًا.
- ٦ - الاختلاف في بعض مصادر الاستنباط، كالاختلاف في حجية قول الصحابي، وشرع من قبلنا، وحجية القراءة الشاذة، والقياس، والاستصحاب، والمصالح المرسلّة، والعرف، وسد الذرائع، وكالاختلاف في إجماع أهل المدينة، وكالاختلاف في حجية الحديث المرسل، وكالاختلاف في العمل بالحديث الضعيف إذا لم يوجد في الباب غيره.
- ٧ - الاختلاف في بعض القواعد الأصولية كالاختلاف في العام المخصوص هل هو حجة أو ليس بحجة؟ وهل المطلق يحمل على المقيد أو لا؟ وهل المفهوم حجة أو ليس بحجة؟ وهل الزيادة على النص القرآني نسخ أو لا؟

وهل الأمر يدل على الوجوب والفورية أو لا؟ وهل النهي يدل على التحريم أو الكراهة؟ وهل النهي يقتضي الفساد أو لا؟

وأكثر المسائل الاجتهادية لا يقطع المجتهد بالصواب فيها، بل يُرَجِّح قولاً على قول بحسب ما يغلب على ظنه أنه الصواب، فإنه إذا تعدّر الوصول إلى اليقين يكفي غلبة الظن، وهذا من يُسر الشريعة وسماحتها، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

وما أحسن ما يُروى عن الإمام الشافعي أنه قال: "قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول المخالف خطأ يحتمل الصواب".

فالعالم الواسع الاطلاع يتسع صدره للمخالفين له؛ لمعرفته بأقوال العلماء، وأدلتهم، ولتمييزه بين الأدلة القطعية والظنية والدلالات القطعية والظنية، ومعرفته بخلاف العلماء في بعض القواعد الأصولية والفقهية والحديثية، ومعرفته بخلاف أئمة الحديث في الجرح والتعديل وتصحيح بعض الأحاديث وتضعيفها، فالحديث المختلف في تصحيحه أو تضعيفه قد يرجح المجتهد صحته وهو ضعيف في نفس الأمر، وقد يرجح ضعفه وهو صحيح في نفس الأمر، وهذا أمر معلوم عند أهل العلم بالحديث، قال الحافظ ابن حجر: "تعليل الأئمة للأحاديث مبني على غلبة الظن"<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١/٥٨٥).

فالعلماء المنصفون يعرفون متى يجزمون بما ترجح لديهم ومتى لا يجزمون، ويفرّقون بين مقام الجزم ومقام الاحتمال، ويعيبون على من يجزم في مقام الاحتمال.

ومن اصطلاح بعض العلماء أنهم يقولون: هذا القول أصح إذا كان القول الآخر صحيحًا غير ضعيف، وله قوة وحظٌّ من النظر، ويقولون: هذا القول هو الصحيح إذا كان القول الآخر ضعيفًا.

والعالم المنصف يفقه أحكام المصالح والمفاسد، فإنَّ الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا معًا، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعًا، فهي تُحصِلُ أعظم المصلحتين بتقويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وقد يقع الاشتباه والتردد في باب المصالح والمفاسد<sup>(١)</sup>، والعالم المنصف لا يستهين بغيره من العلماء وأهل التخصص، بل يحرص على معرفة أقوالهم، ويطلب مشاورتهم، فإن خالفوه في تقدير

(١) قد يختلف المصلحون في طريقة إنكار المنكر ومعالجة مشاكل الأمة كما اختلف موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام عندما عبد بنو إسرائيل العجل في غياب موسى، فكان رأي موسى أن على هارون أن يتبعه إلى الطور بمن لم يضل بعبادة العجل، تقديمًا لمصلحة حفظ العقيدة على مصلحة حفظ الاجتماع وعدم الهرج، بينما خشي هارون أن يُفرّق بين بني إسرائيل إن اتبع موسى بمن معه، فمكث عند عبّاد العجل، واكتفى بوعظهم ونصحهم حتى كادوا يقتلونه، وأصروا أن يبقوا عاكفين على العجل حتى يرجع موسى. وأيها كان اجتهاده أصوب؟ موسى والله أعلم؛ لأنَّ حفظ أصل الشريعة أهم من حفظ ما يتفرع عليها، فمصلحة سلامة الاعتقاد أهم من مصلحة الاجتماع. يُنظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٦/ ٢٩٣).

المصالح والمفاسد عذرهم، قال ابن تيمية: "وهذا الباب واسع جدًا لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون ينظرون للأمرين وقد لا يتبين لهم - أو لأكثرهم - مقدار المنفعة والمضرة أو يتبين لهم ولا يجدون من يعينهم على العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء، فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل"<sup>(١)</sup>.

قال سعيد بن أبي عروبة: "من لم يسمع الاختلاف فلا تعدّوه عالمًا"<sup>(٢)</sup>. وقال يونس الصدفي: ما رأيت أعدل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: "يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة!"، قال الذهبي معلقًا على هذه القصة: "هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه فما زال النظراء يختلفون"<sup>(٣)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (٢٩ / ٢٥٧).

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٥٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠ / ١٦).

وعن يحيى بن سعيد قال: "ما برح المستفتون يستفتون فيحل هذا ويحرّم هذا، فلا يرى المحرّم أن المحلل هلك لتحليله، ولا يرى المحلل أن المحرّم هلك لتحريمه"<sup>(١)</sup>.

وقال سفيان الثوري: "إذا رأيت الرجل يعمل بعمل قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه"<sup>(٢)</sup>.

وهذا من يُسر الشريعة وسماحتها، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، فالحمد لله على تيسيره على عباده.

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٦٩١).

(٢) رواه ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩ / ٢٢٩).

## (١٩) وسطية الإسلام

رسالة النبي محمد ﷺ ضرورة لبيان دين الله الحق الذي ضاع وتغير وتبدل وتحرف، قال الله سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۗ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ [البينة: ١-٤] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، ولا يليق بحكمة أرحم الراحمين أن يترك الناس في الضلال ولا يرسل إليهم رسولاً يبين لهم الحق من الباطل، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۗ﴾ [الليل: ١٢] قال القرطبي: "أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة"<sup>(١)</sup>.

وقد جعل الله أمة محمد خير أمة أخرجت للناس، هداهم الله بكتابه ورسوله، وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً، فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله، وكتبه، وشرائع دينه من الأمر، والنهي، والحلال، والحرام، فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، ولم يُحرّم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرّم

(١) تفسير القرطبي (٨٦/٢٠).

على اليهود الإبل والشحوم، ولم يُجل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلت  
النصارى الخنزير.

ولم يُضَيَّق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضَيَّق على اليهود، وقد كان  
اليهود لا يرون إزالة النجاسة بالماء، بل إذا أصاب ثوب أحدهم نجاسة  
قرضه بالمقراض، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته  
النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة، ولا  
يجتنبون النجاسة في الصلاة، بل ليس عند النصارى شيء نجس يحرم أكله  
أو تحرم الصلاة معه!

واليهود يببالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم، والنصارى يدعون  
أنهم يُطهِّرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم، والمسلمون يُطهِّرون أبدانهم وقلوبهم  
جميعاً.

واليهود إذا حاضت عندهم المرأة لا يواكلونها، ولا يشاربونها،  
والنصارى لا يُحرِّمون وطء الحائض، والمسلمون يصنعون معها كل شيء  
إلا الجماع.

وكذلك المسلمون وسط في الشريعة: فلم يجحدوا شرع الله الناسخ لأجل  
شرعه المنسوخ كما فعلت اليهود، حيث لم يؤمن اليهود بشريعة عيسى **ﷺ**  
الذي جاء بنسخ بعض أحكام التوراة، ثم لم يؤمنوا بمحمد **ﷺ** الذي نسخ الله  
بشريعته التوراة والإنجيل، ولا غيَّروا شيئاً من شرعه المحكم، ولا ابتدَعوا  
شرعاً لم يأذن به الله كما فعلت النصارى، وذلك أن دين النصارى الباطل  
إنما هو دين مبتدع، ابتدَعوه بعد المسيح **ﷺ**، وغيَّروا دين المسيح الذي هو

عبادة الله وحده، ثم لما بعث الله محمدًا ﷺ كفر النصارى به فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين عيسى، وتكذيب الرسول محمد، كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح .v

والمسلمون لم يجعلوا الخالق سبحانه متصفًا بخصائص المخلوق، ونقائصه، ومعاييه: من الفقر، والبخل، والعجز، كفعل اليهود، ولا جعلوا المخلوق متصفًا بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثلها فيها شيء كفعل النصارى حيث عبدوا عيسى .ii

والمسلمون لم يستكبروا عن عبادة الله كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارى.

وكذلك المسلمون وسط في المسيح، فاليهود يقولون: هو ساحر وكذاب وابن زنا ونحن قتلناه، والنصارى يقولون: هو إلهٌ وثالثٌ ثلاثة وابن الله وأنه قُتِلَ وصُلِبَ ثم ارتفع إلى السماء ونحن نعبد، والمسلمون يقولون: هو عبد الله ورسوله، وهو عيسى ابن مريم خلقه الله بلا أب ليجعله للناس آية، وأيده بالمعجزات العظيمة، فلما كذبه اليهود وأرادوا قتله نجاه الله منهم ورفعهم إلى السماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

واليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس وبخسوهم حقوقهم، والنصارى غلّوا في الأنبياء والصالحين واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا

من دون الله والمسيح ابن مريم، والمسلمون آمنوا بالله وملائكته وكتبه  
ورسله، ولم يُفَرِّقوا بين أحد من رسله، وآمنوا بجميع النبيين، وبكل كتاب  
أنزله الله، فلم يُكذِّبوا الأنبياء ولا سبوهم، ولا غَلَّوا فيهم ولا عبدوهم، وكذلك  
أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقهم ولا يَغْلُون فيهم.

والنصارى لهم بعض العبادات وأخلاق حسنة بلا علم ولا ذكاء، واليهود  
لهم ذكاء وعلم بلا عبادات ولا أخلاق حسنة، والمسلمون جمعوا بين العلم  
النافع، والعمل الصالح، بين الزكاء والذكاء.

والمسلمون لا يُجَوِّزون لأحد بعد محمد ﷺ كائنًا من كان أن يُغَيِّر شيئًا من  
شريعته، فلا يُحِلُّ ما حرَّم ولا يُحرِّم ما حلَّ، ولا يُوجب ما أسقط، ولا يُسقط  
ما أوجب، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرم الله  
ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، وليست عقيدة المسلمين آراء مجامع  
ولا قرارات كنائس، بخلاف النصارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعًا لم  
يشرعها المسيح ﷺ، ولا نطق بها شيء من الأنجيل، ولا كتب الأنبياء  
المتقدمة، مثل تعظيم الصليب واستحلال لحم الخنزير وترك الختان وترك  
الطهارة من الحدث والخبث، فلا يُوجبون غسل جنابة ولا وضوءًا، فدين  
النصارى ليس هو دين عيسى، وهم يزعمون أن ما شرعه أكابرهم من الدين  
فإنَّ المسيح يمضيه لهم، ويصف لهم أكابرهم عقائد وشرائع ما أنزل الله بها  
من سلطان، كما وضع لهم الثلاثمائة وثمانية عشر من أحبارهم الذين كانوا  
في زمن الملك قسطنطين الأمانة التي اتفقوا عليها، ولعنوا من خالفها، وفيها

أمور لم ينزل الله بها كتابًا، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها  
للعقل الصريح.

## (٢٠) شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان

الشرع لله وحده؛ يحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء؛ بعلم وحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

فليس لأحد أن يُحلّل أو يُحرّم أو يُشَرِّع غير الله تعالى وحده، حتى الأنبياء فإنهم مبلّغون عن الله تعالى، واجتهاد الصحابة والعلماء ليس تشريعاً، بل هو فهمٌ للكتاب والسنة، وتطبيقٌ لمبادئ الدين، فقد انتهى التشريع بوفاة الرسول ﷺ، ثم ابتدأ الفقه يستمد مضمونه من التشريع الذي أنزله الله ليحكم به بين الناس فيما فيه يختلفون، وبما يصلح دينهم ودنياهم.

والشريعة الإسلامية وافيةٌ بجميع الأحكام التي تحتاج إليها الأمم في تدبير شؤونها وتنظيم حياتها، صالحةٌ لمسيرة الحياة في جميع تطوراتها ومراحل تقدمها ورقبها، تزودها في كل عصر وكل جيل بما يكفل لها السعادة، ويُسبغ عليها السلام والأمن، والبعد عن الظلم.

جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق المصالح للناس والمحافظة عليها وتنميتها، وجاءت بدفع المفساد عنهم وتقليلها، وهي تُقدّم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد إذا تعارضت المصلحتان، وتُقدّم دفع الضرر العام على دفع الضرر الخاص إذا لم يمكن دفعهما معاً.

وشرع الله لا يُنسخ إلا بأمر الله وإذنه، كما نُسخَت الشرائع السابقة كشرعية موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام حيث أنزلها الله خاصة مؤقتة ولم يجعلها عامة مؤبدة.

وقد تضافرت النصوص الإسلامية وعُلم من الدين بالضرورة عموم رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ وتأبيدها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا كُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال β: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والله أنزل كتابه، وشرع تشريعه، وهو يعلم السر وأخفى، ويعلم ما يُصلح خلقه، ويعلم ما يأتي من أحوال، فهي شريعة كاملة شاملة، وما مات النبي عليه الصلاة والسلام إلا وقد أكملها الله كما قال سبحانه: ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولم تأت الشريعة لجماعة دون جماعة، أو لقوم دون قوم، أو لدولة دون دولة، وإنما جاءت للناس كافة من عرب وعجم، شرقيين وغربيين، على اختلاف مشاربهم وتباين عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم، فهي شريعةٌ صالحةٌ لكل أسرة، ولكل قبيلة، ولكل جماعة، ولكل دولة.

والشريعة جامعةٌ تحكم كل حالة، مانعةٌ لا تخرج عن حكمها حالة، شاملةٌ لأموال الأفراد والجماعات والدول، تُنظِّم بمرورتها وسعتها وحكمتها الأحوال الشخصية والمعاملات وكل ما يتعلق بالأفراد، وتُنظِّم شئون الحكم والإدارة

والسياسة وغير ذلك مما يتعلق بالجماعة، كما تُنظّم علاقات الدول بعضها ببعض الآخر في الحرب والسلام.

وَمَنْ رَأَى أَنْ حَكَمَ اللَّهُ صَالِحًا لِلزَّمَنِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ فَقَطُّ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلِلنَّاسِ أَنْ يُشْرِعُوا مَا يَرُونَهُ صَالِحًا وَلَوْ كَانَ مُخَالِفًا لِحُكْمِ اللَّهِ، فَقَدْ كَفَرَ كُفْرًا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ؛ لِأَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ نَقْصَ الشَّرِيعَةِ، وَيُظَنُّ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ  $\chi$  يَخْتَلِفُ بَيْنَ عِلْمِ الْمَشَاهِدِ وَالْغَائِبِ، وَيَرَى أَنَّ يُقَدِّمُ الْإِنْسَانَ عِلْمَهُ لِحَاضِرِهِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ لِلْغَائِبِ عِنْدَ إِنْزَالِ وَحْيِهِ عَلَى نَبِيِّهِ، وَهَذَا كُفْرٌ وَشُرْكٌَ وَسَوْءٌ ظَنٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ  $\chi$  يَسْتَوِي عِلْمُهُ بِالْأَشْيَاءِ غَيْبًا وَشَهَادَةً، وَحُكْمُ اللَّهِ فِي الشَّهَادَةِ كَحُكْمِهِ فِي الْغَيْبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِمَهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ الشَّاهِدِينَ وَالْغَائِبِينَ.

قال ابن تيمية: "الإنسان متى حلَّ الحرام المجمع عليه أو حرَّم الحلال المجمع عليه أو بدَّل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء" (١). وقال محمد بن إبراهيم آل الشيخ: "إنَّ من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد  $\gamma$  ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين لقول الله  $\beta$ : ﴿إِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولٍ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] (٢)".

(١) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٦٧).

(٢) فتاوى محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٢ / ٢٨٤).

وقال عبد القادر عودة: "والشريعة لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو لزمن دون زمن، وإنما هي شريعة كل وقت، وشريعة كل عصر، وشريعة الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وقد صيغت الشريعة بحيث لا يؤثر عليها مرور الزمن، ولا يبلي جدتها، ولا يقتضي تغيير قواعدها العامة ونظرياتها الأساسية، فجاءت نصوصها من العموم والمرونة بحيث تحكم كل حالة جديدة ولو لم يكن في الإمكان توقعها، ومن ثم كانت نصوص الشريعة غير قابلة للتغيير والتبديل كما تتغير نصوص القوانين الوضعية وتتبدل. وأساس الفرق بين الشريعة والقانون هو أن الشريعة من عند الله جل شأنه، وهو يقول: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]، وهو عالم الغيب القادر على أن يضع للناس نصوصاً تبقى صالحة على مر الزمان، أما القوانين فمن وضع البشر، وتوضع بقدر ما يسد حاجتهم الوقتية، وبقدر قصور البشر عن معرفة الغيب تأتي النصوص القانونية التي يضعونها قاصرة عن حكم ما لم يتوقعوه"<sup>(١)</sup>.

وقول العلماء: "الفتوى تختلف باختلاف الأحوال والأزمان" يقصدون به المسائل الاجتهادية المبنية على المصلحة أو القياس أو العرف، فإن كثيراً من فتاوى الفقهاء بُنيت على مراعاة الزمان الذي كانوا فيه، والبلد الذي عاشوا فيه، فلا تصلح تعدية ما أُنزِلَ فيه العرف من الفتاوى والأحكام إلى غير أهل العرف الذي أُنزِلَ فيها، إنما تعتبر خاصة بذلك الزمان أو المكان، ويراعى العرف المستجد في تطبيق الأحكام على ما يناسبه.

(١) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي (١/ ١٦).

وربما أطلق في هذا بعض أهل العلم عبارة: "الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان"، ومرادهم تغير الفتوى، فالأحكام الشرعية المحددة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، قال ابن القيم: "الأحكام نوعان: النوع الأول: نوعٌ لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدره بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذه لا يتطرق إليه تغيير، ولا اجتهاد يخالف ما وضع له. والنوع الثاني: ما يتغير حسب المصلحة له، زماناً ومكاناً وحالاً، كمقادير التعزيرات، وأجناسها، وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة"<sup>(١)</sup>.

وقال علي حيدر: "إنَّ الأحكام التي تتغير بتغير الأزمان هي الأحكام المستندة على العرف والعادة؛ لأنه بتغير الأزمان تتغير احتياجات الناس، وبناء على هذا التغير يتبدل أيضاً العرف والعادة، وتتغير العرف والعادة بتغير الأحكام، بخلاف الأحكام المستندة على الأدلة الشرعية التي لم تُبن على العرف والعادة فإنها لا تتغير"<sup>(٢)</sup>.

وقال الدكتور محمد الزحيلي: "الأصل في الشريعة هو ثبات الأحكام، ونُذَكِّر بما يلي:

١ - الأحكام الأساسية الثابتة في القرآن والسنة والتي جاءت الشريعة لتأسيسها بنصوصها الأصلية الآمرة والناهية، كحرمة الظلم، وحرمة الزنا

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣٠).

(٢) درر الحكام شرح مجلة الأحكام (١/ ٤٧).

والربا، وشرب الخمر والسرقه، وكوجوب التراضي في العقد، ووجوب قمع الجرائم وحماية الحقوق، فهذه لا تتبدل بتبدل الزمان، بل هي أصول جاءت بها الشريعة لإصلاح الزمان والأجيال، وتتغير وسائلها فقط.

٢ - أركان الإسلام وما عُلِم من الدين بالضرورة لا يتغير ولا يتبدل، ويبقى ثابتًا كما كان في العصر الأول؛ لأنها لا تقبل التبدل والتغيير.

٣ - جميع الأحكام التعبدية التي لا مجال للرأي فيها، ولا للاجتهاد، لا تقبل التغيير ولا التبدل بتبدل الأزمان والأماكن والبلدان والأشخاص.

٤ - أمور العقيدة أيضًا ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ولا تقبل الاجتهاد، وهي ثابتة منذ نزولها ومن عهد الأنبياء والرسل السابقين، حتى تقوم الساعة، ولا تتغير بتغير الأزمان" (١).

وقال الدكتور محمد الزحيلي أيضًا: "انفقت كلمة المذاهب على أن الأحكام التي تتبدل بتبدل الزمان وأخلاق الناس هي الأحكام الاجتهادية التي بُنيت على القياس ودواعي المصلحة، فإذا أصبحت لا تتلاءم وأوضاع الزمان ومصلحة الناس وجب تغييرها، وإلا كانت عبثًا وضررًا، والشريعة منزهة عن ذلك، ولا عبث فيها.

أما الأحكام الأساسية التي جاءت الشريعة لتأسيسها بنصوصها الأصلية: الأمة والناهية، كحرمة الظلم، وحرمة الزنا، والربا، وشرب الخمر والسرقه، وكوجوب التراضي في العقد، ووجوب قمع الجرائم وحماية

(١) القواعد الفقهية على المذهب الحنفي والشافعي (ص: ٣١٩) بتصرف.

الحقوق، فهذه لا تتبدل بتبدل الزمان، بل هي أصول جاءت بها الشريعة لإصلاح الزمان والأجيال.

ولكن وسائل تحقيقها، وأساليب تطبيقها، قد تتبدل باختلاف الأزمنة والمحدثات، فوسيلة حماية الحقوق مثلاً، وهو القضاء كانت محاكمه تقوم على أسلوب القاضي الفرد، وقضاؤه على درجة واحدة قطعية، فيمكن أن تتبدل إلى أسلوب محكمة الجماعة، وتعدد الدرجات للاحتياط، فالتبدل في الحقيقة في مثل هذه الأحكام ما هو إلا تبدل الوسائل للوصول إلى الحق، والحق ثابت لا يتغير" (١).

ولا يجوز الفصل بين تشريع الله في الدين والدنيا؛ وكلها تكاليف دينية ودينية، فالدينية: كالصلاة، والصيام، والحج، والذكر، وعمارة المساجد. والدينية: كالبيع، والنكاح، والطلاق، والمواريث، والأطعمة والأشربة، والحدود، والجنايات، والقضاء.

فالإسلام جاء لإصلاح الناس في دينهم ودنياهم، وهو شاملٌ كاملٌ في جميع نواحي الحياة، ومن جعل لله الحكم في الأمور الدينية، ولغيره الحكم في الأمور الدنيوية فقد كفر؛ لأنَّ الشرع كله لله وحده لا شريك له، ومن جعله حقاً لغيره فهو كمن جعل السجود حقاً يصرف لغيره، والله يقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، **فخلاصة الدين شينان: أن يكون الحكم لله وحده،**

(١) القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة (١/ ٣٥٥).

وأن تكون العبادة لله وحده، فمن جعل الحكم لغيره فهو كافر كمن جعل العبادة لغيره.

وقد كفر أهل الكتاب الذين من قبلنا عندما جعلوا الحكم لغير الله كما قال الله سبحانه عنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّوهُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]؛ فسَمَّى الله فعلهم شِرْكًَا، عن عدي بن حاتم  $\eta$  قال: أتيتُ النبي  $\gamma$  وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يَا عَدِيَّ اطْرُحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثْنَ»، وسمعتَه يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قلت: يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم! قال: «كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ» (١).

والشريعة الإسلامية جاءت لتنظيم أمور الدين والدنيا، فالإسلام جاء بجلب المصالح للعباد وتكميلها، ودفع المفساد عنهم وتقليلها، سواء في دينهم ودنياهم، وأطول آية في كتاب الله هي آية المداينة في سورة البقرة، نزلت لتنظيم المداينة بين العباد، حتى لا تضيع أموالهم فيندموا على تفریطهم، وما

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٣٥٠) وحسنه الألباني، وروى ابن أبي شيبة (٣٤٩٣٦) عن التابعي أبي البخري الطائي في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال: (أطاعوهم فيما أمرهم به من تحريم حلال وتحليل حرام، فعبدوهم بذلك).

أمرنا الشرع إلا بما ينفعنا في ديننا ودنيانا، وما نهانا إلا عما يضرنا في ديننا ودنيانا.

والأصل في المعاملات والعقود والسياسات أنها جائزة ما لم تخالف الشرع، فكل ما ينفع الناس ويدفع الضرر عنهم فهو جائز في الإسلام وإن لم تنص الشريعة على جوازه خصوصاً، وكل ما يضر الناس في دينهم أو دنياهم فهو محرم في الإسلام وإن لم تنص الشريعة على تحريمه خصوصاً، وفي القرآن والسنة أدلة عامة تدخل فيها كثيرٌ من الأمور المستجدة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] وقول النبي ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»<sup>(١)</sup>، وقد نقل ابن القيم عن العلامة ابن عقيل الحنبلي أنه قال: "السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي، ما لم يخالف ما نطق به الشرع"<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن تيمية: "لا يَحْرُمُ على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يُشْرَعُ لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه؛ إذ الدين ما شرعه

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٤٠) و (٢٣٤١) بإسنادين في أحدهما انقطاع وفي الآخر راوٍ ضعيف، ورواه مالك في موطنه مرسلًا (٧٤٥ / ٢)، وحسنه ابن الصلاح والنووي وابن رجب بمجموع طرقه كما في جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢ / ٢١٠، ٢١١).

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (ص: ١٢).

الله، والحرام ما حرّمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرّموا من دين الله ما لم يحرّمه الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله" (١).

ففي الكتاب والسنة ما يغنينا عن كل ما سواهما، فتأمل مثلاً قوله تعالى:  
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ففي هذه الآية الأمر بأداء الأمانات، وترك الخيانة، والحكم بين الناس بالعدل، فما أعظمها من آية لإصلاح المجتمع في جميع معاملاتهم المالية، وحل مشاكلهم!

وتأمل قول الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ففيها مشروعية التشاور بين المسلمين في المسائل الاجتهادية، والنظر في مصالحهم، وما يقدمونه منها عند التعارض، وما يعتمدونه في النوازل المستجدة.

وتأمل هذا الحديث عن أبي هريرة  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «أَحْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ» (٢)، فهذا الحديث يدل على أن كل ما ينفع في أمور الدين أو الدنيا فعلى الفرد والأسرة والشعب والدولة أن يحرصوا عليه، ومفهوم الحديث أن كل ما يضر في الدين أو الدنيا فإن المسلم مأمور بتجنبه، فما أعظم هذا الحديث الذي هو من جوامع الكلم التي أوتيتها نبينا محمد  $\gamma$ ! فهذا الحديث وحده منهج حياة يغني عن كل دساتير الدنيا.

(١) السياسة الشرعية (ص: ١٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

فالشريعة الإسلامية مشتملة على كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم في قضايا العبادات وقضايا المعاملات والحدود والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

قال ابن جماعة الكناي الحموي: "الشريعة هي المحجة التي جاء بها رسول الله ﷺ، وسنها وأوجب اتباعها وصونها، والخير كله في اتباعها، والشر كله في ضياعها"<sup>(١)</sup>.

وبركات الشريعة المطهرة لا تحصى، فإن الله ﷻ قد أناط خير الدنيا بتطبيق شريعته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَأَلُو اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ [الجن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ وَتُرَّ فُصِّلَتْ مِّن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ [هود: ١-٣].

وتمتاز الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعية بالكمال، فقد استكملت كل ما تحتاجه الشريعة الكاملة من قواعد ومبادئ تكفل سد حاجات الجماعة في الحاضر القريب والمستقبل البعيد.

(١) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام (ص: ٨٧).

وتمتاز الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعية بالسمو، فقواعدها ومبادئها أسمى دائماً من مستوى الجماعة؛ وفيها من القواعد والمبادئ ما يحفظ لها هذا المستوى السامي مهما ارتفع مستوى الجماعة.

وتمتاز الشريعة على القوانين الوضعية بالدوام والثبات والاستقرار، فنصوصها لا تقبل التعديل والتبديل مهما مرت الأعوام وطالت الأزمان، وهي مع ذلك تظل حافظة لأصلاحياتها في كل زمان ومكان.

وتمتاز الشريعة الإسلامية باليسر والسهولة، وقابليتها للتطبيق، ومراعاتها لحاجة الناس وضعفهم، فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

## (٢١) دين الأنبياء واحد متفق في الأصول وإن اختلفت الشرائع

دين الأنبياء متفق في الأصول ومختلف في بعض الشرائع كما قال الله سبحانه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، قال ابن جرير الطبري: "لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمُّه، وسبيلاً واضحاً يعمل به. قال قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] يقول: سبيلاً وسُنَّة. والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل" (١).

وقال ابن تيمية: "لم يُشرِّع الله لنبي من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه" (٢).

وقال ابن تيمية أيضاً: "أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحد، وإنما تنوعت الشرائع؛ قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ

(١) تفسير ابن جرير (٣٨٤/١٠ - ٣٨٥) باختصار.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٨٠/٢).

**ديننا واحد»<sup>(١)</sup>**، فدينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يُعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت، وتنوع الشرائع في النسخ والمنسوخ من المشروع كتنوع الشريعة الواحدة، فكما أنّ دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو دين واحد، مع أنّه قد كان في وقت يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة، كما أمر المسلمون بذلك بعد الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة، ويحرم استقبال الصخرة، فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته، فهكذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت، ثم نسخ ذلك وشرع الجمعة، فكان الاجتماع يوم السبت واجبًا إذ ذاك، ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة، فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلمًا، ومن لم يدخل في شريعة محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلمًا<sup>(٢)</sup>.

فالأصول لا تتغير في جميع الشرائع وإنما تتغير بعض الفروع بحسب الحكمة والمصلحة، وفي نسخ الأحكام حكمٌ ومصالح كثيرة نظرًا إلى حال المكلفين والزمان والمكان، وسواء ظهرت لنا المصلحة أو لم تظهر فإن الله هو الحكيم العليم.

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة  $\eta$  مرفوعًا بلفظ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إحوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٧٨/٢ - ٣٧٩) باختصار.

والشرائع الكلية لا تتغير بتغير الأزمنة كعبادة الله وحده والإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والأمر بالصدق والعدل والإحسان وغير ذلك من الفضائل، وتحريم الكذب والظلم والبغي وعقوق الوالدين وغير ذلك من الرذائل، فهذه الأصول والفروع متفقة في جميع الشرائع، ومن أحكام التوراة التي لم تُنسخ: حرمة القتل والزنا والسرقه وحرمة نكاح الأمهات والبنات والعمات والخالات وغير ذلك من الأحكام الكثيرة التي أقرتها شريعة محمد ﷺ، وكذا بعض أحكام الإنجيل لم تُنسخ مثل ما وقع في الباب الثاني عشر من إنجيل مرقس هكذا: " (٢٩) فقال له عيسى وهو يحاوره: إن أول الأحكام قوله: استمع يا إسرائيل فإن الرب إلهنا رب واحد (٣٠) وأن تحب الرب إلهك بقلبك كله وروحك كلها وإدراكك كله وقواك كلها، هذا هو الحكم الأول (٣١) والثاني مثله وهو أن تحب جارك كنفسك، وليس حكم آخر أكبر من هذين".

وإنما تتغير بعض الفروع بحسب الحكمة والمصلحة كما حرم الله على بني إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم وابتلاء ثم نسخ الله تحريمها بشريعة عيسى رحمة وابتلاء قال الله سبحانه: ﴿فِظْلِمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وقال ﷺ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال الله حاكياً عن

عيسى  $\mu$  أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ  
وَلِأَحَدٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ  
وَأَطِيعُوا ٥٠﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّ قَوْلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ بِنِي إِسْرَائِيلَ  
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ  
فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦﴾ [الصف: ٦].

وبعض العبادات شرعها الله على جميع الأمم لأهميتها وكثرة فوائدها وإن  
اختلفت كفيياتها وأحكامها من شريعة إلى أخرى مثل الصلاة والزكاة  
والصيام، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ  
الْبَيِّنَةُ ١١ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ٥٥﴾ [البينة: ٤-٥] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ  
١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقد بعث الله نبيه محمداً  $\gamma$  بالحنيفية السمحة، قال الله سبحانه لنبيه:  
﴿وَنُبِّئُكَ لِلنَّبِيِّ ٨﴾ [الأعلى: ٨] وقال لأمة نبيه محمد  $\gamma$ : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ  
عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَا كِنَ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦].

ومن الخطأ العظيم ما يقوله بعض الناس: الأديان السماوية ثلاثة: الإسلام  
واليهودية والنصرانية، وإنما هو دين واحد عند الله، وهو الإسلام، وهو دين  
جميع الأنبياء وأتباعهم، قال الله تعالى حاكياً عن نوح أول الرسل أنه قال  
لقومه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: ٧٢]، وقال الله سبحانه: ﴿مَا

كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ  
 تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ [يونس: ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ  
 مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا  
 بِاللّٰهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُّسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال الله سبحانه: ﴿ هُوَ  
 سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴿ [الحج: ٧٨]، أي: الله سماكم المسلمين  
 من قبل القرآن في سائر الكتب، وسماكم المسلمين في هذا القرآن (١)، وقال  
 سبحانه: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا  
 مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
 الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ [آل عمران: ١٩].

والشرائع السابقة دخلها التبديل والتحريف، فلا يجوز اعتقاد أن دين اليهود  
 والنصارى بعد التحريف والتبديل دين سماوي من عند الله، قال الله تعالى:  
 ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُومُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ  
 الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ  
 الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال ﷺ: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ  
 الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء: ٤٦]، والناظر في كتب أهل الكتاب يجد  
 اختلافات كثيرة جدًا، ولو كانت هذه الكتب من عند الله لما وُجد فيها أي  
 خلاف؛ لأن الله حق ولا يقول إلا الحق، فمن هذه الاختلافات:

(١) يُنظر: الوجيز للواحي (ص: ٧٤٢)، تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٦).

١- في سفر صموئيل الثاني الآية التاسعة من الباب الرابع والعشرين: "وكان عدد بني إسرائيل (٨٠٠) رجل بطل يضرب بالسيف، ورجال يهوذا عدتهم (٥٠٠) ألف رجل مقاتلة".

وفي الآية الخامسة من الباب الحادي والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا: "وكان عدد كل إسرائيل ألف ألف ومائة ألف رجل جاذب سيف، ويهوذا (٤٧٠) ألف رجل مقاتلة!"

٢- في الآية الثالثة عشرة من الباب الرابع والعشرين من سفر صموئيل الثاني: "وأتى جاد إلى داود وأخبره قائلاً: إما أن يكون سبعة سنين جوعاً لك في أرضك".

وفي الآية الثانية عشرة من الباب الحادي والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا: "إما ثلاثة سنين جوعاً!"

٣- الآية السادسة والعشرون من الباب الثامن من سفر الملوك الثاني: "وكان أخزيا في الثانية والعشرين من عمره حين مَلَك".

وفي الآية الثانية من الباب الثاني والعشرين من السفر الثاني من أخبار الأيام هكذا: "وكان أخزيا في الثانية والعشرين من عمره حين تولى الملك!"

٤- من قابل بيان نسب المسيح  $\mu$  الذي في إنجيل متى بالبيان الذي في إنجيل لوقا يجد ستة اختلافات منها:

أنَّ نسب عيسى في إنجيل متى (١ / ١-١٧) هو: عيسى بن يوسف بن يعقوب، وفيه أنه من نسل سليمان بن داود.

وفي إنجيل لوقا (٣ / ٢٣-٣٨): عيسى بن يوسف بن هالي، وفيه أنه من نسل ناثان بن داود!

وفي إنجيل متى بين المسيح وداود ستة وعشرون أباً، وفي إنجيل لوقا بين المسيح وداود واحد وأربعون أباً!

والعجب كل العجب أن الأناجيل التي في أيدي النصارى تصرح بأن عيسى ابن إنسان، ثم هم يعتقدون أنه ابن الله سبحانه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، انظر مثلاً إنجيل متى، ففيه التصريح بأن عيسى ابن الإنسان في مواضع كثيرة منها ما يلي: (٨ / ٢٠)، (٩ / ٦)، (١٦ / ١٣)، (١٧ / ٩)، (١٨ / ١١)، (١٩ / ٢٨)، (٢٠ / ١٨)، (٢٤ / ٢٧)، (٢٦ / ٢٤)، فما أضل النصارى!

## (٢٢) عموم رسالة النبي محمد لجميع الإنس والجن وكفر من لم يؤمن به

رسالة النبي محمد ﷺ عامة لجميع المكلفين عربهم عجمهم، وإنسهم وجنهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ٨: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) [سبأ: ٢٨].

قال ابن كثير في تفسيره: "يقول تعالى لعبدہ ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]: أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]. قال محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] يعني: إلى الناس عامة. وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله محمدًا ﷺ إلى العرب والعجم. وثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِّنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ. وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي. وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ. وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً». وفي الصحيح أيضًا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ» قال

مجاهد: يعني: الجن والإنس. وقال غيره: يعني: العرب والعجم، والكل صحيح" (١).

وكل من سمع بالنبى محمد صلى الله عليه سلم ولم يؤمن به فهو كافر من أهل النار كما قال الله ﷻ: ﴿أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧]، قال ابن كثير في تفسيره: "﴿أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧] هو القرآن، بلَّغهُ جبريل إلى النبي محمد ﷺ، وبلَّغهُ النبي محمد إلى أمته. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ [هود:١٧] أي: ومن قبل هذا القرآن كتاب موسى، وهو التوراة، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧] أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:١٢١]. ثم قال تعالى متوعداً لمن كذَّب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧] أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم أهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلَّغهُ القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧]، وفي صحيح

(١) تفسير ابن كثير (٥١٨/٦).

مسلم عن أبي هريرة  $\eta$  أن رسول الله  $\gamma$  قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

وقال  $\chi$ : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ فِيهَا قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ١-٦].

والشرك الأكبر لا يُبقي للإنسان حسنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

ولا يغفر الله الشرك لعبده إلا بتوبته منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

ومن مات على الكفر فهو في النار، قال الله: ﴿وَمَنْ يَرِدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) تفسير ابن كثير (٥١٨/٦) باختصار وتصرف يسير.

وَمَا تَوْأَمَهُمْ كُفَّارُ أَوْلِيَّكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾  
[البقرة: ١٦١].

وما عمله الكافر في حياته من خيرٍ كنعف الناس فهذا تسخيرٌ كونيٌّ له من الله؛ كتسخير الله سائر المنافع للعباد كالشمس والقمر والرياح والسحاب والبحار والماء والهواء، وهي أكثر نفعاً للناس، فالعمل الصالح بلا إيمان لا ينفع صاحبه في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فُجِعْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

واليهود يعتقدون أن الإله واحد، ولا ينفعهم ذلك؛ لأنهم كفروا بتكذيب النبي عيسى ثم النبي محمدًا صلى الله عليهما وسلم، وغضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل ثم بالقرآن، قال الله تعالى عن اليهود: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩٠-٩١].

والنصارى فرق كثيرة، منهم من يقول: عيسى إله، ومنهم من يقول: هو ابن الله، ومنهم من يقول: هو ثالث ثلاثة، ومنهم من لا يقول بأن عيسى إله، لكنهم يشركون بالله في دعائهم عيسى وغيره، وجميعهم يكفرون بمحمد ﷺ، ولا يؤمنون بأنه رسول الله لجميع الناس وخاتم النبيين، وبعضهم يعتقد أنه رسول للعرب فقط ويُكذَّب بأنه رسول للعالمين، وكلهم كفر لا يؤمنون بأيات الله، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله محمد ﷺ، ولا يدينون دين الحق.

وقد أخبر الله عن كفر اليهود والنصارى لكونهم يؤمنون ببعض الأنبياء  
ويكفرون ببعض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ  
يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ  
يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا  
مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

## (٢٣) أصناف الكفار

**الكفار أربعة أصناف:**

**محارِبون:** وهم الذين يقاتلون المسلمين.

**مستأمنون:** المستأمن هو: الحربي الذي دخل دار الإسلام بأمان دون نية الاستيطان بها.

**معاهدون:** المعاهد: من له عهد مع المسلمين إما بأمان من مسلم أو هدنة من حاكم أو عقد جزية.

**ذميون:** الذمي هو: المعاهد الذي أُعطي عهدًا يأمن به على ماله وعرضه ودينه.

فالكفار الذين يشرع أن يقاتلهم المسلمون هم المحاربون فقط الذي يصدون عن سبيل الله، ويمنعون المسلمين عن تبليغ دين الله، ويتعاونون على قتال المسلمين، أما من عداهم من المعاهدين والمستأمنين والذميين فلا يجوز للمسلمين قتالهم، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فدين النبي محمد ﷺ هو دين السماحة والرحمة، وهو يسع الناس كلهم، ويغمرهم بالرحمة والإحسان، فنبينا محمد ﷺ هو الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، والأحاديث في الرحمة بالكافرين غير المحاربين كثيرة منها ما يلي:  
عن أبي بكرة  $\eta$  أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً بِغَيْرِ حِلِّهَا، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَجِدَ رِيحَهَا»<sup>(١)</sup>.

وعن العرياض بن سارية  $\eta$  أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُحِلِّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا ضَرْبَ نِسَائِهِمْ، وَلَا أَكْلَ ثِمَارِهِمْ، إِذَا أَعْطَوْكُمْ الَّذِي عَلَيْهِمْ»<sup>(٢)</sup>. أي: إذا أدوا الجزية التي عليهم.

وعن رجل من الصحابة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكَوكُمْ»<sup>(٣)</sup>. أي: اتركوا التعرض لابتدائهم بالقتال ما تركوكم، فلا تتعرضوا لهم إلا إذا تعرضوا لكم، فإذا غزوا بلاد المسلمين هم أو غيرهم فيجب قتالهم<sup>(٤)</sup>.

وهذا الحديث يدل على جواز عقد هدنة بين المسلمين والكفار مطلقاً بدون تحديد مدة إذا كان في ذلك مصلحة متحققة للمسلمين، ويكون هذا العقد جائزاً

(١) رواه أبو داود (٢٧٦٠) والنسائي (٤٧٤٨) وصححه ابن حبان والألباني والأرناؤوط.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٠)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨٨٢).

(٣) رواه أبو داود (٤٣٠٢) وحسنه الألباني والأرناؤوط.

(٤) يُنظر: فيض القدير للمناوي (٧٠٨/٣)، عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي (٢٧٥/١١).

غير لازم، بمعنى أن يُنص في العقد على أن للمسلمين أن ينقضوه متى شاءوا<sup>(١)</sup>.

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَفَّهَ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الحديث كان مشهورًا بين الصحابة والتابعين، فقد رواه ثلاثون راويًا من أبناء الصحابة عن آبائهم كما في رواية البيهقي<sup>(٣)</sup>.

وبهذا يتبين أنه "إذا كان الكافر الحربي غير مقاتل كالنساء والصبيان والعجزة والرهبان وغيرهم ممن ليسوا أهلاً للقتال أو لتدبيرها فلا يجوز قتله، ويُعزَّر قاتله، إلا إذا اشترك في حربٍ ضد المسلمين أو أعانهم برأي أو تدبير أو تحريض"<sup>(٤)</sup>.

فالإسلام يأمر بحفظ حياة جميع الناس، ويجيز الصدقة على الكفار غير المحاربين من غير الزكاة<sup>(٥)</sup>، ويُحرّم قتل أي إنسان بغير حق وإن كان من الكفار، والمسلمون في حال قوتهم إن غزوا الكفار ودخلوا بلادهم فإنما ذلك

(١) يُنظر: الصفدية لابن تيمية (٢/ ٣٢٠)، الشرح الممتع لابن عثيمين (٣/ ٤٣٤، ٤٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٢) وصححه الألباني وغيره.

(٣) يُنظر: السنن الكبرى للبيهقي رقم (١٨٥١١).

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٢/ ١٩٨).

(٥) ينظر: كتاب آخر كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، باب إعطاء أهل الذمة من الصدقة، وما يجزي من ذلك مما لا يجزي (ص: ٧٢٧ - ٧٢٩).

لدعوتهم إلى الإسلام، ولو فسح الكفار المجال أمام المسلمين ليلبغوا الناس دين الله لما قاتلوهم.

والإسلام يحث في جهاد الكفار المحاربين على حسن الأخلاق، وحرّم قتال من لا يقاتل المسلمين، وجعل خيار القتال آخر المحاولات بعد عرض الدخول في الإسلام أو دفع الجزية.

ويجب أن يُراعى في جهاد الكفار جانب المصالح والمفاسد، بلا تهوّر ولا جُبْنٍ، ولا طيشٍ ولا ذلٍ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال.

هذا، وإنّ الإيمان والكفر اسمان وحكمان ينزلهما الله وحده؛ فلا يكفّر أحدٌ إلا ببيّنة منه، والناس مؤمنون وكفار، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وأما المنافقون فهم إما كفار أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان؛ كمن أظهر الإيمان بالله وكتابه ورسوله وهو في باطنه مكذب بها، وهذا هو النفاق الأكبر، وإما مسلمون أبطنوا المعصية وأظهروا الطاعة كمن يُظهر الصلاح في العلانية ويتجرأ على معصية الله في السر، ومن يُظهر الوفاء بالعهد ويُبطن الغدر، ومن يُظهر الصدق في الحديث، ويُبطن خلافه، وهذا هو النفاق الأصغر.

ويجب أن يعامل المنافق الذي يُظهر الإسلام معاملة المسلمين، والله يتولى سريرته، وهو الذي يحكم بين عباده، والأصل في دم المؤمن وماله الحرمة، والأصل في دم الكافر الحربي وماله الحل، ولا يجوز قتل الكافر المعاهد ولا المستأمن ولا الذمي، ويُقتل المؤمن لذنّب اقترفه كالقتل عمداً، والزنا بعد

الإحسان، قال ابن تيمية: "الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فإنَّ المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا بِاللَّهِ وَيَإَيُّومِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] هم في الظاهر مؤمنون، يصلون مع الناس، ويصومون ويحجون ويغزون، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم، كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهريين للكفر، لا في مناكحتهم، ولا موارثتهم، ولا نحو ذلك؛ بل لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول - وهو من أشهر الناس بالنفاق - ورثه ابنه عبد الله، وهو من خيار المؤمنين، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون، وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين" (١).



(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠ - ٢١٧).

## (٢٤) ظلم أهل الكتاب لعدم إيمانهم بالنبي محمد ﷺ

لو أنّ في القرآن الكريم أنّ نبياً سيُرسله الله بعد محمد ﷺ، ثم سمعنا - معاشر المسلمين - بأنّ نبياً أرسله الله في أدغال أفريقيا، وسمعنا عنه أنّه يأمر بعبادة الله وحده، وأنّه يأمر بما كان يأمر به الأنبياء من التوحيد والصلاة والزكاة، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ويؤمن بجميع الأنبياء، ويصدّق نبينا محمداً ويذكره بالخير، وسمعنا أنّ الله أنزل عليه كتاباً يُصدّق القرآن الذي بين أيدينا، ويذكر كثيراً مما في كتابنا من القصص، ويذكر رسولنا محمداً ﷺ في أكثر من مائة موضع، ويذكر كثيراً من قصصه وسيرته، فكيف سيكون حال الواحد منا عند سماع هذا الخبر!؟

لا شك أنّ العاقل منا لن يقر له قرار حتى يقرأ ذلك الكتاب ولو بترجمته ليتأكد من أنّه كتاب منزل من عند الله، فإن قرأه ووجد ما فيه حقاً فسيؤمن به ويتبعه.

أما الغافل فسيعرض عن هذا الخبر، ويتشاغل بما هو فيه من طلب الدنيا وشهواتها، وربما يُكذّب بذلك الكتاب قبل أن يقرأه! بل وسيحارب من يؤمن به ويتبعه!

فلو كان ذلك الكتاب منزلاً من عند الله حقاً، وكان ذلك الرسول صادقاً، فهل يوجد أعظم من هذا الظلم للنفس؟ وهل يوجد أشد من هذا الكفر والكبر!؟

هذا هو الحاصل من اليهود والنصارى، ففي كتبهم التي يصدّقون بها ويقرؤونها أنّ نبياً سيرسله الله بعد أنبيائهم، وقد علم كثيرٌ منهم أنّ المسلمين يشهدون أنّ محمداً ﷺ رسولٌ من الله لكافة الخلق، وأنّه يأمر بعبادة الله وحده، وأنّه يأمر بما كان يأمر به الأنبياء من التوحيد والصلاة والزكاة، وأنّه يدعو إلى مكارم الأخلاق، وأنّه يؤمن بجميع الأنبياء، وأنّه يصدّق بالتوراة والإنجيل.

وسمعوا أنّ القرآن الكريم يذكر كثيراً مما في كتابهم المقدس من القصص وغيرها، ويذكر موسى ﷺ في أكثر من مائة موضع، ويذكر عيسى وأمه مريم عليهما الصلاة والسلام في خمسة عشر موضعاً!

لا شك أنّ العاقل من أهل الكتاب إذا سمع بهذا فلن يقر له قرار حتى يقرأ القرآن أو ترجمته بلغته ليتأكد أنّ القرآن كتابٌ منزلٌ من عند الله حقاً، وهذا هو الواقع من عقلائهم المنصفين، فبعض اليهود وكثير من النصارى قديماً وحديثاً قرءوا القرآن الكريم فوجدوا ما فيه حقاً، فأمنوا به واتبعوه كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِيَدِنَا إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّن رَّبِّنَا ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

أما الغافلون من أهل الكتاب - وهم الغالبية العظمى منهم قديماً وحديثاً - فهم معرضون عن القرآن، مشغولون بطلب الدنيا وشهواتها، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرَّانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ١-٣]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣].

ومن ظلمهم أنهم لم يكتفوا بالإعراض عن القرآن بل ويكذبون به قبل أن يقرؤه كما قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝٢٠﴾  
 ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝١١ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ۝١٢﴾ [البروج: ١٩-٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٢١﴾  
 ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ  
 الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢٧﴾ أم يقولون أفتره قل فاتوا بسورة مثله  
 وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صديقين ۝٢٨ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما  
 يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عقبة الظالمين ۝٢٩﴾  
 [يونس: ٣٦-٣٩].

فما أظلم اليهود والنصارى لأنفسهم! وما أشد كفرهم بربهم!

ومن العجب أنهم يكذبون بالقرآن الذي لا اختلاف فيه ولا عوج، ويتحداهم المسلمون من قبل ألف وأربعمائة سنة أن يجدوا فيه خللاً في لفظه أو في معناه، ومع ذلك يصدّقون بكتبهم المحرفة التي يقر كثير من علمائهم بأن فيها اختلافاً واضحاً وخللاً بيئاً!

واليهود لا ينكرون أن نُسَخَ التوراة الموجودة بأيديهم اليوم ثلاث نسخ: النسخة العبرية، والنسخة اليونانية، والنسخة السامرية، وهم يُقرّون أن التوراة التي جاء بها موسى نُسخة واحدة لا ثلاث نُسخ!

وكذلك لا ينكر أي نصراني سواء كان كاثوليكيًا أو بروتستانتيًا أو أرثوذكسيًا أن الإنجيل الموجود بأيدي النصارى اليوم ليس واحدًا بل أربعة

أناجيل مختلفة، وهي: إنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقس!

وهذه أمثلة على وجود الاختلاف والتحريف في نسخ التوراة والإنجيل:

١- في النسخة العبرانية من التوراة أن بين خلق آدم إلى طوفان نوح عليهما الصلاة والسلام (١٦٥٦) سنة، وفي النسخة اليونانية (٢٢٦٢) سنة، وفي النسخة السامرية (١٣٠٧) سنة!

٢- في النسخة العبرانية من التوراة أن المدة من الطوفان إلى ولادة إبراهيم  $\mu$  (٢٩٢) سنة، وفي النسخة اليونانية (١٠٧٢) سنة، وفي النسخة السامرية (٩٤٢) سنة!

٣- أما الخلافات في نسخ الأناجيل فكثيرة جدًا، ويكفيك أن تقابل بيان نسب المسيح عيسى بن مريم  $\mu$  الذي في أول إنجيل متى بالبيان الذي في إنجيل لوقا، فستجد اختلافات صادمة لكل نصراني!

ففي إنجيل متى (١/١-١٧): أن عيسى بن يوسف بن يعقوب، وأنه من نسل سليمان بن داود. وفي إنجيل لوقا (٣/٢٣-٣٨): أن عيسى بن يوسف بن هالي، وأنه من نسل ناتان بن داود!!

وإن عددت الأسماء بين المسيح وداود فستجدها في إنجيل متى ستة وعشرين أبًا، بينما ستجدها في إنجيل لوقا واحدًا وأربعين أبًا!

فويل لمن يقرأ مثل هذه الخلافات الواضحة في نسخ التوراة والأناجيل المحرفة ويصر على أنها من عند الله!

ومع تحريف اليهود والنصارى لكتبهم إلا أنه لا يزال فيها بشارات بنينا محمد  $\gamma$ ، وهذه بعض البشارات الموجودة إلى اليوم في التوراة والإنجيل: البشارة الأولى: في سفر التثنية (١٨/١٧-١٨): "قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

البشارة الثانية: في سفر التثنية (٢/٢٣): "فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم".

وسعير اسم لجبال فلسطين، وفاران اسم مكة بالعبرانية، فمعنى مجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى  $\mu$ ، وإشراقه من سعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى  $\mu$ ، ومعنى استعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن على النبي محمد  $\gamma$ . والدليل من التوراة على أن فاران مكة ما جاء في سفر التكوين (٢١/٢٠-٢١) في بيان حال إسماعيل  $\nu$ : "وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران".

البشارة الثالثة: في سفر التكوين (١٠/٤٩): "فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من فخذته حتى يجيء الذي له الكل وإياه تنتظر الأمم".

وقد اختلف علماء أهل الكتاب في ترجمة هذا اللفظ، وسبب حيرتهم هو التعصب الأعمى، ومن أنصف منهم قال: هو محمد  $\gamma$  بلا ريب، فقد أرسله الله للناس كافة.

**البشارة الرابعة:** في إنجيل يوحنا (١٦/١٣، ١٢، ٧): "لكني أقول لكم: الحق إنَّه خير لكم أن أنطلق؛ لأتِّي إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم. وإنَّ لي كلامًا كثيرًا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن. وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق؛ لأنَّه لا ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي".

**البشارة الخامسة:** في إنجيل يوحنا (١٦/١٢-١٣): "إنَّ لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق".

فما أظلم اليهود والنصارى حين لم يؤمنوا بمحمد خاتم الأنبياء، ولا بالقرآن الذي أنزله الله لهدايتهم! قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال الله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

## (٢٥) مصير الكفار المعاصرين الذين سمعوا عن الإسلام ولا يعرفون حقيقته

من أمكنه معرفة الإسلام فتركه، وأعرض عنه باختياره فهو كافر، ولو كان جاهلاً على الحقيقة؛ لأنَّه جاهل جهلاً يمكنه رفعه فلم يرفعه، وهذا حال أكثر المشركين، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [٢٤]، فذكر أنهم جهال لكن باختيارهم حيث أعرضوا عن سماع القرآن الكريم والنظر فيه، وأعرضوا عن النظر في آيات الكونية الدالة على وحدانية الله سبحانه.

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ [٣]، وعدم علم الإنسان بتفاصيل الحق بسبب إعراضه عند سماعه للحق ليس بعذر؛ وهذا أكثر ضلال الأمم؛ لأنَّهم يسمعون بعض الحق، ثم يعرضون - متجاهلين - عن تفاصيله.

وقد أخبر الله سبحانه عن جهال المشركين الذين أضلهم غيرهم أنهم في النار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [٦٤] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [٦٥] يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَصْلَوْنا السَّبِيلَ [٦٧] رَبَّنَا آتِنَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا [٦٨] [الأحزاب: ٦٤-٦٨].

وعدم الاكترات بالبراهين الشرعية والكونية صفةً لأكثر الكفار؛ قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال

سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

فالإعراض مع طرفٍ من علمٍ لا يسقط حقوق الناس فيما بينهم؛ فكيف يسقط حق الله تعالى؟!!

ويخطئ الإنسان بظنه أن إعراضه عن تفاصيل الحق وتركه لها وراء ظهره يعفيه من تبعاتها<sup>(١)</sup>.

وسبب الإعراض: إما كِبَرٌ، أو لهوٌ واستمتاع، أو كسلٌ واستخفاف.

والإيمان: اعتقاد، وقول، وعمل، وهذه الثلاث كلها الإيمان.

والمراد بالاعتقاد: تصديق القلب بأنه لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وأنَّ ما جاء به النبي ﷺ عن ربه هو الحق، وكذا يجب عمل القلب من حب الله، ونبيه، ودين الإسلام، وحب ما يحبه الله ورسوله، والإخلاص له

(١) من أشنع أخطاء الشقيري في كتابه (أربعون) تعريفه الكافر بقوله (ص: ٩٨): "الكافر شرعاً هو الذي يغطي حقيقة أن الله واحد لا إله إلا هو، فلا يوصف بالكفر إلا إذا عرف الحقيقة، وتعمد تغطيتها، فمن لم يعرف الحقيقة أصلاً فلا يُطلق عليه كافر، فلا يكون الإنسان كافراً إلا إذا آمن بالحقيقة ثم غطاها وسترها بالكفر، فشرط أن يكون الإنسان كافراً أن يعرف التوحيد ويعرف الحق ثم يحاول تغطيته عمداً، فمن جاءتته رسالة الإسلام كاملة، ولكنه لسبب ما لم يقتنع بشريعة محمد ﷺ، ليس كِبَرًا ولا عنادًا ولا تحديًا، ولكن بسبب خلفيته بقي على ملته، فإنه لا يكون كافراً إذا كان موحّداً لله!". انتهى باختصار وتصرف يسير.

في عبادته، وليس المراد بالاعتقاد حب الخير للناس، والسلامة من الغل؛ لأنَّ هذا تميل إليه أكثر النفوس؛ ولو كانت لا تؤمن بوجود الخالق.

والمراد بالقول: النطق بالشهادتين، وتسبيح الله، وتحميده، والتكبير والاستغفار ونحو ذلك، وليس القول محصورًا في ألفاظ الخير العامة كالصدق في الحديث، ولين الخطاب مع الوالدين، وبذل التحية؛ لأنَّ هذا تحبه كل نفس ولو كانت كافرة بالله جاحدة لوجوده.

والمراد بالعمل: ما شرعه الله من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج ونحو ذلك، وليس العمل محصورًا في أعمال البر العامة: كبر الوالدين، وإطعام الفقير، ونصرة المظلوم، وإكرام الضيف؛ لأنَّ هذا تميل إليه النفوس ولو بلا إيمان.

ومن آمن بقلبه، وتمكن من النطق بالشهادتين بلسانه فلم ينطق؛ فليس بمؤمن.

ومن آمن بقلبه، ونطق بلسانه؛ وتمكن من العمل الذي اختصت به شريعة محمد ﷺ فلم يعمل؛ فليس بمؤمن، فلا بد في الإيمان من العمل الصالح، قال الحسن البصري: (إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، إِنَّمَا الْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ)<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم: "لا بد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلِّد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلِّد لم يتمكن

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٣٥١).

من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه، فلا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضًا:

أحدهما: مرید للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك دينًا خيرًا مما أنا عليه لدنتُ به وتركتُ ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه، ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي، ونهاية معرفتي. والثاني: راض بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق، فالأول كمن طلب الدّين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلاً، والثاني كمن لم يطلبه، بل مات في شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرقٌ بين عجز الطالب وعجز المعرض.

فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسول، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو بعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أنّ كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأنّ الله ﷻ لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول، هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه،

هذا في أحكام الثواب والعقاب. وأما في أحكام الدنيا فهي جارية مع ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم، وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني على أربعة أصول:

**أحدها:** أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

**الأصل الثاني:** أن العذاب يُستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادة العلم بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

**الأصل الثالث:** أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً، ولا يتمكن من الفهم.

**الأصل الرابع:** أن أفعال الله ﷻ تابعة لحكمته، ... وهو الفَعَال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لكمال حكمته وعلمه ووضع الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا

فساد يُسأل عنه كما يُسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم" (١).

وجاء في فتاوى الشبكة الإسلامية - إسلام ويب: "الله تعالى لا يُعذّب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومعنى قيام الحجة هو بلوغ الإسلام إلى الشخص، وتمكنه من العلم به، كما قال ابن القيم: "فإنّ حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه". انتهى من كتابه مدارج السالكين.

وقيام الحجة يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأشخاص، فإذا قامت الحجة الرسالية على الشخص فلم يسلم ثم مات كافرًا فهو من أهل النار خالدًا مخلدًا فيها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١٦٦] خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يظنون [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، أما ما عمله الكفار من خير في الدنيا فإنه لا ينفعهم يوم القيامة، فكفرهم وشركهم

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین (ص: ٤١٢ - ٤١٤) باختصار يسير.

يحبط كل عمل خير عملوه، فإن الشرك هو أعظم الظلم على الإطلاق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [٨٨] ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [٨٩] ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [٩٠] ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [٩١] ﴿مريم: ٨٨-٩١﴾، فانظر إلى فظاعة وشناعة قول أهل التثليث والتعدد حتى أن نظام الكون يكاد يختل من إفكهم! فما عسى أن تكون أعمالهم الخيرة في الدنيا وهم يؤذون الله خالقهم وباريهم، وما عسى أن تكون أعمالهم الخيرة في الدنيا وهم يظلمون أعظم الحقائق حقيقة التوحيد، ويعتقدون أشنع العقائد من التثليث وتعدد الآلهة، وأما اليهود فقد صفوا الله بما ينتزه عنه ويتقدس، ومن ذلك أنهم وصفوه بالتعب كما قال الله ﷻ رادًا عليهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [٢٨] ﴿ق: ٣٨﴾.

وأما السؤال عن مصير الذين سمعوا بالإسلام ولم يعرفوا عنه شيئاً فجوابه: أن من مات على غير الإسلام ولم تبلغه الدعوة على وجهها فإن ماله في الآخرة موضع اختلاف بين أهل العلم، فمنهم من جزم بعدم عذره وأنه مُعَدَّب لا محالة، ومنهم من جزم بعذره، وأنه لا يُعَدَّب حتى تقام عليه الحجة الرسالية، وهؤلاء العلماء الذين قالوا بعذرهم حتى تقوم عليهم الحجة انقسموا إلى قسمين، فقسمٌ أطلق القول بعذرهم وأن الرحمة تشملهم ابتداءً، قال أبو حامد الغزالي: "إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى، أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف: الصنف الأول: لم يبلغهم اسم محمد

٧ أصلاً، فهم معذورون. **الصف الثاني:** بلغهم اسمه ونعته، وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام، والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون. **الصف الثالث:** هم بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد ٧ ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أنّ كذاباً اسمه محمد -نعوذ من ذلك بالله تعالى- ادعى النبوة، فهؤلاء عندي في أوصافه في معنى الصف الأول، فإنهم مع أنهم لم يسمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك النظر في الطلب". ومنهم من قال: يمتحنون في عرصات يوم القيامة، وقد صحت في هذا القول بعض النصوص، وذهب إلى القول به عدد كبير من أهل العلم، منهم: البيهقي، وابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر، قال النبي ٧: «أربعة يوم القيامة يدلون بحجة، رجل أصم لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ومن مات في الفطرة، فأما الأصم فيقول: يا رب، جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: جاء الإسلام والصبيان يقذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل، وأما الذي مات على الفطرة فيقول: يا رب، ما أتاني رسولك، فيأخذ موثيقهم ليطيغنه، فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً». قال ابن كثير بعد أن ساق النصوص التي تشير إلى امتحان هؤلاء في عرصات يوم القيامة: "وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن

أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

والواجب أن نحرص على دعوة الكافرين إلى الإسلام؛ لأنهم كفار سواء كانوا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو كانوا من المشركين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ [البينة:٦]، فهم شر الخليقة؛ لكفرهم بالله، وإعراضهم عن كتاب الله واتباع رسوله ٧، فإن من أنواع الكفر كفر الإعراض، فمن سمع بدين الله وأنه أنزل كتاباً وأرسل رسولاً فأعرض عن الحق اشتغالاً بالدنيا أو الشهوات أو كسلاً وتهاوناً وتفريطاً؛ فإنه كافر كما قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنزِلُوا مَعْرُضُونَ ۖ﴾ [الأحقاف:٣]، ولا يجوز لأحد محبة الكافرين الغافلين عن الله سبحانه وعن دينه الحق ورسوله وكتابه، ومن كان صادقاً في إرادة الخير لهم ونجاتهم من عذاب الله فليحرص على تبليغهم كتاب الله بلغاتهم المختلفة، ودعوتهم إلى دين الإسلام ليعبدوا الله وحده الذي خلقهم لعبادته، أما من يحبهم مع كفرهم أو يدافع عن دينهم فإنه من المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض، وهو في الحقيقة يغشهم ويخدعهم، بل ويخدع نفسه بإعراضه عن دين الإسلام الذي لا يقبل الله سواه، وإعراضه عن كتاب الله وسنة نبيه ٧، فالمسلم مأمور بالدعوة إلى الله بقدر استطاعته، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ [يوسف:١٠٨].

(١) ينظر الفتوى كاملة على هذا الرابط: <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/39870/#>

الأعمون

## (٢٦) وجوب موالة المؤمنين وبغض الكافرين والحذر من الاغترار بهم

الولاء والبراء من أعظم واجبات الدين، ومن أسباب النصر والتمكين، فيجب على المسلم أن يوالي جميع المسلمين، وأن يتبرأ من جميع الكافرين، فإن لم يفعل المسلمون ما يجب عليهم من الموالة والمعادة حصل شر عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

فواجب على كل مسلم أن يوالي في الله، وأن يعادي في الله، وأن يحب في الله، وأن يبغض في الله، فيجب جميع المؤمنين ويناصرهم، ويعادي جميع الكافرين ويبغضهم ويتبرأ منهم، فأوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، قال الله تعالى في وجوب موالة جميع المؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [٥٥] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [٥٦] [المائدة: ٥٥-٥٦]، وقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥١] [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]: "المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالاتة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تُقطع يده لسرقة، ويُعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته" (١).

ولا يعني وجوب بغض الكافر الذي أحسن إليك أن تظلمه، بل يجب العدل معه، وينبغي أن تحسن إليه، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وحسن أخلاق المسلم في تعامله مع الكافر يدعوه إلى الإسلام، وإنما تُبغضه لكفره بالله ورسوله، وتكذيبه بكتاب الله وسنة رسوله، وتمرده على توحيد الله وإعراضه عن عبادة خالقه، قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُحْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويجوز التعامل مع الكفار في المعاملات الدنيوية كالبيع والشراء والإيجار والاستئجار، مع الحذر والתיقظ في التعامل معهم حتى لا يضروا المسلمين

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٢٠٩).

بشيء؛ فإنهم أعداء الله ورسوله والمسلمين، وقد حذرنا الله من طاعتهم والركون إليهم وموالاتهم.

ولا تجوز مداهنة الكفار، وتجاوز مداراتهم.

**والمداهنة:** هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومصانعة الكفار والعصاة من أجل الدنيا، والتنازل عما يجب على المسلم من الغيرة على الدين، مثل الاستئناس بأهل المعاصي والكفار ومعاشرتهم وهم على معاصيهم أو كفرهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة عليه، قال الله تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠].

**والمداراة:** هي درء المفسدة والشر بالقول اللين وترك الغلظة أو الإعراض عن صاحب الشر إذا خيف شره أو حصل منه أكبر مما هو ملابس له كالرفق بالجاهل في تعليمه، والإنكار على الفاسق برفق وترك الإغلاظ عليه، لا سيما إذا احتيج إلى تأليفه.

والمداراة لا تتنافى مع الموالاتة إذا كان فيها مصلحة راجحة للمسلمين من كف شر الكفار في حال قوتهم أو تأليفهم في حال قوة المسلمين أو تقليل شر الكفار المحاربين أو تخفيفه، وهذا من الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ومن الحكمة في الجهاد في سبيل الله، ومن ذلك مداراة النبي ﷺ للمنافقين في المدينة

خشية شرهم وتأليفاً لهم ولغيرهم، فالمداراة جائزة لأنها لأجل الدين، أما المداهنة فلا تجوز لأنها لأجل الدنيا.

هذا، ويجب الحذر من الاغترار بالكفار، قال الله سبحانه: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وعن أنس بن مالك  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»<sup>(١)</sup>.

ويجب الحذر من فتنة النظر إلى نعمة الكفار وحسن أثارهم وجمال صورهم، قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا﴾ [مريم: ٧٤].

أي: وأهلكنا قبل كفار هذه الأمة كثيراً من الأمم الماضية وكانوا أحسن منهم في أمتعة مساكنهم، وأكثر أموالاً منهم، وأجمل في منظرهم وصورهم، فأهلكهم الله بسبب كفرهم<sup>(٢)</sup>.

قال ابن تيمية: "قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور وغير ذلك من متاع الدنيا، أما اللباس والصور فهما اللذان لا ينظر الله إليهما كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٢) يُنظر: تفسير ابن جرير (١٥ / ٦١٠)، تفسير ابن كثير (٥ / ٢٥٧، ٢٥٨)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦ / ١٥٤)، أضواء البيان للشنقيطي (٣ / ٤٨٤، ٤٨٥).

٧ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»،... وذلك أَنَّ الله يُمَتِّع بالصور كما يُمَتِّع بالأموال، وكلاهما من زهرة الحياة الدنيا، وكلاهما يُفْتَنُ أهله وأصحابه، وربما أفضى به إلى الهلاك دنيا وأخرى. والهلکی رجلان: فمستطيع، وعاجز. فالعاجز مفتون بالنظر ومد العين إليه، والمستطيع مفتون فيما أوتي منه، غارقٌ قد أحاط به ما لا يستطيع إنقاذ نفسه منه" (١).

وقال السعدي: "عُلِمَ من هذا أَنَّ الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار" (٢).

فبعض الناس يُفْتَنُ بما عليه الكفار من التقدم والتكنولوجيا والتطور في دنياهم، ويظن أَنَّ هذا الخير الدنيوي دليل على أنهم في الآخرة من الفائزين بالجنة، والناجين من النار، وهذا ضلال مبین، فالله يبتلي من يشاء بالغنَى، سواء كان مؤمناً أو كافرًا، ويبتلي من يشاء بالفقر، سواء كان مؤمناً أو كافرًا، ويبتلي كل إنسان بالخير والشر؛ لينظر الصابر والشاكر، قال الله تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٤٩٩).

وعن أنس بن مالك وسهل بن سعد الأنصاريين **ك** أَنَّ النبي **γ** قال: «اللَّهُمَّ  
لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»<sup>(١)</sup>.



(١) رواه البخاري (٢٩٦١) و (٣٧٩٧) ومسلم (١٨٠٤) و (١٨٠٥).

## (٢٧) نهي المؤمنين عن استعجال عذاب الكافرين

قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: ولا تستعجل - يا رسولنا - للكافرين حلول عذاب الله عليهم فتدعو الله أن يُعجِّله عليهم، فهم معدَّبون لا محالة في الوقت الذي قدره الله لهلاكهم (١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وقال β: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [١٠] وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمِهْلُهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠-١١].

وقال φ: ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

وعن حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ η أَنَّ الصَّحَابَةَ شَكُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ γ مَا يَلْقُونَ مِنْ كِفَارِ قَرِيْشٍ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ، وَقَالُوا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ γ بِالصَّبْرِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اسْتِعْجَالِ هَلَاكِ الْكَافِرِينَ فَقَالَ:

(١) يُنظر: تفسير ابن جرير (١٧٧/٢١، ١٧٨)، تفسير ابن كثير (٣٠٥/٧)، تفسير السعدي (ص: ٧٨٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٦٧/٢٦)، أضواء البيان للشنقيطي (٧/٢٤١، ٢٤٢).

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمِّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّابِئُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّنْبَ عَلَى غَمِّهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» (١).

ويجب على المسلم أن لا يندع بما أعطى الله الكفار والمنافقين في الدنيا من الأموال والملاذ والشهوات، فالدنيا جنة الكافر، قال الله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

وقال سبحانه: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٤-٢٠٧].

فالله يُملي لهم ويُمهلهم إلى آخر آجالهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

(١) رواه البخاري (٦٩٤٣).

ومن رحمة الله سبحانه أنه يمهل الكافرين والظلمة والفسقة عسى أن يتوبوا، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ [الكهف: ٥٨].

ومن حكمة الله أنه يترك الكفار والطغاة في ضلالهم حيارى إلى أن يأتيهم العذاب في الدنيا أو يتركهم إلى آخر آجالهم وقد استكثروا من السيئات واستحقوا أبلغ العقوبات، فلا يصح لنا أن نسأل الله أن يُعَجِّلَ عذابهم قبل وقته الذي قدَّره الله لهلاكهم، وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَّلَهُمْ وَأَجَلَهُمْ فَأَنْزَلَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١].

وقال سبحانه: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦].

وقال β: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وعن أبي موسى الأشعري η قال: قال رسول الله γ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

وعن أنس بن مالك η أن رسول الله γ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجَّوا نَبِيَّهُمْ،

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

وَكَسَرُوا رَبَاعِيَّتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟»، فأُنزل الله  $\beta$ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١).

وعن عبد الله بن عمر  $k$  أنه سمع رسول الله  $\gamma$  إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا»، بعد ما يقول: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلكَ الْحَمْدُ»، فأُنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (٢).

وعن أبي هريرة  $\eta$ : أن رسول الله  $\gamma$  كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، فربما قال: إذا قال: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ» يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا، لِأَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ»، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (٣).

فلا يُشرع استعجال عذاب الكافرين والظالمين، وإنما المشروع عند الدعاء على الكفار والظلمة أن يكون الدعاء عليهم من غير توقيت ولا

(١) رواه مسلم (١٧٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٩).

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٠) ومسلم (٦٧٥)، وفي رواية مسلم تسمية القبائل التي دعا عليهم النبي  $\gamma$ ، قال: «اللَّهُمَّ الْعَنْ لِحْيَانَ، وَرَغَلًا، وَذُكْوَانَ، وَغُصَيَّةً».

استعجال، والله يفعل ما يشاء، ويُنزِل عذابه عليهم متى شاء، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

## (٢٨) الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله فريضة على المسلمين إلى قيام الساعة، جهاد الغزو في حال قوة المسلمين، وجهاد الدفع في حال ضعف المسلمين، وتتأكد هذه الفريضة في حال جهاد الدفع عندما يغزو الكفار أي أرض من بلاد المسلمين الواسعة، ويفسدون في أرض الإسلام بنشر الكفر والظلم والمعاصي.

وإنَّ ما أصاب المسلمين اليوم من الذل والهوان هو بسبب تركهم الجهاد في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩]، وحين ترك المسلمون الجهاد تسلط عليهم الكفار والمنافقون، يقتلونهم، ويسجنونهم، ويسومونهم سوء العذاب، يذلونهم، ويفتنونهم في دينهم، وينهبون خيراتهم، ويفسدون دنياهم، فالجهاد فرضه الله العزيز الحكيم على هذه الأمة؛ لأنَّ فيه دفع شرورٍ عظيمة، وتحقيقَ مصالحٍ كثيرةٍ دينيةٍ ودنيوية، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، فحياة الأمة بالجهاد في سبيل الله، وفوائد الجهاد أرجح من المفاصد الدنيوية التي يوجر عليها المسلمون الصابرون حين تصيبهم بسبب الجهاد، من الخوف والجوع

والمشقة والقتل والجراح والخراب، فالجهاد بضوابطه الشرعية خير للمسلمين في دينهم ودنياهم وآخرتهم؛ ولذلك أمر الله المسلمين بتحصيل القوة والاستعداد للجهاد بحسب طاقتهم، وإن لم يجاهد المسلمون الكفار، ويعدوا العدة للقتال، فإنهم يلقون بأيديهم إلى التهلكة، وسيخسر كثير منهم الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَنَّهُ أَكْبَرَ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكَ حَتَّىٰ يَرْدُوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧].

فالإسلام دين التضحية والجهاد، وقد أمر الله سبحانه المسلمين بالسعي الحثيث في تحصيل أسباب القوة، والإعداد للجهاد في سبيله، ونهاهم عن الركون إلى الدنيا، والرضا بالمهانة والذلة<sup>(١)</sup>.

قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ [التوبة: ٥]، وقال ﷺ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ

(١) يُنظر: التفسير الكبير للرازي (٤٧٢/١٥)، الإنجاد في أبواب الجهاد لابن المناصف (ص: ٧ - ١٣٠)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥٣ / ٢٨، ٣٥٤)، من هدي سورة الأنفال لمحمد المصري (ص: ٢١٣، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٦٤)، أحكام المجاهد بالنفس في سبيل الله لمرعي الشهري (٢٢٤/٢).

يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال جل وعز:  
 ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ  
 غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣]، وهذه الآيات من سورة  
 التوبة آخر آيات الجهاد نزولاً، وفيها الأمر بقتال الكفار لكفرهم حتى يتوبوا  
 عن كفرهم ويعبدوا ربهم، أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون، واختلف الفقهاء  
 في مشروعية أخذ الجزية من المشركين غير أهل الكتاب، فذهب بعض  
 العلماء إلى أن الجزية لا تؤخذ من المشركين، وإنما تؤخذ من أهل الكتاب  
 من اليهود والنصارى، وجاءت السنة بإلحاق المجوس بهم، وقال بعض  
 العلماء: تؤخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس وغيرهم من المشركين إلا  
 العرب، وقال بعضهم: تؤخذ الجزية من جميع المشركين ولو كانوا من  
 العرب<sup>(١)</sup>.

والأمر في هذا يرجع إلى إمام المسلمين، وما تقتضيه المصلحة في كل  
 زمان ومكان، قال ابن تيمية: "الجمهور يجوزون أخذ الجزية من مشركي  
 الهند والترك وغيرهم من أصناف العجم كما يجوز الجميع معاهدة هؤلاء  
 عند الحاجة أو المصلحة"<sup>(٢)</sup>.

ويُشرع غزو جميع أصناف الكفار المحاربين في حال قوة المسلمين،  
 وأخذ الجزية منهم أو مصالحتهم والهدنة معهم بحسب ما تقتضيه المصلحة  
 العامة للإسلام والمسلمين، ولا يجوز قتل من لا يقاتل المسلمين كالنساء

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٥ / ١٧٠ - ١٧٣).

(٢) الصفدية (٢ / ٣٢٢).

والأطفال والرهبان والتجار والسياح في بلاد المسلمين والمعاهدين والمستأمنين.

وقد قرر الفقهاء مشروعية جهاد الغزو في حال قوة المسلمين، قال الزيلعي: "يجب علينا أن نبدأهم بالقتال وإن لم يقاتلونا لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] ... وقوله μ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...» الحديث، وعليه إجماع الأمة<sup>(١)</sup>.

وقال الجصاص مبيناً مشروعية قتال الكفار المحاربيين وإن لم يقاتلونا: "هي عامة في قتال سائر المشركين من قاتلنا منهم ومن لم يقاتلنا، بعد أن يكونوا من أهل القتال؛ لأنه لا خلاف أن قتل النساء والذراري محظور، وقد نهى عنه النبي γ"<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن الهمام: "وقتل الكفار الذين لم يسلموا وهم من مشركي العرب أو لم يسلموا ولم يعطوا الجزية من غيرهم واجب وإن لم يبدءونا؛ لأن الأدلة الموجبة له لم تقيد الوجوب ببداءتهم"<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن عابدين: "الجزية ليست رضاً منا بكفرهم، بل هي عقوبة لهم على إقامتهم على الكفر"<sup>(٤)</sup>.

(١) تبیین الحقائق (٣/ ٢٤١).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٣٢١).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٤١) بتصرف يسير.

(٤) رد المحتار (٤/ ٢٠٠) بتصرف يسير.

وكل من سأل المسلمون ولم يحاربهم لا يقاتل، سواء كان كتابياً أو مشركاً، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضَ لَكُمْ فَأَمَّا يَاقُوتُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

والكفار المعاهدون إن أسلموا فهم إخوان لنا في الدين، وإن نكثوا أيمانهم وجب قتالهم، وإن وفوا بالعهد وفي لهم بعهدهم، وإن كانوا قد عاهدوا بلا جزية، فذلك من عاهد بالجزية.

قال ابن تيمية: "الصحيح أنه يجوز العهد مطلقاً ومؤجلاً، فإن كان مؤجلاً كان لازماً لا يجوز نقضه، لقوله: ﴿فَاتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، وإن كان مطلقاً لم يكن لازماً"<sup>(١)</sup>.

وقتل الكافر غير الحربي لا يجوز، وقتله بغير حق فساد لا يحبه الله ورسوله، فإنه لا يضر المسلمين، وإذا لم يُقتل الكافر فيرجى له الإسلام ولو بعد حين.

قال ابن تيمية: "إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن<sup>(٢)</sup> ونحوهم فلا يُقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان؛ لكونهم مآلاً للمسلمين، والأول

(١) الصفدية (٢/ ٣٢٠).

(٢) أي: المريض مرضاً لا يُرجى شفاؤه.

هو الصواب؛ لأنَّ القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله ... وذلك أنَّ الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يُحتاج إليه في صلاح الخلق كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] أي: أنَّ القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه ... ولهذا أوجبت الشريعة قتال الكفار، ولم توجب قتل المقدور عليهم منهم ... فأما أهل الكتاب والمجوس فيقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ... ومن سواهم فقد اختلف الفقهاء في أخذ الجزية منهم إلا أنَّ عامتهم لا يأخذونها من العرب، وأيما طائفة انتسبت إلى الإسلام وامتنعت من بعض شرائعه الظاهرة المتواترة فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين حتى يكون الدين كله لله كما قاتل أبو بكر الصديق  $\eta$  وسائر الصحابة  $\rho$  مانعي الزكاة<sup>(١)</sup>.

هذا، وإنَّ بعض المعاصرين يُنكرون مشروعية قتال الكافرين لكفرهم، وينكرون جهاد الغزو في حال قوة المسلمين، ويكفي للرد عليهم قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وحديث عبد الله بن عمر  $\kappa$  أنَّ رسول الله  $\gamma$  قال: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَيَّ

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٣٥٤ - ٣٥٦).

الله»<sup>(١)</sup>، ثم إن من أعظم الظلم الشرك بالله، فكيف يُنكر مشروعية الجهاد ضد الكافرين لكفرهم وهم مصرّون على أعظم الظلم؟!

والجهاد في الإسلام هو لإعلاء كلمة الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأأنفال: ٣٨].

قال ابن كثير: "يقول تعالى لنبيه محمد  $\gamma$ : ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ [الأأنفال: ٣٨] أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، ﴿يُعْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأأنفال: ٣٨] أي: من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ [الأأنفال: ٣٨] أي: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأأنفال: ٣٨] أي: فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة"<sup>(٢)</sup>.

فمن أبى أن يعبد الله الذي خلقه، ولم يؤمن برسوله الذي أرسله ليطاع بإذنه، وأعرض عن كتابه الذي أنزله لهداية الناس والحكم بينهم؛ فإنه في الآخرة من الخاسرين، وفي الدنيا يجب أن يكون من الأذلين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٣٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣١﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

(١) رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٥). ويُنظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ٥٣٧).

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، الذين هم في حد، والشرع في حد أي: مجانبون للحق، مشاقون له، هم في ناحية، والهدى في ناحية ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذْيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٢٠] أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول بأن النصر له وكتابته ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]"(١).

ولا يشكّل على هذا أنّ المسلمين قد يُهزمون في معركة أو في مكان أو في زمان، فإنّ الأمر كما قال الله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قال ابن القيم:

والحق منصورٌ وممتحنٌ فلا تعجبُ فهذي سنة الرحمن وقد بين الله للمسلمين أسباب النصر في كتابه فإذا أخذوا بها -في أي زمان ومكان- نصرهم الله، وإذا لم يأخذوا بها لم ينصرهم(٢).

هذا، وإنّ في قصة ذي القرنين ردّاً كافياً على من ينكر قتال الكافرين لكفرهم، فقد أمر الله الملك الصالح ذا القرنين أن يُعذّب من أبى أن يعبد الله كما أخبرنا الله في كتابه: ﴿قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتُمْ مُعَذَّبُونَ وَإِنَّمَا تَأخُذُ بِهِمْ حُصْنًا

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

(٢) سيايأتي ذكرها في آخر فصل من هذا الكتاب.

﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مِنْ ءَامِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨]، وأخبر الله عنه أنه وجد في سفره نحو المغرب أمة كافرة، فمكّنه الله منهم، وحكّمه فيهم إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ عليهم، فقال: ﴿أَمَا مِنْ ظَلَمَ﴾ [الكهف: ٨٧] أي: استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ [الكهف: ٨٧] أي: بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ [الكهف: ٨٧] أي: شديدًا بليغًا ﴿وَأَمَا مِنْ ءَامِنَ﴾ [الكهف: ٨٨] أي: اتبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨] أي: فله الجنة في الدار الآخرة عند الله ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨] أي: معروفًا<sup>(١)</sup>.

ومما يُبطل دعوى من ينكر قتال الكافرين لكفرهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَامِنُونَ وَإِن تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

فقتال من لم يُسلم ويعبد الله وحده هو قتال مشروع بأمر الله، جزاء على ظلمه حيث لم يدخل دين الله الذي رضيه لعباده، ولم يعبد الله وحده الذي خلقه لعبادته، قال الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فيجب على المخلوق أن يؤدي حق الله كما عليه أن يؤدي حق عباد الله، فكما تجب عليه طاعة والديه، وطاعة مديره، وطاعة أميره؛ فيجب عليه طاعة خالقه سبحانه، وكما يستحق الإنسان العقوبة على ترك طاعة والديه، أو مديره، أو

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٠).

أميره، فمن بابٍ أولى أنه يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة على ترك طاعة خالقه سبحانه.

قال ابن تيمية: "كل من بلغته دعوة رسول الله ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجيب له؛ فإنه يجب قتاله ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كَلَهُ وَاللَّهُ بَلِيغٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]"<sup>(١)</sup>.

فقتال الكافرين هو لكفرهم وظلمهم، وكفرهم من أعظم الظلم، ولا يجوز عند قتال الكفار المحاربين قتل من كف عن قتال المسلمين منهم، ولا قتل من لم يكن من أهل القتال منهم، ولا الغدر بمن طلب الأمان أو صالح المسلمين بدفع الجزية أو عاهدتهم، فهدف الجهاد في الإسلام هو إعلاء كلمة الله، وإظهار دين الله، فلا يبيح الإسلام القتال لغايات عدوانية، أو مقاصد مادية، أو لسيادة عنصر على عنصر، أو شعب على شعب، أو توسيع رقعة مملكة أو تحقيق مكاسب اقتصادية وغير ذلك مما تجعله الدول القوية قديماً وحديثاً مبرراً لإشعال الحروب، وهدم السلم الدائم، فغاية الجهاد في الإسلام مبادئ كريمة يعم نفعها جميع الناس في الدنيا والآخرة.

### والجهاد في الإسلام نوعان:

- (١) جهاد دفع في حال ضعف المسلمين.
- (٢) جهاد غزو في حال قوة المسلمين.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٣٤٩).

فإما أن يكون الجهاد لدفع العدو الذي غزا المسلمين إلى ديارهم، ويريد فتنتهم في دينهم، وإما أن يكون لغزو الكفار في ديارهم، لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فإذا أسلموا عرفوا أن قتال المسلمين لهم ما هو إلا علاج لأنفسهم الظالمة، ودواء لقلوبهم المريضة بالكفر والشرك، ولولا الجهاد في سبيل الله لفسدت الأرض ببقاء الكفر والضلال، قال الله: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين لفسدت الأرض بالظلم والطغيان والمعاصي والعذاب، فمن فضل الله على جميع الناس ورحمته بهم أنه يدفع أهل الباطل بأهل الحق؛ ولهذا شرع الجهاد في سبيله.

قال المباركفوري: "لم تكن من شيمة العرب أن يخضعوا لأحد مهما طال القتال، ومهما غلا الثمن، فقد دام القتال بين بكر وتغلب في حرب البسوس أربعين عامًا، وكانت ضحيتها حوالي سبعين ألف مقاتل، ولم يخضع أحدهما للآخر، ودامت حروب الأوس والخزرج أكثر من مائة عام، ولم يخضع أحدهما للآخر، فلما جاء النبي ﷺ بالإسلام، قاتل العرب بأسلوب آخر حكيم، حتى فتح قلوبهم قبل أن يفتح بلادهم؛ ولذلك فإن مجموع من قُتل في جميع غزواته وحروبه من المسلمين والمشركين واليهود والنصارى في حدود ألف قتيل فقط، في مدة لا تزيد على ثمانية أعوام! وفي هذه الفترة القليلة، وبإهراق هذا القدر القليل من الدم أخضع الجزيرة العربية كلها تقريبًا، وبسط الأمن والسلام في ربوعها وأرجائها، إنها نبوة ورحمة، ورسالة وحكمة،

ودعوة ومعجزة، وفضل من الله ونعمة، فقد جعل النبي ﷺ الحرب سبيلاً لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وسبيلاً لنصرة المظلومين، وكبت الظالمين، ولبسط الأمن والسلام على الأرض، وإقامة العدل" (١).

وليس المقصود من الجهاد إكراه الكفار على اعتناق الإسلام، وإنما تبليغهم الإسلام، وقتال كل من يحول بينهم وبين اختيار الإسلام من أئمة الكفر الذين يصدون أتباعهم عن اختيار دين الله الذي لا يرضى سواه، فمن اختار طريق الإسلام والإيمان فقد فاز فوزاً عظيماً، وله الخير والعزة في الدنيا، والجنة في الآخرة، ومن اختار طريق الكفر فقد خسر خسراناً مبيئاً، وله المذلة في الدنيا، والنار في الآخرة.

فالإسلام يخيّر الكفار بين الدخول في دين الله الذي ارتضاه لعباده أو التعايش مع المسلمين مع دفع الجزية، وإلا فالقتال لمن استكبر عن الدخول في دين الله، ولا يجوز في الجهاد قتل الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة الذين لا يقاتلون، قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

أي: قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا بقتال من لا يقاتلكم من النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان، وكذلك

(١) روضة الأنوار (ص: ٣٢٣، ٣٢٤).

لا تحرقوا الأشجار وتقتلوا الحيوان لغير مصلحة، وكذلك لا تمتلوا بجثث القتلى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] (١).

وقال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أي: قاتلوا الكفار حتى لا يكون شرك، ويكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان الباطلة، فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، قال مجاهد: لا يُقاتل إلا من قاتل (٢).

فالجهد في الإسلام حرب دينية مشروعة عند كل عقلاء البشر المنصفين، وهي من أنقى الحروب من جميع الجهات: من ناحية الهدف، ومن ناحية الأسلوب، ومن ناحية الشروط والضوابط، ومن ناحية النتائج والآثار.

عن بُريدة  $\eta$  قال: كان رسول الله  $\gamma$  إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغزوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزُوا وَلَا تَغْلُوا (٣)، وَلَا تَعْدُوا، وَلَا تُمْتَلُوا (٤)، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٦).

(٣) أي: لا تأخذوا من الغنيمة قبل قسمتها.

(٤) أي: لا تشوهوا قتلى المشركين بقطع بعض الأعضاء أو حرقهم ونحو ذلك.

الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ،... فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهُمْ  
الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ  
وَقَاتِلْهُمْ»<sup>(١)</sup>.

ففي هذا الحديث أن الكفار يُدعون إلى هذه الثلاث خصال قبل قتالهم:

- ١- الإِسْلَامِ، فيكونوا مسلمين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.
- ٢- الجزية، وهي مال يدفعونه للمسلمين مع بقائهم على دينهم.
- ٣- القتال، فيقاتلهم المسلمون إن استكبروا عن قبول دين الله، وأبوا أن يدفعوا الجزية.

وعن عبد الله بن عمر  $\kappa$  قال: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ  $\gamma$  عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ  
وَالصِّبْيَانِ)<sup>(٢)</sup>.

فلا يجوز قتل النساء والصبيان لكونهم لا يقاتلون المسلمين، ويلحق بهم كبار السن والأجراء الذين لا يعينون الكفار على قتال المسلمين، ففي الحديث الصحيح أن النبي  $\gamma$  بعث رجلاً إلى خالد بن الوليد وهو على مقدمة الجيش فقال: «قُلْ لِحَالِدٍ: لَا يَفْتُنَنَّ امْرَأَةٌ وَلَا عَسِيفًا»<sup>(٣)</sup> أي: أجيئاً.

وعن عبد الله بن عمر  $\kappa$  قال: قال رسول الله  $\gamma$  «إِنَّ الْعَادِرَ يَنْصِبُ اللَّهُ لَهُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: أَلَا هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ»<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

(٢) رواه البخاري (٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٦٩) وصححه الألباني والأرنؤوط.

(٤) رواه البخاري (٦١٧٨) مسلم (١٧٣٥).

وعموم هذا الحديث يدل أنه لا يجوز الغدر في قتال الكفار، كأن يعاهدهم ثم ينقض العهد، ويغدر بهم، فلا يجوز الغدر والخيانة في الجهاد.

وعن هشام بن حكيم ك أن النبي γ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا» (١).

ففي هذا الحديث النبوي الشريف بيان أن الأسير لا يجوز تعذيبه، بل لا يجوز تعذيب أي إنسان بلا مبرر سواء كان مسلماً أو كافراً، فالإسلام دين الرحمة والإحسان حتى مع الحيوانات.

وعن شداد بن أوس η أن النبي γ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِإِحْدَى أَعْيُنِكُمْ شَفْرَةً، وَلِأُخْرَى ذَبِيحَةً» (٢).

هذا، ولولا الجهاد في سبيل الله لضاع الدين الحق، وحل محله الباطل، والصراع حتمي بين الحق وأهله من جهة، والباطل وأهله من جهة أخرى، هذه سنة إلهية لا تتخلف، ووقائع التاريخ القديم والحديث شاهدة بذلك.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَتَبْلُؤُنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِثْمِهِمْ ظُلْمًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ] وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ

(١) رواه مسلم (٢٦١٣).

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥).

صَوِّمُوعٌ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

[الحج: ٣٩-٤١].

قال ابن كثير: "﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي: لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف. والصوامع هي المعابد الصغار للرهبان، والبيع هي كنائس اليهود، والصلوات قيل: هي كنائس النصارى، والمساجد للمسلمين" (١).

ومن مقاصد الجهاد في الإسلام تخليص الناس من الظلم، ونشر العدل بينهم، وتخليص المستضعفين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنَ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

فالجهاد في سبيل الله تطهيرٌ للأرض من الظلم والعدوان والغدر والخيانة والإثم، وبسط للأمن والسلام، ونشر للرفقة والرحمة، وفي الجهاد إعطاء كل ذي حق حقه، وأعظم ذلك أن يُعطى الخالق حقه من العبادة، فيُعبد وحده لا يُشرك به شيئاً، فمن أبى أن يُعطى الخالق حقه، بل وقاتل من يدعو الناس إلى إعطاء الخالق حقه، وصد الناس عن دينه وعبادته؛ فهو أظلم الناس، ومن الرحمة بالناس أن يُزال هذا الطاغوت الذي يحول بينهم وبين عبادة

(١) يُنظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٩).

خالقهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

وبهذا يتبين أنّ الله الحكيم شرع الجهاد في سبيله لحكم عظيمة، ومصالح عديدة دينية ودنيوية.

## (٢٩) الإحسان إلى الكافر غير الحربي وجواز بدئه بالسلام

قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، قال القرطبي في تفسيره: "قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ... وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ٤٧] قلت [القائل القرطبي]: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، ... قال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام، فبان بهذا أن حديث أبي هريرة: «لا تبدءوهم بالسلام» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر. قال الطبري: وقد روي عن السلف أنهم كانوا يُسَلِّمون على أهل الكتاب، وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه، قال علقمة: فقلت له: يا أبا عبد الرحمن ليس يكره أن يُبدءوا بالسلام؟! قال: نعم، ولكن حق الصحبة. وكان أبو أمامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلَّم عليه، فقيل له في ذلك فقال: أمرنا أن نُفشي السلام" (١).

(١) تفسير القرطبي (١١ / ١١١، ١١٢).

وقال ابن القيم: "اختلف السلف والخلف في ذلك، فقال أكثرهم: لا يُبدءون بالسلام، وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم كما يُرد عليهم، روي ذلك عن ابن عباس، وأبي أمامة، ... وقالت طائفة: يجوز الابتداء لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه، أو خوف من أذاه، أو لقرابة بينهما، أو لسبب يقتضي ذلك، يروى ذلك عن إبراهيم النخعي، وعلقمة. وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون" (١).

وسبب الخلاف في هذه المسألة ورود حديث صريح في النهي عن ابتداء السلام على الكافرين لكن تكلم بعض العلماء في صحته، روى هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه من طريق سُهَيْل بن أَبِي صالح عن أبيه عن أبي هريرة  $\eta$  أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ  $\gamma$  قَالَ: «لَا تَبَدَّعُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَأَضْطَرُّوهُ إِلَى أَضِيقِهِ»، وقد ذكره الإمام مسلم في آخر أحاديث الباب، وبيّن اختلاف الرواة في لفظه فقال: "وفي حديث وكيع: «إذا لقيتم اليهود»، وفي حديث ابن جعفر عن شعبة قال: «في أهل الكتاب» وفي حديث جرير: «إذا لقيتموهم» ولم يسم أحداً من المشركين" (٢).

وهذا الحديث من الأحاديث المنتقدة في صحيح مسلم التي أعلاها بعض حفاظ الحديث، وقد عد الحافظ ابن عدي هذا الحديث من الأحاديث التي أنكرت على سُهَيْل بن أَبِي صالح لتفرده به، فإنه لم يرو هذا الحديث أحد

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٨٨).

(٢) صحيح مسلم (٢١٦٧).

غير سهيل عن أبيه أبي صالح، ولا يوجد هذا الحديث عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، وإذا تفرد سهيل بن أبي صالح بحديث فإن كثيراً من المحدثين لا يقبلون تفرده؛ لأنهم وجدوا في أحاديثه بعض الأخطاء، قال يحيى بن معين: لم يزل أهل الحديث يتقون حديثه. وقال البخاري: سمعت علي بن المدني يقول: كان سهيل قد مات له أخ فوجد عليه فنسي كثيراً من حديثه. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يُحتج به. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: يُخطئ. وقال الذهبي: أحد العلماء الثقات وغيره أقوى منه، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق تغير حفظه بأخرة<sup>(١)</sup>.

والدكتور حاكم المطيري بحث مائتاً حول هذا الحديث منشور في شبكة الألوكة بعنوان: (الإعلام بدراسة حديث: لا تبتدعوا المشركين بالسلام) رجح فيه ضعف هذا الحديث لثلاث علل:

الأولى: أن سهيل بن أبي صالح ساء حفظه كما قال البخاري، ولهذا تجنب الاحتجاج به في صحيحه، وقال أبو حاتم ويحيى بن معين: لا يُحتج به. الثانية: أنه تفرد به، ولم يُتابع على روايته هذه، لا عن أبيه، ولا عن أبي هريرة، حتى ذكر حديثه هذا ابن عدي في الكامل، ولم يرو أحد غير سهيل لفظه: «واضطروهم إلى أضيق الطريق».

(١) يُنظر: الثقات لابن حبان (٦/ ٤١٨)، الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (٤/ ٥٢٢ - ٥٢٦)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (٢/ ٢٤٣، ٢٤٤)، من تكلّم فيه وهو موثّق للذهبي (ص: ٩٦)، تقريب التهذيب لابن حجر (ص: ٢٥٩).

الثالثة: أنه ثبت اضطراب سهيل في روايته، فتارة يقول: (المشركين)، وتارة: (أهل الكتاب)، وتارة: (اليهود).

وقد روى هذا الحديث ثلاثة من الصحابة بلفظ آخر يدل على وجه الحديث، ويكشف عن وهم سهيل فيه، وأنه قد يكون اختصره ورواه بالمعنى فلم يضبطه أو يكون نسيه.

عن أبي عبد الرحمن الجهني  $\eta$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى الْيَهُودِ فَلَا تَبْدَعُوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»<sup>(١)</sup>.

عن أبي بصرة الغفاري  $\eta$  عن النبي  $\gamma$  قال: «إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى يَهُودَ، فَلَا تَبْدَأُوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

عن ابن عمر  $\kappa$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «إِنَّكُمْ لَأَقْوَنَ الْيَهُودَ غَدًا فَلَا تَبْدَعُوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»<sup>(٣)</sup>.

فهذا هو اللفظ الصحيح للحديث، وفيه بيان سبب ورود الحديث، وليس فيه ما زاده سهيل من اضطرابهم إلى أضييق الطريق، وقد فسر الإمام إسحاق بن راهويه هذا الحديث بأن المراد منه منع بذل الأمان لليهود المحاربين حين خرج إليهم النبي  $\gamma$  لحصارهم، فلو سلم عليهم المسلمون لادَّعوا أن سلامهم عليهم أمان لهم، قال إسحاق بن راهويه: "في مصافحة

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٩٩) وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٠٢) وصححه الألباني.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٧٢١) وصححه الألباني في إرواء الغليل (١١١ / ٥)، وأصله في الصحيحين.

غير أهل الملة تعظيم، وقد أمرنا بتذليلهم، إلا أن تكون حاجة أو أردت أن تدعوه إلى الإسلام وما أشبه ذلك من أمر الآخرة كالسلام ليس لك أن تبدأه لما فيه تعظيم وتشبيهه بتحية المسلم، فإذا كانت حاجة إليه فلك أن تبدأه بالسلام، ومعنى قول النبي ﷺ: «لا تبدعواهم بالسلام» لَمَّا خاف أن يدَّعُوا ذلك أمانًا، وكان قد غدا إلى اليهود<sup>(١)</sup>.

وكذا فسره ابن تيمية فيما نقله عنه تلميذه ابن قيم الجوزية، قال ابن القيم: "وأما قول النبي ﷺ: «لا تبدعواهم بالسلام» - وهذا لَمَّا ذهب إليهم ليحاربهم وهم يهود قريظة - فأمر ألا يُبدعوا بالسلام؛ لأنَّه أمان، وهو قد ذهب لحربهم، سمعت شيخنا يقول ذلك"<sup>(٢)</sup>.

وقد وردت آثار عن السلف الصالح تدل على جواز بدء الكافر غير الحربي بالسلام، منها ما يلي:

(١) روى ابن أبي شيبة<sup>(٣)</sup> بسند صحيح على شرط الشيخين عن علقمة قال: أقبلت مع عبد الله بن مسعود من السيلحين فصحبه دهاقين من أهل الحيرة، فلما دخلوا الكوفة أخذوا في طريق غير طريقهم، فالتفت إليهم فرآهم قد عدلوا، فأتبعهم السلام، فقلت: أتسلم على هؤلاء الكفار؟! فقال: (نعم، صحبوني، وللصحة حق).

(١) يُنظر: مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه (٢/ ٣٣٧).

(٢) أحكام أهل الذمة (٣/ ١٣٢٦).

(٣) رقم (٢٥٨٦٥).

٢) قال ابن أبي شيبية<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الوهاب الثقفي عن شعيب بن الحباب قال: كنت مع علي بن عبد الله البارقي، فمر علينا يهودي أو نصراني عليه كارة من طعام، فسلم عليه علي، فقال شعيب: فقلت: إنه يهودي أو نصراني! فقرأ علي آخر سورة الزخرف: ﴿وَقِيلَهُ يَا رَبِّ إِنِّي هَلُؤْلَاءُ قَوْمٌ لَا يُمُونُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩].

٣) قال ابن أبي شيبية<sup>(٢)</sup>: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا المسعودي عن عون بن عبد الله قال: سأل محمد بن كعب عمر بن عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام فقال: (نرد عليهم ولا نبدؤهم)، فقلت: وكيف تقول أنت؟ قال: (ما أرى بأساً أن نبدأهم)، قلت: لم؟ قال: لقول الله: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

٤) قال ابن أبي شيبية<sup>(٣)</sup>: حدثنا جرير عن منصور عن إبراهيم النخعي قال: (إذا كتبت إلى اليهودي والنصراني في الحاجة فابدأ بالسلام)، وقال مجاهد: (اكتب: السلام على من اتبع الهدى)، قلت: الأمر واسع تقول هذا أو هذا بحسب الحال والمصلحة، وقد قال الأوزاعي: (إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون)<sup>(٤)</sup>.

(١) رقم (٢٥٨٦٧)، وإسناده صحيح.

(٢) رقم (٢٥٧٥٠)، ورجاله ثقات إلا المسعودي صدوق اختلط قبل موته، وسمع منه يزيد بن هارون في آخر عمره بعد تغير حفظه، فالإسناد فيه ضعف يسير.

(٣) رقم (٢٥٧٤٩).

(٤) يُنظر: زاد المعاد (٢/ ٣٨٨).

٥ قال ابن أبي شيبة<sup>(١)</sup>: حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد الألهاني وشرحبيل بن مسلم عن أبي أمارة الباهلي  $\eta$  أنه كان لا يمر بمسلم، ولا يهودي، ولا نصراني، إلا بدأه بالسلام. ورواه البيهقي في شعب الإيمان<sup>(٢)</sup> عن محمد بن زياد قال: كنت آخذ بيد أبي أمارة فأنصرف معه إلى بيته، فلا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا قال: سلام عليكم، سلام عليكم، سلام عليكم، حتى إذا انتهى إلى باب داره التفت إلينا، ثم قال: (يا بني أخي، أمرنا نبينا  $\gamma$  أن نُفشي السلام)، قال البيهقي بعد روايته: "قال الإمام أحمد: السلام على النصراني رأي من أبي أمارة، وقد روينا عن النبي  $\gamma$  أنه نهى عن ابتدائهم بالسلام". قلت: الإمام أحمد وأكثر الفقهاء ينهون عن ابتداء الكافر بالسلام للحديث الوارد في النهي عن ابتدائهم بالسلام، وهذا من تعظيمهم للسنة النبوية وعدم مخالفتهم لها بالرأي، ولكن قد علمت من سبب ورود الحديث أن النهي وارد في سبب خاص عندما ذهب النبي  $\gamma$  لمحاصرة اليهود، فنهى أصحابه أن يسلموا عليهم لأنه يريد أن يحاربهم، فإن سلم عليهم أحد من أصحابه فسيكون ذلك أمناً لهم، وقد أشار إلى ذلك إسحاق بن راهويه وابن تيمية كما تقدم، وقد ذهب إلى جواز ابتداء الكافر غير الحربي بالسلام غير واحد من الصحابة، قال ابن عبد البر: "روي عن جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أنهم كانوا يبدعون بالسلام كل من لقوه من مسلم أو ذمي، ... روى الوليد بن مسلم عن عروة بن رويم

(١) رقم (٢٥٧٥١) وسنده صحيح.

(٢) رقم (٨٣٧٨).

قال: رأيت أبا أمامة الباهلي يُسَلِّم على كل من لقي من مسلم وذمي ويقول: هي تحية لأهل ملتنا، وأمان لأهل ذمتنا، واسم من أسماء الله نُفْشِيهِ بَيْنَنَا" (١).

٦ قال ابن أبي شيبه (٢): حدثنا إسماعيل بن عياش عن ابن عجلان: أن عبد الله، وأبا الدرداء، وفضالة بن عُبيد كانوا يبدعون أهل الشرك بالسلام.

٧ روى البخاري في الأدب المفرد (٣) عن أبي عثمان النهدي قال: كتب أبو موسى الأشعري إلى رهبان يُسَلِّم عليه في كتابه، فقيل له: أتُسَلِّم عليه وهو كافر؟! قال: (إنه كتب إليّ فسَلِّم عليّ، فرددت عليه).

**مسألة مهمة:** الكافر إذا سلّم سلامًا واضحًا وقال: السلام عليكم، يُرد عليه بالمثل: وعليك السلام، ولا يُقال له: وعليك فقط، لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، وهذا هو الذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة، والله يأمر بالعدل والإحسان، وإنما نقول لهم: وعليكم، إذا تأكدنا أنهم قالوا لنا: السام عليكم (٤).

قال الألباني: "إذا قالوا: السلام عليك، يُرد عليهم بالمثل: وعليك السلام، ويؤيد أن الآية على عمومها أمران:

الأول: ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٠٧) والسياق له وابن جرير الطبري في التفسير (١٠٠٣٩) من طريقين عن سماك عن عكرمة

(١) بهجة المجالس (ص: ١٦٠).

(٢) رقم (٢٥٧٥٢).

(٣) رقم (١١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٤١).

(٤) يُنظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/٤٢٥).

عن ابن عباس قال: (ردوا السلام على من كان يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. قلت [القائل الألباني]: وسنده صحيح لولا أنه من رواية سيماك عن عكرمة، وروايته عنه خاصة مضطربة، ولعل ذلك إذا كانت مرفوعة، وهذه موقوفة كما ترى، ويقويها ما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك. وفرعون قد مات) أخرجه البخاري في أديه (١١٣)، وسنده صحيح على شرط مسلم.

والآخر: قول الله ﷻ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] فهذه الآية صريحة بالأمر بالإحسان إلى الكفار المواطنين الذين يسالمون المؤمنين ولا يؤذونهم، والعدل معهم، ومما لا ريب فيه أن أحدهم إذا سلم قائلًا بصراحة: السلام عليكم، فرددناه عليه باقتضاب: وعليك! أنه ليس من العدل في شيء بله البر؛ لأننا في هذه الحالة نسوي بينه وبين من قد يقول منهم: السام عليكم، وهذا ظلم ظاهر، والله أعلم" (١).

مسألة: هل يجوز عند السلام على الكافر ابتداءً أو ردًا أن تكمل له التحية فنقول: ... ورحمة الله وبركاته، أو يُكتفى بلفظ السلام فقط من غير أن ندعو له بالرحمة والبركة؟

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٣٢٢)، ويُنظر: صحيح الأدب المفرد للألباني (ص: ٤٢٥).

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية<sup>(١)</sup>: "الذين جَوَّزوا ابتداءهم بالسلام صرحوا بالاختصار على: السلام عليك دون الجمع، ودون أن يقول: ورحمة الله".

قلت: تقدّم الأثر الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن زياد قال: كنت أخذ بيد أبي أمامة فأنصرف معه إلى بيته، فلا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا قال: سلام عليكم، ففيه الرد عليهم بالجمع (سلام عليكم)، لكن رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة<sup>(٢)</sup> بلفظ: (إلا سلم عليهم)، والله أعلم.

وقد ورد حديث صحيح فيه أنّ الدعاء بالرحمة خاص بالمسلمين، فعن أبي موسى الأشعري  $\eta$  قال: كانت اليهود يتعاطسون عند النبي  $\gamma$  رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول لهم: «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصَلِّحُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»<sup>(٣)</sup>.

قال المباركفوري في شرح هذا الحديث: "لا يقول لهم: يرحمكم الله؛ لأنّ الرحمة مختصة بالمؤمنين، بل يدعو لهم بما يصلح بهم من الهداية والتوفيق والإيمان"<sup>(٤)</sup>.

(١) (١٨٦ / ١١).

(٢) رقم (٢١٦).

(٣) رواه أحمد (١٩٥٨٦) والترمذي (٢٧٣٩) وأبو داود (٥٠٣٨) وصححه الألباني والأرنؤوط.

(٤) تحفة الأحوذى للمباركفوري (١٠ / ٨). ويُنظر: الآداب الشرعية لابن مفلح (٣٣٦ / ٢)، فتح الباري لابن حجر (٦٠٤ / ١٠)، الشرح الممتع لابن عثيمين (٣٠٩ / ١٤).

وجاء في فتاوى الشبكة الإسلامية<sup>(١)</sup>: "الراجح مشروعية تشميت الكافر العاطس إذا حمد، ولكن يُدعى له بالهداية، ولا يُدعى له بالرحمة".

قلت: أجمع العلماء على أن الوالدين إذا ماتا كافرين لا يجوز لولدهما الاستغفار لهما بعد موتهما<sup>(٢)</sup>.

ودليل هذا الإجماع قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤].

وقد اختلف المفسرون في قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤] هل هذا الدعاء بالرحمة خاص بالوالدين المسلمين دون الكافرين أو هو عام لكل والدين وإن كانا كافرين في حال حياتهما؟ فذهب إمام المفسرين ابن جرير الطبري إلى أن هذا الدعاء بالرحمة خاص بالوالدين المسلمين دون الكافرين<sup>(٣)</sup>، وممن رجع هذا القول ابن أبي زمنين، قال: "﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤] هذا إذا كانا مسلمين، وإذا كانا كافرين فلا تقل: رب ارحمهما"<sup>(٤)</sup>.

(١) (١ / ٥٢٢)، بتزقيم الشاملة).

(٢) يُنظر: الثمر الداني للآبي الأزهري (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: تفسير ابن جرير (١٤ / ٥٥٥).

(٤) تفسير ابن أبي زمنين (٣ / ١٧).

وذهب البيضاوي إلى أن الدعاء بالرحمة عام لكل والدَيْن وإن كانا  
كافرَيْن (١).

وممن رجح هذا القول ابن عجيبة وابن باديس، قال ابن باديس: "يدعو  
لهما هكذا في حياتهما وبعد مماتهما، أما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة  
سواء كانا مسلمين أم كافرين، ورحمة الكافرين بهدايتهما إلى الإسلام، وأما  
بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما إلا إذا ماتا مسلمين" (٢).

**والخلاصة:** أنه لا يثبت حديث مطلق في النهي عن ابتداء الكافر غير  
الحربي بالسلام، بل ثبت أن النهي وارد لسبب خاص، فالراجح أنه يجوز  
للمسلم أن يبتدئ الكافر غير المحارب بالسلام، ومن باب أولى أن يرد v إذا  
سَلَّم، والأفضل أن يكون السلام على الكافر الواحد بلفظ الإفراد دون الجمع،  
وأن يقتصر على لفظ السلام دون ذكر الرحمة، والله أعلم.

(١) يُنظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٢٥٢).

(٢) آثار ابن باديس (١/ ٢٢٨). ويُنظر: البحر المديد لابن عجيبة (٣/ ١٩٣).

## (٣٠) دعوة الكافرين بالقرآن الكريم

أرسل الله رسوله محمداً ﷺ بالقرآن العظيم ليدعو به جميع الناس، وليخرجهم به من الظلمات إلى النور بإذن الله، فهو تذكرة وموعظة من الله للعالمين، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وقال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال الله تعالى مخاطباً جميع الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، فمن آمن بالقرآن اهتدى، ورحمه الله في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن القرآن ضل، واستحق عذاب الله في الدنيا والآخرة، وأظلم الناس من أعرض عن آيات القرآن، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة: ٢٢].

وقد كان منهج النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في دعوة الكافرين أن يبينوا لهم كلام الله، سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب من اليهود والنصارى، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۝٧٢﴾ [الحج: ٧٢]، وفي القرآن آيات كثيرة فيها دعوة اليهود والنصارى إلى الهدى، وترغيبهم في الإسلام، وتحذيرهم من الإصرار على الباطل الذي هم فيه.

فدعوة الكافرين بالقرآن الكريم هي الأصل، فإن فيه من توضيح الحق، وإبطال الباطل، وذكر الأدلة العقلية، والمواظب العظيمة ما فيه كفاية لكل عاقل، ولا بأس بدعوة الكافرين بأدلة عقلية أخرى غير مذكورة في القرآن، أو كشف ضلالتهم بطرق أخرى مناسبة، لكن مع الاعتماد على القرآن في دعوتهم، فقد أمر الله رسوله ﷺ وهو في مكة أن يجاهد الكافرين بالقرآن الكريم، فكان يجادلهم بالقرآن مع كونهم يُكذِّبون بالقرآن، كما قال تعالى:

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو **K** أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>(١)</sup>، فمن لم يهتد بالقرآن وتكبر عن اتباعه فلن يهتدي بغيره، كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فِئَايَ حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الحاثية: ٦].

فمِن تعظيم القرآن ومعرفة قدره وتأثيره وبركته أن يكون هو الأصل في دعوة الكافرين، فهو أعظم ما يبين لهم الحق، وأعظم ما يبين باطلهم، سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب، وسواء كانوا كفارًا أصليين أو مرتدين أو ملحدين، وإن كانوا لا يعرفون العربية فيترجم لهم معاني كتاب الله بلغتهم، وقد أرسل النبي ﷺ إلى قيصر ملك الروم رسالة يدعوها فيها إلى الإسلام، وكان فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

دُونَ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، فترجم المترجم لقيصر معنى هذه الآية بلغته، وكاد قيصر أن يُسلم، إلا أنه ضنَّ بملكه، كما ثبت ذلك في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

وإنَّ من الخطأ في الدعوة إلى الله أن يجادل المسلم الكافرين أو الملحدين من غير أن يدعوهم إلى القرآن الكريم، ويبقى معهم في أخذٍ وردٍ في بيان كلامهم الباطل الذي يلغون به حتى لا يسمعو القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، فمن الحكمة أن يعتمد الداعية على القرآن في دعوة الكافرين إلى الحق، وبيان ضلالاتهم، وأن يدعوهم إلى الإيمان بكتاب الله وتعظيمه واتباعه، ويقرأ عليهم بعض الآيات المناسبة لحالهم وضلالهم، ويفسرها لهم، فتأثير القرآن عظيم جداً، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وقد أخبر الله عن الكافرين سواء كانوا أصليين أو مرتدين أنهم يستكبرون عن اتباع القرآن، ويجادلون بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلْمِيمِ ﴿٧٧﴾﴾ [لقمان: ٦-٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨٨﴾ ثَانِي عَظْفِهِ﴾

(١) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾  
[الحج: ٨-٩].

فعلى الداعية إلى الله أن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، والتي هي أحسن تشمل الأسلوب الأحسن في المجادلة، وتشمل الاعتماد على القرآن، فهو أحسن الحديث، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وعلى الداعية إلى الله أن يكون حكيماً، فإن وجد المبطلين بعد أن أبلغهم آيات الله مصرين على باطلهم فليعرض عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٢٩] ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴿٣٠﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]، وينبغي أن يقول لهم حينئذ ما علم الله رسوله في قوله: ﴿وَإِن جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٦٨] اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ [الحج: ٦٨-٦٩]، وقال سبحانه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

هذا، ولا يجوز الجلوس مع المستهزئين بآيات الله، ولو لمناظرتهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِتَّكُمُ إِذَا مَتَّهَمُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

ومن الحكمة الإعراض عن سماع اللغو الذي يهذي به الكفار والمرتون والملحدون، وعدم مجاراتهم في الجدل على كلامهم الباطل الذي يريدون أن يردوا به الحق، كما قال تعالى: ﴿وَيَجِدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنزِلُوا هُزُولًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ [الكهف: ٥٦-٥٧]، وقد أثنى الله على المعرضين عن سماع الباطل وجدال المبطلين الظالمين فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَّا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٥-٥٦].

### (٣١) لا إكراه في الدين

الإسلام لا يُكره أحدًا على أن يعتنق الإسلام، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَقَانَتْ نُكْرَهُ النَّاسِ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٩٩] [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكَرْنَا نَمَّا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ [١١] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، فمن أبى الدخول في الإسلام، وأراد البقاء تحت حماية المسلمين أو في دولتهم؛ فله ذلك، على أن يدفع الجزية وهو صاغر جزاءً استكباره عن الدخول في دين الله الذي خلقه، وأمره أن يؤمن به وكتبه ورسله، وأمره أن يشكره على نعمه، وأن يلتزم شريعته، وويلٌ له من الله يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ وَلَقِائِهِ أُولَٰئِكَ يَسُؤُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

عن ابن عباس ك قال: (كانت المرأة تكون مقلاتًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ب: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] (١)."

(١) رواه أبو داود (١٧٧٣)، قال أبو داود: "المقلات: التي لا يعيش لها ولد".

فلا يصح الإسلام إلا عن رغبةٍ وقناعةٍ بلا إكراه، ولو أسلم إنسانٌ ظاهرًا بالإكراه فإنَّه في الحقيقة غير مسلم، ويكون من المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر.

والإسلام دين يوافق العقل والفطرة، فهو عبادة لله وحده الذي خلق كل شيء، وتصديق بجميع كتبه ورسوله، فقد تبين الحق من الباطل فلا إكراه في الدخول في الإسلام.

عن محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، فذكره وفي آخره: (وأنت من أسلم من يهودي أو نصراني إسلامًا خالصًا من نفسه فدان دين الإسلام فإنَّه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على نصرانية أو يهودية فإنَّه لا يُفتن عنها)<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٦٧٤)، ورواه البيهقي (١٨٦٧٥) من طريق آخر عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة، ورواه البيهقي (١٨٦٧٦) من طريق ثالث عن عبد العزيز بن عفير بن أبي زرعة بن سيف بن ذي يزن عن أبيه عن جده أبي زرعة بن سيف بن ذي يزن، ورواه مجاهيل، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/٤٧٩) من طريق رابع عن عتيق بن يعقوب عن عبد الملك بن أبي بكر بن محمد عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم، ورواه ابن زنجويه في كتاب الأموال (١٠٨) بإسناد صحيح عن الحسن البصري قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن: (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، ودعا دعوتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، ومن أسلم من يهودي أو نصراني، فله ما للمسلم، وعليه ما على المسلم، ومن أبي فعليه الجزية)، وهو مرسل، ومجموع هذه الطرق يدل على أنَّ لهذا الحديث أصلًا، والله أعلم.

وهذه أقوال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابن جزي: "﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] المعنى: أن دين الإسلام في غاية الوضوح وظهور البراهين على صحته، بحيث لا يحتاج أن يُكْرَه أحدٌ على الدخول فيه، بل يدخل فيه كل ذي عقل سليم من تلقاء نفسه، دون إكراه، ويدل على ذلك قوله: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي: قد تبين أن الإسلام رشد، وأن الكفر غي، فلا يفتقر بعد بيانه إلى إكراه" (١).

وقال ابن كثير: "يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي: لا تُكْرَهُوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلالة وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكْرَه أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا" (٢).

وقال السعدي: "يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمرٍ خفيةٍ أعلامه، غامضةٍ آثاره، أو أمرٍ في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد،

(١) تفسير ابن جزي (١ / ١٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٦٨٢).

فاسد الإرادة، خبيث النفس، يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحًا، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أنّ حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر<sup>(١)</sup>.

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة - ٢ (١ / ٢٤-٢٥): "معنى هذه الآية: أنّه لأجل كمال دين الإسلام في براهينه وأدلتها واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد؛ لأجل ذلك كله فهو لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأنّ الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، أما دين الإسلام فمن جاءه ثم رده ولم يقبله، فإنّه لعناده واستكباره عن الحق، فإنّه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا رده ولم يقبله"<sup>(٢)</sup>.

وبهذا تبين أنّه لا يجوز إكراه أحدٍ على الدخول في دين الإسلام، حتى في حال قوة المسلمين وغزوهم بلاد الكافرين لتبليغهم الدين لا يُكرهون أحدًا على الدخول في الإسلام، فإما أن يُسلم الكافر طواعية عن قناعة ورغبة، وإما أن يبقى على دينه مع دفع الجزية، ولو كان الكافر يُقتل حتى يُسلم لكان

(١) تفسير السعدي (ص: ١١١).

(٢) رواه أبو داود (١٧٧٣) بإسناد صحيح، قال أبو داود: "المُفْلَأْتُ: التي لا يعيش لها ولد".

هذا أعظم الإكراه على الدين، ولا فائدة في إسلام المكره، فإنه لا يصح الإسلام إلا عن رغبة وقناعة وتصديق، والنبى ﷺ لم يُكره أحدًا على الإسلام لا رجلًا ولا امرأة، ولما فتح مكة من على كفار قريش، ولم يُكرههم على الإسلام، بل أطلقهم بعد القدرة عليهم، وكان النبى ﷺ لا يقاتل من لا يقاتله، وكانت سيرته أن من هادنه من الكفار لا يقاتله، وهذا متواتر من سيرته.

قال ابن القيم: "لما بعث الله رسوله ﷺ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر أهل الأديان طوعًا واختيارًا، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه، امتثالًا لأمر ربه ﷻ حيث يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تُكرهوا أحدًا على الدين، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام. والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يُكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يُعطوا الجزية، ... ومن تأمل سيرة النبى ﷺ تبين له أنه لم يُكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته، لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]. فلما قديم المدينة صالح اليهود وأقرهم على

دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدعوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقاتل بعضهم، وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدعواهم بقتاله ونقض عهده، فحينئذ غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم الخندق، ويوم بدر أيضاً هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم. والمقصود أنه  $\gamma$  لم يُكرِه أحدًا على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى، وأنه رسول الله حقاً" (١).

ولا يعني ترك إكراه الكافرين على الدخول في الإسلام عدم مشروعية جهاد الغزو في حال قوة المسلمين، فإنَّ الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٩-٤٠].

قال المفسرون: يأمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يصدون الناس عن دين الله، حتى لا يكون في الأرض شرك يُفتن بسببه الناس، ويكون الدين كله خالصاً لله وحده، فإن انتهى الكفار عن الكفر وتابوا إلى الله، وأصلحوا أعمالهم، فإنَّ الله بما يعملون بصير. وإن أعرض الكفار عن الإيمان والعمل الصالح، وأصرروا على الكفر ومحاربة المسلمين، وصد الناس عن الإسلام، فليوقن المؤمنون أنَّ الله وليهم وناصرهم، هو سبحانه

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (١/ ٢٣٧، ٢٣٨).

نعم المعين لأوليائه المؤمنين المتقين، ونعم الناصر لهم على أعدائهم الكافرين<sup>(١)</sup>.

وفي هاتين الآيتين من سورة الأنفال هدايات كثيرة، أذكر بعضاً منها:

(١) في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] إثبات جهاد الغزو المسمى جهاد الطلب في حال قوة المسلمين، والرد على من ادّعى أن الجهاد في الإسلام جهاد دفع فقط<sup>(٢)</sup>.

(٢) مقصود الجهاد في الإسلام هو إعلاء دين الله وشرعه، ودفع شر الكفار عن المسلمين، وقتال الذين يصدون الناس عن الدخول في الدين، ويظلمون المستضعفين، وليس القصد من الجهاد أطماعاً اقتصادية، ولا توسعات سياسية استعبادية.

(٣) في هذه الآية أن الجهاد قاطع للفتن، ولا تُدفع الفتن عن أمة الإسلام إلا بالجهاد في سبيل الله، وترك الجهاد سبب لوقوع الفتن بين المسلمين.

(١) يُنظر: تفسير ابن جرير (١١ / ١٧٨، ١٨٣)، تفسير ابن كثير (٤ / ٥٧)، تفسير السعدي (ص: ٣٢١)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٩ / ٣٤٧).

(٢) يُنظر: البسيط للواحدي (١٠ / ١٥٤)، الفروسية لابن القيم (١ / ١٨٧ - ١٨٩)، فتاوى اللجنة الدائمة - ١ (١٣ / ١٢، ١٤)، شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين (ص: ٦٦٦)، أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان (ص: ٢٧٥ - ٢٧٧).

- ٤) كل دين عدا دين الإسلام فهو فتنة في الأرض، فإذا لم يكن الدين كله لله فالفتننة في الأرض موجودة، والكفر والشرك بالله فتنة عظيمة<sup>(١)</sup>.
- ٥) في الآية دليل على مشروعية ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، ففي القتال مفسد دنيوية بالقتل والجراح والأسر والتخريب والتهجير، ولكن هذه المفسد الدنيوية تعترف في دفع المفسدة العظمى، وهي فتنة الناس بالكفر بالله، قال الله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].
- ٦) تدل الآية على وجوب محاربة جميع أشكال الفتن التي تواجه الدعوة الإسلامية، وعلى رأسها صد الناس عن الإسلام، والدعوة إلى الشرك والإلحاد، وبث الشبهات، ونشر البدع والخرافات، فكل هذه الفتن تصرف الناس عن دين الله، والواجب مع الاستطاعة أن يقاتل المسلمون جميع الكفار حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه<sup>(٢)</sup>.
- ٧) تدل الآية على الدين كله لله، ولا يجوز أن يكون بعض الدين لله وبعضه لغير الله، فمن أظهر الإسلام وامتنع عن بعض شرائع الدين يجب قتاله حتى يكون الدين كله لله.
- ٨) في الآية الحث على الاجتهاد في إقامة الدين، والدعوة إلى الله بما أمكن من الأسباب، ورجاء نصر الله الموعود، وعدم الالتفات إلى المخلوقين.

(١) يُنظر: تفسير ابن جرير (١١ / ١٧٨ - ١٨٠)، منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥ / ٢٥٥)، تيسير العزيز الحميد لآل الشيخ (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: السيرة النبوية لابن هشام (١ / ٤٦٨)، تفسير ابن كثير (٤ / ٥٦)، تفسير النيسابوري (٣ / ٣٩٨).

٩) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال: ٤٠] بشارة بأن الإسلام له قابلية الصعود إلى قمة الأديان المختلفة، فهو دين الله سبحانه الذي رضي له عباده، ومن حاربه فهو المغلوب، والله ناصر دينه وعباده المؤمنين، ولا يضرهم عداوة الكافرين إن كان الله مولاهم وناصرهم.

## (٣٢) الرِّدَّةُ عن الإسلام وحكم المُرتد

الرِّدَّةُ عن الإسلام تكون بخمسة أشياء:

بالاعتقاد أو الشك أو القول أو الفعل أو ترك الفعل، سواء كان ذلك اعتقادًا أو عنادًا مع التصديق أو استهزاء ولعبًا<sup>(١)</sup>.

**مثال الردة بالاعتقاد:** أن يُنكر وجود الخالق أو يعتقد كذب القرآن أو يُكذِّب الرسول محمدًا ﷺ أو يُكذِّب بالبعث بعد الموت أو يعتقد صحة دين الكفار من اليهود والنصارى والبوذيين وغيرهم أو يُنكر وجوب الصلوات الخمس أو يكره شيئًا من دين الله وإن عمل به أو يعتقد عدم وجوب الحكم بشرع الله، ومن الأدلة عليه قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١٦)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

(١) يُنظر: الشريعة للأجري (١/ ٥٥٠ - ٦٥٣)، الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٧٦٣ - ٨٢٦)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للفاضل عياض (٢/ ٢١١ - ٣٠٤)، تحفة الفقهاء للسمرقندي الحنفي (٧/ ١٣٤)، المغني لابن قدامة الحنبلي (٨/ ٥٤٠)، شرح الخرشي المالكي (٨/ ٦٢)، حاشية الباجوري الشافعي (٢/ ٣٢٨)، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة (٢/ ٧٠٧، ٧٠٨)، العقيدة الصحيحة وما يضادها ونواقض الإسلام لابن باز (ص: ٣٦ - ٤٠)، نواقض الإيمان الاعتقادية للوهبي (ص: ٢٣٨ - ٣٥٤)، نواقض الإيمان القولية والعملية لعبد العزيز آل عبد اللطيف (ص: ٤٩، ٢٦٢)، موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي (١٠/ ٥٠١، ٥٠٢).

﴿١٧﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧]، وقوله β: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿٩﴾ [محمد: ٩].

**مثال الردة بالشك:** أن يشك في وجود الخالق أو صحة القرآن أو صدق النبي γ أو يشك في البعث بعد الموت، ومن الأدلة عليه قوله سبحانه حاكياً قول صاحب البستانين حين شك في قيام الساعة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ ﴿٣٧﴾ [الكهف: ٣٦-٣٧]، وقال β: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾ [سبا: ٥٤].

**مثال الردة بالقول:** أن يشرك بالله بدعاء غيره أو يستهزئ بالله ورسوله وآياته أو يسب الله ورسوله أو يُحِلُّ شيئاً محرماً بالنص الصحيح الصريح والإجماع القاطع أو يُحرِّم شيئاً حلالاً بالنص والإجماع، حتى لو كان إنكاره بقوله عناداً أو استهزاءً مع تصديقه بالحق، ومن الأدلة عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦]، وقوله β: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ﴿١٦﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله φ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

**مثال الردة بالفعل:** أن يُلقي المصحف الشريف في القاذورات أو يسجد لصنم أو يستعمل السحر باستخدام الشياطين أو يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله بالكفر والاستهزاء مع عدم الإنكار عليهم، ومن الأدلة عليه قوله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْتَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِتَّكُمُ إِذَا مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

**مثال الردة بالتارك:** أن يمتنع عن الصلاة، حتى وإن كان مصدقاً بالله واليوم الآخر، كما امتنع إبليس عن امتثال أمر الله بالسجود لآدم فكفر، وفي الحديث الصحيح عن بُريدة  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»<sup>(١)</sup>.

ولا يُكفر إلا من كفره الله ورسوله كمن كذب الله أو نبيه  $\gamma$  أو استهزأ بهما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا اللَّهُ وَعَآيَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

أو عاند ولم يذعن لله ورسوله، أو أنكر حكماً قطعياً من أحكام الإسلام أو كذب على الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: ٦٨].

(١) رواه الترمذي (٢٦٢١)، وصححه الترمذي وابن حبان والألباني والأرناؤوط.

أو صرف عبادة لغير الله؛ قال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وسواء كانت عبادة المشرك خالصة لغير الله، أو جعل الألهة واسطة، فكله كفر، قال الله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنْعِنُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

أو جعل ما هو الله وحده لغير الله، كمن يجعل حق الله في التشريع والحكم لغيره، فالتشريع والحكم سماه الله عبادة فقال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

أو ادعى لغير الله علم الغيب أو زعم أن الخلق والتصرف في الكون لغير الله سبحانه.

أو اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فيحب الكافرين وينصرهم على المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

ومن سوغ لنفسه الخروج عن حكم الله وشرعه فهو كافر بالله، مستحق للعقوبة في الدنيا والآخرة؛ لأنه لم يرض بالله رباً، وهو الذي خلقه لعبادته والإقرار بطاعته، والدخول في شريعته، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أَلْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

والدخول في الإسلام واجب، والخروج منه ردة توجب القتل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]، وعن ابن عباس **ك** أن النبي **γ** قال: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» (١) سواء كان رجلاً أو امرأة، فيستتاب فإن تاب وإلا قُتل، والمقصود بالاستتابة إعطاؤه فرصة ليراجع نفسه عسى أن تزول عنه الشبهة، وتقوم عليه الحجة، ويُكَلَّفُ العلماء بالرد عما في نفسه من شبهة حتى تقوم عليه الحجة، فإن كان يطلب الحق بإخلاص فسرعان ما سيرجع إلى دين الله الذي يوافق العقل والفطرة، وإن كانت قد فسدت فطرته، وأبى إلا إظهار كفره وردته؛ فقتله هو عين الحكمة والمصلحة.

فالشريعة الإسلامية تعاقب على الردة بالقتل؛ لأن الردة تقع ضد الدين الإسلامي الذي عليه يقوم النظام الاجتماعي للجماعة المسلمة، فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى زعزعة هذا النظام، ومن ثمَّ عوقب عليها بأشد العقوبات استئصالاً للمجرم من المجتمع، وحماية للنظام الاجتماعي من ناحية، ومنعاً للجريمة، وزجرًا عنها من ناحية أخرى.

وأكثر الدول اليوم تحمي نظامها الاجتماعي بأشد العقوبات على من يخرج على نظامها أو يحاول هدمه أو إضعافه، وأول العقوبات التي تفرضها القوانين الوضعية لحماية النظام الاجتماعي هي عقوبة القتل، فهي تعاقب

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

على الإخلال بالنظام الاجتماعي بنفس العقوبة التي وضعتها الشريعة لحماية النظام الاجتماعي الإسلامي.

وكل نظام في العالم تنص قوانينه على أن الخارج عن النظام العام له عقوبة القتل لا غير فيما يسمونه الخيانة العظمى، وهكذا فإن الإسلام لا يبيح للمسلمين الخروج من الإسلام؛ لأن هذا يعتبر خذلاً لدين الله، والذي يرتد عن الإسلام ويجهر برده يكون عدواً للإسلام والمسلمين، فهو يعلن برده حرباً شعواء على الإسلام والمسلمين، أما من لم يجهر برده فإنه منافق، فيعامل معاملة المسلمين، وحسابه على الله.

والردة ليست مجرد موقف عقلي، بل هي أيضاً تغييرٌ للولاء، وتبديلٌ للهوية، وتحويلٌ للانتماء، وهي أيضاً كفرٌ بالله، وكفرٌ برسول الله، وكفرٌ بكتاب الله بعد أن أنعم الله على هذا المرتد بالإيمان بالله ورسوله وكتابه، فالمرتد باع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، وخلع نفسه من أمة الإسلام التي كان عضواً في جسدها، وانتقل بعقله وإرادته إلى خصومها، فاشترى الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، وقدم الباطل على الحق، والكفر على الإيمان.

وإنّ التهاون في عقوبة المرتد المعلن لرده يعرض المجتمع كله للخطر، ويفتح عليه باب فتنة لا يعلم عواقبها إلا الله، فلا يلبث المرتد أن يُغرر بغيره من أقاربه وأصدقائه ومن حوله من الضعفاء والبسطاء من الناس، وتتكون جماعة تستبجح لنفسها الاستعانة بأعداء المسلمين، وبذلك تقع الأمة في صراع وتمزق فكري واجتماعي وسياسي، وقد يتطور إلى صراع دموي وحرب

أهلية، فمن حكمة الشريعة أن أمرت بقتل المرتد صوتاً للمجتمع من شره، وردعاً للمنافقين من إظهار ما في قلوبهم من الكفر.

وقتل المرتد خيرٌ لأهله وأقاربه ليسلموا من شره؛ لكونهم أول من يتأثر به، ويتعرض لدعوته، وكذلك قتله خيرٌ له نفسه؛ فإنَّ بقاءه يضل الناس يزيده شرّاً إلى شره، ويزيده في الآخرة عذاباً إلى عذابه.



### (٣٣) كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة

البدعة لغة: هي الاختراع على غير مثال سابق، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: مخترعهما.

وشرعاً: هي ما خالف الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات المحدثّة التي يقصد بها الإنسان التقرب إلى الله، ولم يدل عليها دليل شرعي (١).

والبدع والمحدثات في الدين خطورتها عظيمة، وآثارها سيئة على الفرد والمجتمع وعلى الدين كله، فهي إحداث في الدين، وقول على الله بغير علم، وشرع في الدين بما لم يأذن به الله، والبدعة سبب في عدم قبول العمل، وتفريق للأمة، والمبتدع الذي ابتدأ البدعة يحمل وزره ووزر من تبعه في بدعته، والبدعة سبب في الحرمان من الشرب من حوض النبي ﷺ، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد الأنصاري وأبي سعيد الخدري **ك** أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَيَقَالُ:

(١) يُنظر: التمسك بالسنن والتحذير من البدع للذهبي (ص: ٩٦ - ١٠٥)، الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩ - ٦٠)، التعريفات للجرجاني (ص: ٤٣)، حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (١/ ٢٣٩ - ٣٦٦)، البدع الحولية للتويجري (ص: ١٨ - ٢٧)، قواعد معرفة البدع للجزيري (ص: ١٨ - ٢٤).

إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُمَْا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سَحَقًا سَحَقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»<sup>(١)</sup>.  
والفرط: الذي يسبق إلى الماء، ومعنى سَحَقًا: أي بُعَدًا.

ومن أسباب انتشار البدع: عدم تعلم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والجهل بما كان عليه السلف الصالح، والتعلق بالشبهات الفلسفية، والخيالات الظنية، والاعتماد على العقل المجرد، ومجالسة أهل الأهواء، والاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي يستدل بها المبتدعة على بدعهم، والتشبه بالكفار، وتقليد أهل الضلال، والتعصب الأعمى.

وكل البدع في الدين محرمة ومردودة على أصحابها من غير فرق بين بدعة وأخرى، وإن كانت تتفاوت درجات التحريم بحسب نوع البدعة، وقد كان النبي ﷺ يقول في خطبه: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»<sup>(٢)</sup>، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَدَّثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(٣)</sup>، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وأهل السنة هم أهل الجماعة، وهم المتبعون للقرآن والسنة ظاهرًا وباطنًا بقدر الاستطاعة، وهم الطائفة المنصورة دون غيرهم من سائر فرق الأمة، وهم الفرقة الناجية في الآخرة برحمة الله وفضله، وكما أَنَّ هذه الأمة

(١) رواه البخاري (٦٥٨٣) ومسلم (٢٢٩٠).

(٢) رواه مسلم (٨٦٧).

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

المحمدية هي الأمة الوسط بين الملل، فإنَّ أهل السنة والجماعة وسط بين الفرق، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فأهل السنة وسطٌ في باب الأسماء والصفات بين طرفي الإفراط والتفريط وهم المعطلة والمشبهة.

وهم وسطٌ في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد بين المرجئة والوعيدية من الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم.

وهم وسطٌ في باب الإيمان بالقضاء والقدر بين الجبرية الذين يسلبون العبد اختياره ومسئوليته عن أفعاله، وبين القدرية الذين يجوزون أن يقع في ملك الله ما لا يريد به ويقدره.

وهم وسطٌ في الأصحاب والآل بين الرافضة والناصبية.

وهم وسطٌ في تعظيم رسول الله ﷺ والصالحين من أمته، بلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط.

ومصطلح (أهل السنة) مصطلح قديم معروف عند السلف ابتداءً من عصر الصحابة رضوان الله عليهم، والسنة في إطلاق السلف المراد بها: موافقة القرآن والسنة لا سيما في مسائل الاعتقاد، ولذلك سمّوا مصنفاً في العقيدة باسم السنة.

والطريق لمعرفة السنة هو النقل والاتباع، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [البقرة: 177].

وَرَضُوا عَنْهُ وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ  
الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن العرباض بن سارية  $\eta$  قال: صَلَّى بنا رسول الله  $\gamma$  ذات يوم، ثم  
أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب،  
فقال قائل: يا رسول الله كأنَّ هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال:  
«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإنَّ عبداً حبشياً، فإنه من يَعْشَ  
منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين  
الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور،  
فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»<sup>(١)</sup>.

وقال عبد الله بن عمر  $k$ : (من كان مُسْتَنّاً فليستنَّ بمن قد مات، أولئك  
أصحاب محمد  $\gamma$ ، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها  
تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه  $\gamma$  ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم  
وطرائفهم، فهم أصحاب محمد  $\gamma$ ، كانوا على الهدى المستقيم)<sup>(٢)</sup>.

وقال الأوزاعي: (عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء  
الرجال وإن زخرفوا لك القول)<sup>(٣)</sup>.

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه ابن حبان والألباني والأرناؤوط.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥).

(٣) رواه الأجرى في الشريعة (١٢٧).

وقال أيضاً: (اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقُل بما قالوا، وكفَّ عما كَفُّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وَسِعَهُمْ) (١).

وقال أحمد بن حنبل: (أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والافتداء بهم، وترك البدع) (٢).

وما أحسن ما قال أبو بكر بن أبي داود السجستاني:

تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ	وَلَا تَتَّكُ بِذُعَيْبٍ لَعَلَّكَ
وَيُنْ بَكْتَابِ اللَّهِ وَالسَّنَنِ الَّتِي	أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْجُو
وَدَعَّ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ	فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ أَزْكَى وَأَشْرَحُ
وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهُوْا بِدِينِهِمْ	فَتَطْعُنُ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ

ومن وقع في بدعة أو فسق متأولاً فإنه يُعَذَّرُ ولا يَأْتَمُ، فإنَّ الله الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين يقول في كتابه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وعلم الله المؤمنين هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله: ﴿قَدْ فَعَلْتُ﴾ (٣)، والخطأ نوعان: خطأ ضد الصواب، وخطأ ضد العمد، ولا إثم على من أخطأ في النوعين إن لم يتعمد المشاققة

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣١٥).

(٢) أصول السنة لأحمد بن حنبل (ص: ١٤)، ورواه أيضاً اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣١٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦).

لِلرَّسُولِ، وَلَمْ يَتَعَمَدِ اتِّبَاعَ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَنْ أَدْرَمَ جَاهِلًا جَهْلًا بَسِيطًا أَوْ مَرْكَبًا عَلَى فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ مَفْسُوقٍ مَظْنُونٍ أَوْ مَقْطُوعٍ فَإِنَّهُ يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ سِوَا مَا عَتَقَدَ الْإِبَاحَةَ أَمْ لَمْ يَعْتَقِدْ شَيْئًا، فَالْإِقْدَامُ مَعَ الْجَهْلِ يَمْنَعُ مِنَ التَّبْدِيعِ وَالتَّفْسِيقِ وَالتَّكْفِيرِ، وَقَدْ قَرَّرَ هَذَا أَهْلُ الْعِلْمِ فِي كِتَابِ أُصُولِ الْفِقْهِ (١).

فَأَهْلُ الْعِلْمِ الْمُنْصِفُونَ يَعْذَرُونَ مَنْ أَخْطَأَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَلَوْ كَانَ خَطْؤُهُ فِي مَسَائِلَ لَا يَسُوعُ فِيهَا الْاجْتِهَادَ، إِذَا كَانَ مَعْرُوفًا بِالْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ، وَكَانَ مَتَأَوَّلًا تَأْوِيلًا ظَنَّهُ سَائِعًا، مَعَ وَجُوبِ نَصْحِهِ إِنْ كَانَ حَيًّا، وَبَيَانِ خَطْئِهِ حَتَّى لَا يُتَّبَعَ فِي زَلَّتِهِ، وَهَذَا مِنْ إِنْصَافِهِمْ وَعَدْلِهِمْ حَتَّى مَعَ مَنْ وَقَعَ فِي بَدْعَةٍ أَوْ مَفْسُوقٍ، فَالْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ أَرْحَمُ النَّاسِ بِالنَّاسِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، قَالَ الْخَلَالُ فِي كِتَابِ الْعَقِيدَةِ: "وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَا يُفْسِقُ الْفُقَهَاءَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ" (٢).

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ: "الْإِبْتِدَاعُ مِنَ الْمُجْتَهِدِ لَا يَقَعُ إِلَّا فِتْنَةً، وَبِالْعَرَضِ لَا بِالذَّاتِ، وَإِنَّمَا تُسَمَّى غَلْطَةً أَوْ زَلَّةً؛ لِأَنَّ صَاحِبَهَا لَمْ يَقْصِدْ اتِّبَاعَ الْمُتَشَابِهِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ، أَيُّ: لَمْ يَتَّبِعْ هَوَاهُ، وَلَا جَعَلَهُ عَمْدَةً، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ أَدْعَنَ لَهُ وَأَقْرَبَ بِهِ" (٣).

(١) يُنظَرُ: جَمْعُ الْجَوَامِعِ لِلْسَّبْكِ بِشَرْحِ الْجَلَالِ الْمَحَلِيِّ مَعَ حَاشِيَةِ الْعَطَارِ (٢/ ١٧٨).

(٢) (ص: ١٢٠).

(٣) الْاِعْتِصَامُ (ص: ١١٤) بِتَصْرِفٍ.

وقال الذهبي: "ولو أن كلَّ مَنْ أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق - أهدرناه وبدّعناه؛ لقلَّ من يسلم من الأئمة معنا"<sup>(١)</sup>.

وقال المقبلي: "ومن المعلوم أنه ليس من الفرقة الناجية أن لا يقع منها أدنى اختلاف، فإنَّ ذلك قد كان في فضلاء الصحابة، إنما الكلام في مخالفة تُصيِّر صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها"<sup>(٢)</sup>.

وقال العز بن عبد السلام: "من فعل فعلاً يظنه قربة أو مباحاً وهو من المفسد المحرمة في نفس الأمر؛ كالحاكم إذا حكم بما يظنه حقاً بناء على الحجج الشرعية، وكالمصلي صلى على ظن أنه متطهر، أو كمن يصلي على مرتد يعتقد مسلماً، وكالشاهد يشهد بحق عرفه بناء على استصحاب بقائه فظهر كذب الظن في ذلك كله؛ فهذا خطأ معفو عنه، ويثاب فاعله على قصده دون فعله"<sup>(٣)</sup>.

وقال ابن تيمية: "إنَّ المتأوَّل الذي قصد متابعة الرسول ﷺ لا يُكفَّر ولا يُفسَّق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهورٌ عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كَفَر المخطئين فيها، وهذا القول لا يُعرف عن أحدٍ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين،

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٧٦).

(٢) العَلَم الشامخ (ص: ٤١٤).

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١ / ٢٧).

وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم" (١).

وقال ابن تيمية أيضاً في معرض رده على الأشاعرة: "ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له مساع مشكورة وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف ... وخير الأمور أوسطها ... والله يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]" (٢).

وقال أيضاً: "إذا قال المؤمن: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] يقصد كل من سبقه من قرون الأمة بالإيمان، وإن كان قد أخطأ في تأويل مخالف للسنة أو أذنب ذنباً، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العموم، وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة، فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفاراً، بل مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد كما يستحق عصاة المؤمنين" (٣).

(١) منهاج السنة (٥ / ٢٣٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢ / ١٠٢، ١٠٣) باختصار.

(٣) منهاج السنة النبوية (٥ / ٢٤٠).

وليس كل من وقع في كفر يكون كافراً، ولا كل من وقع في فسق يكون فاسقاً، ولا كل من وقع في بدعة يكون مبتدعاً؛ فالجهل مانع من التكفير والتفسيق والتبديع، قال ابن تيمية في كتابه: "فإنَّ بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنَّه لم يشرع لأُمَّته أن تدعو أحداً من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنَّه لم يشرع لأُمَّته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنَّه نهى عن كل هذه الأمور، وأنَّ ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ۷ مما يخالفه"<sup>(١)</sup>.

## (٣٤) التحذير من بدعة الإرجاء التي انتشرت بين غالب المسلمين

من أدق مسائل العقيدة مسائل الإيمان والكفر، وبعض مسائلها الحق فيها ظاهر، وبعضها خفي، وبعضها الخلاف فيها لفظي، وبعضها الخلاف فيها في مسائل فرضية لا وجود لها في الواقع، وإنما تكلف بعضهم فتصوروها في أذهانهم فرضاً مع عدم وجودها شرعاً، مثل الخلاف في إيمان شخص اعتقد الحق بقلبه، ونطق الشهادتين بلسانه، إلا أنه طوال حياته لم يعمل أي عمل صالح بجوارحه، فهذا تصور لشيء غير موجود أصلاً، فلا بد لهذا الإنسان إن كان مؤمناً أن يعمل أي عمل صالح يتقرب به إلى الله سبحانه، ولو فعل صلاةً واحدةً في بعض الأوقات، أو قول تسبيحة أو دعاء لله أو استغفار في بعض الأحوال، أو بر بالوالدين أو إحسان إلى مسكين يبتغي به الثواب من الله، أو ترك بعض الفواحش والآثام خوفاً من الله، أما تصور وجود مؤمن يدعي الإيمان بقلبه، وينطق الشهادتين، ثم يترك جنس العمل الصالح مطلقاً في جميع حياته؛ فهذا لا يمكن وجوده إلا في عقول المرجئة الذين حكموا بإيمانه!

والمرجئة هم الذين يُخرجون الأعمال الصالحة من مسمى الإيمان، فيقولون: الإيمان تصديق بالقلب، ونطق باللسان، والأعمال الصالحة ليست من الإيمان، وبعضهم غلا في الإرجاء فجعل الإيمان مجرد المعرفة فقط، وبعضهم لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه، ويجعله درجة واحدة لا يتفاضل

المؤمنون فيه، وبعضهم يتهاون بالمعاصي، ويرى أن صاحب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، وقد شنع أهل العلم على المرجئة، وبينوا بطلان مذهبهم، وأنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٦-٢٨]، فجعل الله من صفات المؤمنين الخوف من الله والتوكل عليه، وهذان عملا قلبيان، والصلاة، وهي تتضمن أعمال قلبية وقولية وعملية بالجوارح، فكل ذلك من الإيمان، وفي أول سورة المؤمنون وصف الله المؤمنين بصفات تتضمن فعل الأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة، فدل ذلك على أن الأعمال الصالحة من الإيمان، وفي حديث أبي هريرة  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  قال: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»<sup>(١)</sup>، وفي القرآن الكريم نحو سبعين آية يؤكد الله فيها على أهمية العمل الصالح، وأنه من الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وعطف الأعمال الصالحة على الإيمان لبيان أهميتها، ومثله في نفس الآية عطف إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على الأعمال الصالحة لبيان أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أهم

(١) رواه مسلم (٣٥).

الأعمال الصالحة، ولا يعني العطف أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليست من الأعمال الصالحة.

وقد أَلَّف العلماء كثيرًا من الكتب باسم كتاب الإيمان<sup>(١)</sup>، بينوا فيها أن الإيمان اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وأكدوا فيها على أن الأعمال الصالحة من الإيمان، وأن المعاصي تُنقص الإيمان، وردوا على المرجئة الذين جعلوا الإيمان: التصديق والقول فقط، وبناء على هذا قرَّر المرجئة أن مَنْ آمن بقلبه، ونطق الشهادتين بلسانه، فهو مؤمن كامل الإيمان، وإن ترك جميع الأعمال الصالحة طيلة عمره، وهذا القول الشنيع بدعة وضلالة، وللأسف الشديد فقد انتشرت بدعة الإرجاء في الأمة الإسلامية، وصار يُقرَّر الإرجاء كثير من العلماء الذين تأثروا بعلم الكلام.

ولبدعة الإرجاء آثار سيئة كثيرة في حياة المسلمين، فهذه البدعة تؤدي إلى التهاون بالعبادات، واقتراف المعاصي، والتهاون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغضاء الطرف عن سائر المنكرات المنتشرة في الأمة حتى ما يتعلق بالشرك والردة وترك الحكم بالشرعية، فإن كثيرًا من المرجئة يبررون الأعداء لمن يقع في الكفر والإلحاد، ولا يحكمون بالكفر والردة إلا على مَنْ وقع في كفر التكذيب والجحود، فقصرُوا الكفر على الكفر الاعتقادي، مع أنه معلوم عند أهل السنة أن الكفر يكون بخمسة أشياء: بالاعتقاد وبالقول وبالفعل وبالشك وبالترك، فالكفر الاعتقادي ككفر من اعتقد

(١) مثل: كتاب الإيمان للقاسم بن سلام، والإيمان لابن أبي شيبة، والإيمان للعدي، والإيمان لابن منده، وشعب الإيمان للبيهقي، والإيمان لابن تيمية.

أَنَّ غير الله يدبر الكون أو يعلم الغيب، والكفر القولي كمن دعا غير الله أو سب الله ورسوله، والكفر الفعلي كمن سجد لغير الله أو ذبح لغير الله أو بدّل شرع الله أو حكّم بالقوانين الوضعية المخالفة للشريعة، والكفر بالشك كمن يشك في البعث بعد الموت، والكفر بالترك كمن يترك الصلاة بالكلية أو يترك تحكيم شريعة الله، وقد حكم الله سبحانه بكفر إبليس ولعنه حين ترك سجدة واحدة أمره الله بها لآدم، مع كون إبليس يُصَدِّقُ أَنَّ الله حق، ويؤمن أَنَّ الله شديد العقاب، ويعلم أَنَّ الله يبعث الناس ويحاسبهم في الآخرة، ولم ينفعه تصديقه هذا لأنّه ترك العمل بما أمره الله من السجود لآدم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على أَنَّ تارك الصلاة بالكلية كافر، كما هو إجماع الصحابة.

وبعض غلاة المرجئة يتهاونون مع المرتدين والمنافقين، وصارت بدعتهم سبباً للتلاعب بالدين، وللمرجئة شبهات معروفة قد أجاب عنها أهل العلم الراسخين، قديماً وحديثاً.

ومذهب المرجئة يوافق أهواء الناس، فغالب عوام الناس عندهم إرجاء، فيتهاونون بالطاعات، ويقعون في المحرمات، من غير خوف من الله، ويقولون: الإيمان في القلب، والله غفور رحيم، ويُعَلِّبون الرجاء على الخوف، ويغفلون أَنَّ الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأَمَرْتُ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ١١-١٣]، فكل من لا يخاف عذاب الله إن عصاه فهو متأثر بالمرجئة، وقد وصف الله المؤمنين بفعل الطاعات وترك المحرمات، وأخبر

أنهم مع ذلك يخافون عذابه فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾  
وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّسْفِفُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج: ٢٣-٢٨]، فكل من يأمن عذاب الله فهو من المرجئة أو من المتأثرين ببدعة الإرجاء.

فيجب على المسلم أن يخاف من التهاون في عبادة الله، وأن يحذر أشد الحذر من فعل المعاصي الظاهرة والباطنة، ولا يتأثر بمذهب المرجئة المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقال β: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْتُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٩-١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْأِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠].

فالإيمان يتضمن التصديق بالحق، والعمل به، ولا يكفي التصديق بلا عمل، بل قد توعده الله تعالى الذين تركوا التصديق أو تركوا العمل، وجعلهم سواء في الوعيد فقال سبحانه: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٢١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢١-٢٢].

قال ابن تيمية: "التولي ليس هو التكذيب، بل هو التولي عن الطاعة؛ فإنَّ الناس عليهم أن يُصدِّقوا الرسول فيما أخبر، ويُطيعوه فيما أمر" (١).

وقال سبحانه متوعداً المجرمين المتهاونين بالصلاة، المكذبين بالحق:  
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثُ  
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٤٨-٥٠].

فهذه الآيات ونحوها تقلع الإرجاء من القلوب، وتجعل المؤمن يخاف ربه، ويتقي الله في سره وعلنه، ويعمل الأعمال الصالحة ويرجو رحمة ربه، ومن رجا رحمة الله من غير عملٍ صالح أو مع الإصرار على المعاصي والفسوق فهو مغرور.

وتأمل قول الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥]، فقد توعد الله المصلين الذين يسهون عن صلاتهم، فيصلونها في غير أوقاتها، أو لا يطمنون فيها، أو يضيعون بعض الصلوات ولا يحافظون عليها، فما بالك بمن يترك الصلاة بالكلية؟!

قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم: ٥٩-٦٠].

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٢).

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري **ك** قال: سمعت النبي **γ** يقول: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»<sup>(١)</sup>.

وعن بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ **η** قال: سمعت رسول الله **γ** يقول: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»<sup>(٢)</sup>.

وأصح أقوال أهل العلم أنّ تارك الصلاة بالكلية كافر، وإن زعم أنّه مسلم، أما من يصليها أحياناً ويتركها أحياناً فهو مجرم فاسق، وهو من جملة المسلمين بحسب الظاهر، وإن كنا نخاف عليه من النفاق، بل إن بعض تاركي الصلاة أشد من المنافقين الذين كانوا في عهد النبي **μ**، فقد كان المنافقون في عهد النبي **γ** يُصلُّون رياءً، ولا يحافظون على الصلاة دائماً، ويذكرون الله قليلاً، ومع ذلك ذمهم الله وتوعدهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، فعلى من يتهاون بصلاته أن يخاف على نفسه النفاق، وأن يتوب إلى الله سبحانه، ويعمل الأعمال الصالحة، ولا يُصر على المخالفة.

والمرجئة يجعلون من وقع من المسلمين في كبيرة من الكبائر كترك بعض الصلوات أو فعل بعض الفواحش ولم يتب إلى الله سبحانه حتى مات مؤمناً كامل الإيمان، والصواب أنّه مسلم فاسق، لا نسميه مؤمناً كامل الإيمان كالمرجئة، ولا نُكفِّره كالخوارج، بل هو مؤمنٌ ضعيف الإيمان، وهو تحت

(١) رواه مسلم (٨٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٢١)، وصححه الترمذي وابن حبان والألباني والأرناؤوط.

مشيئة الله سبحانه، إن شاء عذبه بذنبه، وإن شاء غفر له، وإن عذبه لا يُخَلِّدُه في النار كما يُخَلِّد الكفار المشركين، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

قال ابن عبد البر: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان" (١).

وقال البغوي: "اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان" (٢).

وقال النووي: "لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل وجد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم مؤمن، وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسوله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يُسمى مؤمناً بالإطلاق" (٣).

(١) التمهيد (٩ / ٢٣٨).

(٢) شرح السنة (١ / ٣٨).

(٣) شرح صحيح مسلم (١ / ١٤٧).

وقال ابن تيمية: "الدين لا بد فيه من قول وعمل، ويمتنع أن يكون الرجل مؤمناً بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجباً ظاهراً، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياماً ولا غير ذلك من الواجبات" (١).

وقد كان أئمة السلف الصالح ينكرون أشد الإنكار على المرجئة في زمانهم، مع أن المرجئة الأوائل كانوا يُعظِّمون الأعمال الصالحة، وكان منهم فقهاء وعُباد وزهاد، لكن أنكر عليهم السلف إخراجهم الأعمال الصالحة من مسمى الإيمان، وعلموا أن قولهم يؤدي إلى التهاون بإقامة الشريعة.

قال التابعي الجليل إبراهيم النخعي: "فتنة المرجئة أخوف على هذه الأمة من فتنة الخوارج" (٢).

وقال إبراهيم النخعي أيضاً: "تركت المرجئة الدين أرق من الثوب" (٣).

وقال سفيان الثوري: "ما أحد أبعد من القرآن من المرجئة" (٤).

فالمرجئة جعلوا القرآن العظيم كأنه هزل، مع أنه قول فصل، وما هو بالهزل، وهو حق اليقين، أخباره صادقة، وأحكامه عادلة، فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يُصدِّق أخباره، وأن يعمل بأحكامه، فهو كتاب هداية وحكم وتشريع، ومن لم يهتد به ويحكم به ويتبعه فهو من الضالين المغضوب عليهم، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فمن استحلَّ

(١) مجموع الفتاوى (٧ / ٦٢١).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة (٦١٧).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة (٧٠٩).

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٨٢٩).

المحرمات فهو كافر؛ لأنه كذب الله فيما أخبر به من تحريمها، أو صدق أن الله حرّمها لكنه عاند وامتنع من قبول أمر الله بتحريمها، ومن كره شيئاً من أحكام القرآن فهو كافر وإن عمل به، كمن يكره الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج أو يكره تحريم شيء من المحرمات أو تحليل شيء المباحات، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

قال ابن تيمية: "من فعل المحارم مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق، فإنه ما أمن بالقرآن من استحل محارمه، وكذلك لو استحلها بغير فعل، والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرّمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرّمها، وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية أو لخلل في الإيمان بالرسالة، ويكون جحداً محضاً غير مبني على مقدمة، وتارة يعلم أن الله حرّمها ويعلم أن الرسول إنما حرّم ما حرّمه الله، ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند، فهذا أشد كفراً ممن قبله، وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه، ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الأمر وقدرته، وقد يكون تمرداً أو اتباعاً لغرض النفس، وحقيقته كفر هذا؛ لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به، ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون، لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه، لعدم موافقته لمراده ومشتهاه، ويقول: أنا لا أقر بذلك، ولا ألتزمه، وأبغض هذا الحق، وأنفر عنه، فهذا نوع غير النوع الأول، وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع، بل عقوبته أشد" (١).

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٥٢١، ٥٢٢) باختصار.

فعلى كل مسلم ومسلمة أن يحذر أشد الحذر من بدعة الإرجاء، وكذلك يحذر أشد الحذر من بدعة الخوارج الذين يُكفِّرون المسلمين بمجرد المعصية، فهما في طرفي نقيض، والحق وسط بينهما، والإنسان يميل به هواه إلى أحد هاتين البدعتين، فإياك أن تكون مرجئاً أو خارجياً!

فإن تَنَجُّ منها تَنَجُّ منْ ذي عَظِيمَةٍ وإلَّا فإِنِّي لا أخالُكَ نَاجِياً

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. وارزقنا اللهم اتباع كتابك وسنة نبيك ظاهراً وباطناً، وجنبنا البدع كبيرها وصغيرها، واغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وعافنا من الغلو إفراطاً أو تفريطاً.

## (٣٥) الحكم لله وحده، وخطورة القول بلا علم في دين الله

الإسلام هو الدين الذي رضي الله لعباده ولا يرضى لهم سواه، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال ب: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام دين جميع الأنبياء، قال الله ج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وخلاصة الدين الإسلامي شينان: أن يكون الحكم لله وحده، وأن تكون العبادة لله وحده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهذان الأمران هما أصل الدين القيم المستقيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فكما يجب أن يُفرد الله وحده بالعبادة ولا يشرك به شيئاً في عبادته، كذلك يجب أن يُفرد وحده بالتشريع ولا يُقبل تشريع غيره، فالتشريع والتحليل والتحرير حق خالص لله وحده لا شريك له، ومن صرف هذا الحق لغير الله فقد أشرك مع الله غيره، فإنَّ العبادة لله وحده، والحكم له وحده، والله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته ولا في حكمه، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١١٦﴾﴾ [الكهف: ٢٦].

وقد أجمع العلماء على كفر من شرع للناس شرعًا لم يأذن به الله، وأعرض عن شرع الله ولم يحكم به، قال الله سبحانه: ﴿أَمْرٌ لَهُمْ شُرْكُؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾ [الشورى: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

ولا يجوز أبدًا أن يُقدّم حكم الناس واختيارهم المناقض لحكم الله، ولو كان حكم الشعوب مقدّمًا لكان الأنبياء خارجين عن الحق؛ فقد نشأوا بين أقوام أجمعوا على الباطل، أو كان جمهورهم عليه، قال الله ﷻ: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن نُّطْعَ أَكْثَرٌ مِّن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»<sup>(١)</sup>.

وبهذا يُعلم بطلان الديمقراطية؛ لأنها تعني حكم الشعب نفسه بنفسه، وهي بذلك مخالفة للإسلام، فالحكم في الإسلام لله العلي الكبير، ولا يجوز أن يُعطى حق التشريع لأحد من البشر كائنًا من كان، والعمل عند الديمقراطيين

(١) رواه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٢٢٠).

على ما تختاره الأغلبية ولو كان ما اختاروه مخالفاً للحق الذي أنزله الله (١)، وإنما بعث الله الأنبياء وأنزل معهم كتبه ليحكم بها بين الناس، كما قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

وواجب على جميع الناس التحاكم بشرع الله الذي رضي له عباده، والإعراض عن التحاكم بشرع الله هو من أتباع سبيل اليهود والنصارى الذين أعرضوا عن شريعة الله، وهو من صفات منافقي هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ [آل عمران: ٢٣]، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَلَيْسَ قُلُوبُهُمْ مَّرْضُ أَمْ أَرْتَابُونَ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ۗ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۗ وَأُولَئِكَ

(١) يُنظر: كتاب تنوير الظلمات بكشف مفاصد وشبهات الانتخابات لمحمد الإمام، ويُنظر في تحريم الديمقراطية وشروط من أجاز المشاركة فيها للضرورة والمصلحة:

فتاوى إسلام ويب <https://cuts.top/Gq3b>

وموقع الإسلام سؤال وجواب <https://cuts.top/IuWv>

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [النور: ٤٧-٥٢].

والواجب على العبد أن يستسلم لله بالتوحيد، وينقاد له بالطاعة، ويتبرأ من الشرك وأهله، ولا يجوز القول في دين الله بلا علم، ولا مداهنة الكافرين بقول أو فعل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وواجب علينا أن نرد جميع خلافاتنا إلى كتاب الله وسنة رسوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال ﷺ: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ويجب على كل مسلم أن يتعلم ما يلزمه من العلم الشرعي، ويعمل به بقدر استطاعته حتى لا يخالف الكتاب والسنة في اعتقاده أو قوله أو فعله، وأن يسأل أهل العلم عما أشكل عليه، كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

عن الأوزاعي قال: (كتب عمر بن عبد العزيز  $\rho$  تعالى أنه لا رأي لأحد في كتاب الله، وإنما رأي الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب، ولم تمض به سنة من رسول الله  $\gamma$ ، ولا رأي لأحد في سنة سنه رسول الله  $\gamma$ )<sup>(١)</sup>.

وعن عبيد الله بن عمر أن عمر بن عبد العزيز خطب فقال: (يا أيها الناس إن الله لم يبعث بعد نبيكم نبياً، ولم ينزل بعد هذا الكتاب الذي أنزل عليه كتاباً، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا وإني لست بقاضٍ، ولكني مُنْقِذٌ، ولست بمبتدعٍ، ولكني متَّبِعٌ، ولست بخير منكم، غير أنني أثقلكم حملاً، ألا وإنه ليس لأحد من خلق الله أن يُطاع في معصية الله، ألا هل أسمعتم؟!)<sup>(٢)</sup>.

فلا يجوز أن نعارض قول الله وقول رسوله بقول أحدٍ كائناً من كان، ولا يجوز أن نُعرض عن حكمٍ ثابتٍ في كتاب الله وسنة رسوله بأي مبررٍ، ولا يجوز لأحدٍ كائناً من كان أن يسعى في تغيير حكم من أحكام الشريعة، فليست شريعة الله وأحكامه خاضعة لأهوائنا وآرائنا، بل يجب أن نخضع لها إن كنا مسلمين.

والكذب على الله بالتحليل أو التحريم كفرٌ مخرج من الملة، وكراهة ما أنزل الله أو رد حكمًا من أحكامه محببٌ للأعمال وردة باتفاق علماء الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ

(١) رواه الدارمي (٤٤٦).

(٢) رواه الدارمي (٤٤٧).

﴿١١٦﴾ [النحل: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿١١٦﴾﴾  
 ﴿١١٧﴾ [محمد: ٩]، وقال β: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْفُؤَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١١٧﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
 ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ  
 ﴿١١٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ  
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿١١٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ  
 وَأَدْبَارَهُمْ ﴿١١٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ  
 فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿١٢٠﴾ [محمد: ٢٤-٢٨].

قال ابن القيم: "حرّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء،  
 وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى:  
 ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ  
 تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾  
 [الأعراف: ٣٣]" (١).

## (٣٦) وجوب تحكيم الشريعة في أمور الدين والدنيا

الإنسان عبدٌ لله الذي خلقه لعبادته، وأمره بالتمسك بشريعته، وحقيقة الحرية هي التجرد من عبودية كل أحد إلا الله، ومن الخطأ والضلال أن تُفهم الحرية بأنها الخروج عن شريعة الله، ومخالفة أمره ونهيه، وهذا تقديسٌ للنفس وما تهواه، وتقديم لشهواتها على مراد الله، وعبودية للنفس وجعلها شريكاً لله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فمن سوَّغ لنفسه أو لغيره أن يقول أو يفعل ما يشاء فقد أقر بعبوديته لهواه وشيطانه، وهو أضل الناس كما قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فالله سبحانه خلق الإنسان ليعبده، ويطيعه في أمره ونهيه، فإن لم يعبد الله ولم يطعه في أمره ونهيه فهو عبدٌ لغيره.

والحرية في الإسلام مقيدة بأن تفعل ما تشاء مما أباحه الله للعباد، ولم يحرمه عليهم، وبهذا تنضبط الحياة، ويأخذ كل ذي حق حقه، ولا يظلم أحدٌ أحدًا، ولا يؤذي أحدٌ أحدًا، فيأخذ كل إنسان حقه من المباحات، من غير أن يُدخل الضرر على غيره لمصلحته الخاصة، فلا يجوز في الإسلام أن يضر الإنسان نفسه أو غيره، عن ابن عباس ك أن النبي ص قال: «لَا ضَرَرَ وَلَا

ضَرَارَ»<sup>(١)</sup>، فالضرر يُزال شرعاً، ولا تفر الشريعة إدخال الضرر على النفس ولا على الغير.

فليس من الحرية أن يُشَوِّه الإنسان صورته أو يقطع بعض أعضائه، وليس من الحرية أن ينتحر الإنسان أو يقتل أولاده أو يُجهض الجنين الذي في بطن أمه، وليس من الحرية أن يسرق وينهب ويظلم، فيعيش الناس فوضى في خوف وقلق، وليس من الحرية أن يُسرف ويُبذّر الأموال التي جعلها الله قياماً لمصالح العباد، وليس من الحرية أن يزني الرجال والنساء فتفسد الأخلاق، وتختلط الأنساب، ولا يأمن أحدٌ على عرضه، ولا يتيقن من ولده، فننزع الرحمة والشفقة بين الآباء والأولاد، وتتفكك الأسر، ويعيش المجتمع في سعار الشهوة والأمراض الجنسية والنفسية والمشاكل الاجتماعية، وليس من الحرية تبرج النساء والاختلاط بين الرجال والنساء وغير ذلك مما يدعو إلى فاحشة الزنا، وليس من الحرية التعامل بالربا فيزداد الغني غنىً بلا عمل، ويزداد الفقير فقراً بلا أمل، ويبقى المال دولةً بين كبار الأغنياء يبتزون جهود المساكين ويستغلون حاجتهم، ويأكلون أموالهم بالباطل ظلماً وبغياً.

وبهذا يتبين الفرق بين الحرية المشروعة والحرية الباطلة، وقد ظهر بين المسلمين أقوامٌ يدعون إلى الحرية الباطلة المخالفة لشريعة الله سبحانه،

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٤٠) و (٢٣٤١) بإسنادين في أحدهما انقطاع وفي الآخر راوٍ ضعيف، ورواه مالك في موطنه مرسلاً (٧٤٥ / ٢)، وحسنه ابن الصلاح والنووي وابن رجب بمجموع طرقه كما في جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢ / ٢١٠، ٢١١).

ويسعون إلى فصل حكم الدين عن حكم الدنيا، ويزعمون أن الله يُشرِّع للدين، والإنسان يُشرِّع للدنيا، وهذا كفرٌ بواحدٍ، حيث جعلوا هناك مشرِّعين متعددين، والتشريع حق لله وحده، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

وظهرت في بلاد المسلمين العديد من التيارات الفكرية التي تدعو لفهم النصوص الشرعية من غير رجوعٍ إلى العلماء المتخصصين في علوم الشريعة، ولا يتقيدون بفهم القرآن والسنة على طريقة السلف من المفسرين والفقهاء، بل يتلاعبون بنصوص القرآن والسنة، ويحرفون معانيهما بما يوافق أهواءهم، ويدعون إلى الفوضى الفكرية التي يسمونها حرية الأفراد في الرأي والتعبير، والخوض في كل شيء ولو في غير تخصصهم، ويدعون إلى حرية الاعتقاد ولو بالكفر بالقرآن والسنة، ورفض أحكام الشريعة أو بعضها.

وظهر لهؤلاء المتلاعبين بنصوص الشريعة أقوالٌ شاذةٌ وضلالات شنيعة، وبعضهم وصل به الحال إلى الزندقة ومحاربة الشريعة علانية، والخروج من الإسلام بدعوى الحرية!

ومن العجيب أن بعضهم يستدل على فصل حكم الدين عن حكم الدنيا بحديث: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»<sup>(١)</sup>، وسبب ورود الحديث أن النبي ﷺ مرَّ بقومٍ على رءوس النخل يُلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس وعائشة ك.

رسول الله  $\gamma$ : «مَا أَظُنُّ يُعْنِي ذَلِكَ شَيْئًا»، فتركوا التلقيح، فنَقَصَتِ الثمرة، فأخبر رسول الله  $\gamma$  بذلك فقال: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُوَاخِدُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>، وقد بَوَّبَ لهذا الحديث النووي في شرحه على صحيح مسلم فقال: "باب وجوب امتثال ما قاله  $\gamma$  شرعًا دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي"، ثم قال النووي: "قال العلماء: لم يكن هذا القول خبرًا، وإنما كان ظنًا، ورأيه  $\gamma$  وظنه في أمور المعاش كغيره، فلا يمتنع وقوع مثل هذا، ولا نقص في ذلك"<sup>(٢)</sup>.

ومعلومٌ أنَّ الشريعة تأمر الناس بما ينفعهم في أمور دنياهم، وفي الحديث أنَّ النبي  $\gamma$  قال: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»<sup>(٣)</sup>، فالشريعة جاءت بما يُصْلِحُ الناس في دينهم ودنياهم، وتبيح لكل فرد أن يجتهد في أموره الدنيوية الخاصة بما يناسبه وينفعه، فله أن يبني بيته مثلًا بالشكل الذي يُناسبه، ويزرع مزرعته بما يفيد، ويصنع ويخترع ما ينفع الناس، والأصل في المعاملات الدنيوية الحل، ولا يحرم منها إلا ما حرم الله ورسوله، وأجمع العلماء أنَّه لا تجوز مخالفة الشريعة في الأمور الدنيوية التي فيها نصوص شرعية، مثل أحكام المواريث وتحريم الربا والميسر وتحريم بيع الخمر ونحو ذلك من المعاملات، ومن أجاز مخالفة الشريعة في الأمور الدنيوية التي فيها نصوص

(١) رواه مسلم (٢٣٦١) من حديث طلحة بن عبيد الله  $\eta$ .

(٢) شرح صحيح مسلم (١١٦ / ١٥) بتصرف يسير.

(٣) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٢).

شرعية فقد شاق الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهذه كلمات مهمة في بيان بطلان منهج المتمردين عن الشريعة باسم الحرية، وبيان المنهج الحق في التمسك بالشريعة الإسلامية، وتحكيمها، ورفض كل ما يخالفها:

- الشرع لله وَحْدَهُ؛ يُحِلُّ ما يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ ما يَشَاءُ؛ بعلمٍ وَحُكْمَةٍ.
- تشريع الله جاء لصالح الدِّينِ والدُّنيا، لا يَرْتَفِعُ أمرُهُ ونهْيُهُ عن المُكَلَّفِينَ في زَمَنِ أو مكانٍ دُونَ غيرِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ.
- الإسلامُ جاء لإصلاح الناس في دينهم ودنياهم، فالدين الإسلامي شاملٌ كاملٌ في جميع نواحي الحياة، وكلُّ ما يصدُرُ من المُكَلَّفِينَ من اعتقادٍ أو قولٍ أو عملٍ فله حكمٌ في الشريعة، فإما أن يكونَ واجبًا أو مندوبًا أو محرَّمًا أو مكروهًا أو مباحًا، وكلُّ تصرفٍ كائنًا ما كان يصدُرُ من فردٍ أو جماعةٍ أو دولةٍ فإما أن يكونَ في الشريعة صحيحًا أو فاسدًا.
- مَنْ فَرَّقَ بين أمورِ الدينِ والدُّنيا؛ فجعلَ لله الحُكْمَ في الأمورِ الدِينِيَّةِ، ولغيرِهِ من البشرِ الحكمَ في الأمورِ الدُنْيَوِيَّةِ فقد كَفَرَ؛ لأنَّ الشرعَ كُلَّهُ لله وَحْدَهُ لا شريكَ له، وَمَنْ جعلَهُ حقًّا لغيرِهِ فهو كَمَنْ جعلَ السجودَ حقًّا يُصْرَفُ لغيرِهِ، والله يقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

• الله أَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَشَرَعَ تَشْرِيْعَهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَأْتِي مِنْ أَحْوَالٍ، وَمَا مَضَى مِنْ حَوَادِثٍ؛ كَمَا يَعْلَمُ وَيَرَى الْحَالَ وَالزَّمْنَ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ التَّشْرِيْعُ سِوَاءً؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ جَمَلَةً وَتَفْصِيْلًا، وَعِلْمُ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، وَالْحَاضِرِ وَالْغَائِبِ عِنْدَهُ سِوَاءً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• مَنْ رَأَى أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ صَالِحٌ لِلزَّمَنِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ فَقَطْ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلِلنَّاسِ أَنْ يُشَرِّعُوا مَا يَرَوْنَهُ صَالِحًا وَلَوْ كَانَ مَخَالِفًا لِحُكْمِ اللَّهِ، فَقَدْ كَفَرَ كَفْرًا لَا يَخْتَلَفُ فِيهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ نَقْصَ الشَّرِيْعَةِ، وَيُسِيءُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ.

• مَنْ كَفَرَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٨٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٨٦] [البقرة: ٨٥-٨٦].

• اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وَالْمَرَادُ: الْحُكْمُ فِي الْخُصُومَاتِ، وَالنِّزَاعِ فِيْمَا بَيْنَهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

- حذر الله سبحانه من الخروج عن حكمه، وجعل ذلك فتنة فقال: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فمن أعظم الفتنة الخروج عن حكم الله، ومما يسبب الفتنة مخالفة الشريعة كما قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
- لا يجوز أن يقدم حكم الناس واختيارهم المناقض لحكم الله، ولا عبرة بالأغلبية إذا اختارت الباطل، قال الله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فالحكم في الإسلام لله العلي الكبير، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ولا يجوز أن يعطى حق التشريع لأحد من البشر كأننا من كان.

## (٣٧) معنى العبادة، وشمولها طلب الرزق الحلال وإصلاح الدنيا

العبادة تقتضي الانقياد التام لله تعالى، أمرًا ونهيًا واعتقادًا وقولًا وعملاً، وأن تكون حياة المرء قائمة على شريعة الله، يُحِلُّ ما أحل الله، ويُحرِّم ما حرم الله، ويخضع في سلوكه وأعماله وتصرفاته كلها لشرع الله، متجردًا من حظوظ نفسه ونوازع هواه، يستوي في هذا الفرد والجماعة، والرجل والمرأة، فلا يكون عابِدًا لله من خضع لربه في بعض جوانب حياته، وخضع للمخلوقين في جوانب أخرى، ولا يتم إيمان العبد إلا إذا رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ورضي حكم الله ورسوله في القليل والكثير، وتحاكم إلى شريعة الله وحدها في كل شأن من شئونه، في الأنفس والأموال والأعراض، وإلا كان عابِدًا لغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال ابن تيمية: "الطاغيان: مجاوزة الحد، فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك طاغوت، والمطاع في معصية الله والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق هو طاغوت؛ ولهذا سمي من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوت" (١).

وقال ابن القيم: "الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٢٠١).

يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله، فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته" (١).

فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد له، ومن خضع لغير الله وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت، وهذا كفرٌ بواح، فإن ادّعى صاحبه مع هذا الكفر أنه مؤمن فإنه منافق كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

فعبادة الله وحده والبراءة من عبادة الطاغوت والتحاكم إليه من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فالله سبحانه هو رب الناس، وإلههم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحييهم ويميتهم، ويحاسبهم ويجازيهم، وهو المستحق للعبادة دون كل ما سواه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما أن الله هو الخالق وحده، فهو الأمر سبحانه، والواجب على العباد طاعته في أمره ونهيه، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لتحكيم شرعه كما قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠).

وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿٢١٣﴾  
[البقرة: ٢١٣].

والعبودية لله وحده لا شريك له هي غاية الخلق والوجود، ومن جَوَزَ الخروج عنها فهو لا يؤمن بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن العجب أن عبَاد الهوى والطواغيت لا يجوّزون الخروج عن سنن الدنيا والكون ونظام الدولة وقانونها ويجوّزون الخروج عن عبادة الله وشريعته!

ومنهم من يأخذ بعض الشريعة مما يوافق هواه، ويترك من الشريعة ما لا يوافق هواه، وهذا كفرٌ بواح كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٨٥] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦]، فمن كفر ببعض الكتاب فقد كفر به كله.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة<sup>(١)</sup>، ومن العبادة حسنُ الأخلاق، وحسنُ المعاملة مع الناس في البيع والشراء وغير ذلك من الأمور الدنيوية، ومن العبادة طلب الرزق الحلال، وقد شرع الله للمسلمين الجمع بين الدين والدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقال سبحانه: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾

(١) يُنظر: العبودية لابن تيمية (ص: ٤٤).

وَأَعْبُدُوهُ ﴿ [العنكبوت: ١٧]، وقال β: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ [الجمعة: ١٠].

فالإسلام جاء بصلاح الدين والدنيا، وقد علمنا الله أن نسأله أن يؤتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وكان هذا أكثر دعاء النبي γ كما في الصحيحين (١).

وقد مدح الله المؤمنين الذين يجمعون بين العبادة وطلب الرزق ولا تشغلهم الدنيا عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧]، فوصفهم الله بأن لهم تجارات لكنها لا تشغلهم عن عبادة الله.

وتأمل كيف وصف الله صحابة رسوله رضوان الله عليهم بقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، فأتنى الله عليهم بأنهم يجمعون بين العبادة وطلب الرزق، وعندما نسخ الله وجوب قيام الليل ذكر أن من أسباب ذلك: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقد أباح الله التجارة حتى عند أداء مناسك الحج فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وذكر الله أن من نعيمه على عباده أن يسر لهم أسباب طلب الرزق فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩) ومسلم (٢٦٩٠) من حديث أنس η.

﴿١٥﴾ [المالك: ١٥]، وقال β: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

فالإسلام يهتم بالأموال، بل إن أطول آية في كتاب الله هي آية المدينة لحفظ الأموال من الضياع، فالأموال قيام لحياة الناس، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥]، قال المفسرون: أي جعلها الله لكم قوام معاشكم، قائمة بأموالكم، والمعنى أن الأموال صلاح للحال وثبات له<sup>(١)</sup>.

ومن الخطأ أن لا يهتم المسلم بطلب الرزق الحلال، ويحرم على نفسه ما أحل الله، فهذا مخالف لما أمر الله به عباده، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨]، وقال ع: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وكان من دعاء النبي γ الذي يقوله صباحًا ومساءً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، وَاللَّهْمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن عمرو بن العاص η قال: قال رسول الله γ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) يُنظر: فتح القدير للشوكاني (١ / ٤٨٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٠) وحسنه الألباني.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٧٧٦٣) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) وصححه الألباني.

وعن يسار بن عبيد  $\eta$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «لَا بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنْ اتَّقَى،  
وَالصِّحَّةُ لِمَنْ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعَمِ»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الرحمن بن عوف  $\eta$  قال: (يا حبذا المال، أصل منه رحمي،  
وأتقرب إلى ربي  $\beta$ )<sup>(٢)</sup>.

وعن عمر بن الخطاب  $\eta$  قال: (عليكم بالجمال واستصلاح المال، وإياكم  
وقول أحدكم: لا أبالي)<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب  $\kappa$  قال: (احرث لدنياك كأنك تعيش  
أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا)<sup>(٤)</sup>.

وعن المقدم بن معدي كرب  $\eta$  قال: (يأتي على الناس زمان لا ينفع فيه  
إلا الدينار والدرهم)<sup>(٥)</sup>.

وعن قيس بن عاصم المنقري  $\eta$  أنه قال لبنيه: (عليكم بإصلاح المال،  
فإنه منبهة للكريم، ويُسْتَغْنَى به عن اللئيم)<sup>(٦)</sup>.

وعن سعيد بن المسيب قال: (لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله،  
يكفُّ به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويُعْطَى منه حقه)<sup>(٧)</sup>.

(١) رواه أحمد (٢٣٢٢٨) وابن ماجه (٢١٤١) وصححه الألباني.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه إصلاح المال (٩٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه إصلاح المال (٦٤).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه إصلاح المال (٤٩).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه إصلاح المال (٨٤).

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (٦٥٦٥).

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه إصلاح المال (٥٥).

وعن سفيان الثوري قال: (المال في هذا الزمان سلاح المؤمن)<sup>(١)</sup>.  
قال ابن تيمية: "خيار هذه الأمة كانوا يكتسبون الأموال بالوجوه المباحة،  
واكتساب المال مع إنفاقه في طاعة الله عمل صالح، وقد ثبت في الصحيح<sup>(٢)</sup>  
عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، قالوا: فمن لم يجد؟ قال:  
«يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ»<sup>(٣)</sup>.

فالإسلام يحث المسلمين على الجمع بين العبادة وطلب الرزق الحلال،  
بل إن طلب الرزق الحلال من عبادة الله، وقد كان السلف الصالح يحثون  
المسلمين على التجارة وإصلاح المال وتنميته بالطرق المشروعة، ويحثونهم  
على الزراعة والصناعة واستغلال الخيرات التي سخرها الله لعباده<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه إصلاح المال (٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٤٥) ومسلم (١٠٠٨) من حديث أبي موسى الأشعري .η

(٣) مجموع الفتاوى (٣٨٠ / ٢٩).

(٤) يُنظر: كتاب إصلاح المال لابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ هـ، وكتاب الحث على  
التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدّعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم  
في ذلك لأبي بكر الخلال المتوفى سنة ٣١١ هـ.

## (٣٨) الحكمة من إيلام الحيوانات وإباحة ذبحها ووقوع الأمراض

الله سبحانه أحكم الحاكمين، ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [١٦] ﴿[البروج: ١٦]، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [٢٣] ﴿[الأنبياء: ٢٣]، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

والله سبحانه خالق الخير والشر، ولا خالق إلا الله وحده، فإبليس أصل الشر خلقه الله لحكمة، منها اختبار الناس في هذه الدنيا؛ ليتبين من يطيع الله سبحانه ومن يتبع الشيطان وأعدائه، قال الله تعالى لإبليس: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ [٨٤] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

والله سبحانه يبتلي الناس بالشر والخير فتنة، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فابتلينا بالخير ليتبين الشاكر وغير الشاكر، وابتلينا بالشر ليتبين الصابر وغير الصابر، ومن حكمة الله في خلقه الشر وأهله أن نستعيذ بالله من الشر الذي خلقه، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّي الْفَلَقِ﴾ [١] ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [٢] ﴿[الفلق: ١-٢]، فأمرنا الله أن نستعيذ بالله وحده من الشر الذي خلقه الله كالشياطين والسحرة والمجرمين والحيوانات المفترسة والأمراض المتنوعة والأفكار المنحرفة، والله هو الذي خلق كل ذلك وقدّره فتنة للعباد، والكفار والمنافقون

والمجرمون خلقهم الله ورزقهم، ويسر لهم الأسباب، فاستعملوا تلك الأسباب فيما يسخط الله عليهم وعلى من يطيعهم، فجعلهم ابتلاء للناس، قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣]، ومن حكمة الله في خلقه الشر وأهله أن يتدافع أهل الحق وأهل الباطل إلى يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقد بين الله لنا أنه لو شاء لهدى الناس جميعاً، لكن هذا ينافي حكمته من خلق الناس في الدنيا للاختبار، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَلَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال الله جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

فكل شيء في الكون خلقه الله لحكمة، علمها من علمها، وجعلها من جهلها، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين: ٨]؟! حتى الخلافات والحروب والفتن قدّرهما الله لحكمة بالغة كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا

فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال β: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَدْرَأَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وبعض الناس يسأل عن الحكمة من إيلام الحيوانات والأطفال وهم غير مكلفين، وليس في مرضهم مثلاً تكفيراً لذنوب فعلوها، فما الحكمة من تقدير الله سبحانه إيلامهم بالأمراض وغيرها؟ وما الحكمة أصلاً من حصول الأمراض في هذه الدنيا؟ ولماذا أباح الله للناس ذبح الحيوانات وأكلها؟

وأقول قبل الجواب عن هذا السؤال العظيم: اعلم أيها القارئ الكريم أن الإنسان مهما بلغ علمه فما يجهله أكثر مما يعلمه، ويجب على المسلم أن يؤمن بالقدر خيره وشره، وإن لم يفهم حقيقته وحكمته، فعقولنا قاصرة عن فهم حقيقة كثير من الأشياء كالروح، فمهما أردنا أن نعرف حقيقتها فلن نزداد إلا حيرة فيها، فإنها من أمر الله سبحانه، وكذلك القدر هو سر الله في خلقه، ومهما بحثنا فيه بعقولنا القاصرة عجزنا عن إدراك أسرارهِ، فالقدر كالشمس لا يزداد الإنسان بالنظر إليها إلا ضعفاً في نظره، فعلياً التسليم بأن الله أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

ويجب أن نعلم أن كل ما يُقَدِّره الرب سبحانه ويفعله فهو لحكمة، وأنه لا يُقَدِّر ولا يفعل شراً محضاً، بل أقداره وأفعاله كلها خير وحكمة كما قال تعالى: ﴿يَدْرَأُ الْخَيْرَ بِإِنكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال النبي ﷺ في دعائه: «أَلْبَيْتُكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»<sup>(١)</sup>،

(١) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب η.

فإنه سبحانه لا يخلق شرًا محضًا من كل وجه، بل كل ما خلقه الله ففي خلقه مصلحة وحكمة، حتى في خلقه إبليس حكمة، فما خلقه الله من شرٍ فهو شر جزئي إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فإله تعالى مُنَزَّهٌ عنه، وليس إليه، فالطبيب مثلاً يقرر شق بطن المريض لإجراء عملية جراحية أو قطع عضو فاسد من أعضائه، وهذا الشق أو القطع شر جزئي إضافي لهذا المريض، لكنه خير له في عاقبة أمره، وإن كان فيه ألم ومعاناة للمريض.

وتفصيل الجواب عن السؤال المذكور هو: أن الأطفال أو الحيوانات قد يعرض لها النقص الذي هو شر في ابتداء خلقها أو بعد خلقها، فالأول بأن يعرض لمادتها من الأسباب ما يجعلها رديئة المزاج، ناقصة الاستعداد، فيقع الشر فيها والنقص في خلقها بذلك السبب، كأن تُصاب الحامل بمرض يؤثّر في نمو جنينها، فلا يقبل الجنين الكمال والتمام، وعدم قبوله أمر عدمي، ونقصه والشر الذي حصل فيه هو من عدم إمداده بسبب الكمال، فبقي على العدم الأصلي، وبهذا يفهم سر قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ فإن ما خلقه الله أمر وجودي به كمال المخلوق وتمامه، وأما عيبه ونقصه فمن عدم قبوله للكمال، وعدم القبول ليس أمرًا مخلوقًا يتعلق بفعل الفاعل، فالخلق الوجودي ليس فيه تفاوت، والتفاوت إنما حصل بسبب هذا الخلق؛ فالخالق سبحانه لم يخلق له استعدادًا للكمال فحصل التفاوت فيه من عدم الخلق لا من نفس الخلق، ومثال ذلك: من وضع بذرة في تربة فاسدة،

فهي لا تنمو لفساد المحل، أو وضعها في تربة مناسبة لكن لم يأتها ماء تنمو بسببه.

والله سبحانه قَدَّر كل شيء من الخير والشر لحكمٍ كثيرة، فهو يبتلي عباده بالسراء والضراء، ويختبر صبرهم ويختبر شكرهم، والأطفال قد يبتليهم الله بما يشاء لحكمة بالغة، منها اختبار صبر آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، وليعلم الناس أن الله يتصرف في عباده كيف يشاء، وأنه لا أحد يمنعه من تنفيذ ما يشاء في الصغير والكبير، والحيوان والإنسان، فما يصيب الأطفال من أمراض وعاهات فله فيها حكمة بالغة، منها أن يعلم الناس قدرته على كل شيء، وحتى يعرف مَنْ عافاه الله فضل نعمة الله عليه حين مَنّْ بالنعمة عليه بلا سبب منه، ولو شاء لابتلاه كما ابتلى غيره، وحتى يعرف من رزقه الله أولادًا سالمين فضل الله عليه فيشكره، وحتى يصبر من ابتلاه الله بأولادٍ فيهم أمراض فيصبر ويحتسب، فيكون له في ذلك الأجر العظيم على صبره واحتسابه، وإيمانه بقضاء الله وقدره.

وليعلم السائل عن حكمة الله سبحانه في إيلاء الأطفال والحيوانات وإيقاع الأمراض المختلفة أن للإنسان والحيوان نفسًا متحركة بالإرادة والاختيار، وطبيعة متحركة بغير الاختيار والإرادة، وأن الشر منشأ من هاتين الحركتين، وقد خلق الله هذه النفس وهذه الطبيعة على هذا الوجه، فهذه تتحرك لكمالها، وهذه تتحرك لكمالها، وينشأ عن الحركتين خير وشر كما ينشأ عن حركة الرياح والماء والنار خير وشر، فمثلًا حركة الرياح فيها خير عظيم، ولكنها تكون لبعض الناس شرًا كأن يمرض إنسان مثلًا بسببها،

وكذلك نزول المطر فيه خير عظيم، ولكنه يكون شرًا لبعض الناس والحيوانات كانقطاع طرق المسافرين أو غرق بعض الناس والحيوانات في مياه السيول، فالخيرات الناشئة عن هذه الحركات هي المقصودة لذاتها أو لكونها وسيلة إلى خيرات أعظم منها، والشرور الناشئة عنها غير مقصودة لذاتها، فما جُبلت عليه النفس من الحركة هو من لوازم ذاتها، وإن كان في إيجاد هذه النفس شرًا فهو شر جزئي بالنسبة إلى الخير الكلي الذي هو سبب إيجادها، فوجودها خير من أن لا توجد، فلو لم يخلق الله مثل هذه النفس لكان في الوجود نقص وفوات حكّم ومصالح عظيمة موقوفة على خلق مثل هذه النفس، فمثلًا بعض الحشرات خلقها الله غذاء لطيور وحيوانات أكبر منها، وجعل تلك الطيور والحيوانات غذاء لغيرها، وهكذا، وجعل في بعض الطيور والحشرات كالذباب مصالح كتلقيح بعض الأشجار، وسخر كثيرًا من الحيوانات والطيور لمصالح الإنسان في غذائه وكسائه وأثاثه وعلاجه ومنافعه، وكل مخلوق وإن دق ولو كان مرضًا فقد خلقه الله لحكمة ومصالحة وإن لم نعلمها، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ ولهذا لما اعترضت الملائكة على خلق الإنسان وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] أجابهم الله سبحانه بأنّ في خلق الإنسان من الحكّم والمصالح ما لا تعلمه الملائكة، والخالق سبحانه يعلمه، وقد تبين للملائكة بعد ذلك أنّ من الناس من صاروا صالحين عابدين لله، وعالمين بالله وشرعه، وحافظين لكتابه، ومكثرين لذكره، ومحسنين إلى خلقه، وإن كان من الناس من يُفسد في الأرض، ويسفك الدماء، فخلق الله الإنسان من تمام

الحكمة والرحمة والمصلحة، وإن كان وجوده مستلزمًا لشرِّ فهو شر مغمور بما في إيجاده من الخير العظيم، فكل ما خلقه الله لحكمة، وكذلك كل ما شرعه الله لحكمة، فما أمر الله به من الأعمال الصالحة خيره ومصلحته راجحة، وإن كان فيه شر جزئي فهو مغمور جدًّا بالنسبة إلى خيره العظيم ومصلحته الراجحة، وما نهى الله عنه من الأعمال والأقوال القبيحة فشره ومفسدته راجحة، والخير الجزئي الذي فيه مغمور جدًّا بالنسبة إلى شره، كالخمر فيه منافع لبعض الناس بالتجارة فيه، ولكن شره وضرره أعظم من نفعه، فسنته سبحانه في خلقه وأمره فعل الخير الخالص والراجح، والأمر بالخير الخالص والراجح، فإذا تناقضت أسباب الخير والشر قُدِّم أسباب الخير الراجحة على المرجوحة، ولم يكن تفويت المرجوحة شرًّا، وكذلك تُدْفَع أسباب الشر الراجحة بالأسباب المرجوحة، ولم يكن حصول المرجوحة شرًّا بالنسبة إلى ما اندفع بها من الشر الراجح، فالله سبحانه قد أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنعه، وهذا أمر يعلمه العالمون بالله جملة، ويتفاوتون في العلم بتفاصيله.

وإذا عرفت ذلك فالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها، وإما لتولدها عن أمورٍ لازمة لها، فمثلًا ولادة الإنسان أو الحيوان مصلحة عظيمة، ولا يكون ذلك إلا بمعاناة أمه عند حملها، وآلام شديدة عند وضعه، لكن الخير الحاصل غالبًا بتلك الولادة أرجح من تلك المفسدة، وهكذا كم في طلوع الشمس من ألم لمسافر وحاضر! وكم في نزول المطر والثلوج من

أذى لبعض الناس! وكم في الحر والبرد من أذى مع ما فيها من مصالح ومنافع عديدة! فلو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية، فإله قدّر الليل والنهار والشتاء والربيع والصيف والخريف لمصالح العباد، وإن تضرر بعض الناس من بعض الفصول، فالمصلحة العامة مقدّمة على المصلحة الخاصة، ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف والأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها، وتبرد الظواهر، ويستكثف الهواء، فيحصل السحاب والمطر الذي به حياة الأرض وأهلها، ويحصل اشتداد أبدان الحيوان وقوتها، واستخلاف ما حلّته حرارة الصيف من الأبدان، وفي الربيع تظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيظهر النبات، ويتنور الشجر بالزهر، وفي الصيف يسخن الهواء فتنضج الثمار، فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان، وصفا الهواء وبرد، وجنى الناس كثيراً من الثمار والفواكه التي بدأ تكون مادتها في الشتاء، ثم ظهرت في الربيع، ثم نضجت أثناء الصيف، فيأكلونها وقت الخريف، ومن حكمة الله ورحمته أن جعل الخريف برزخاً بين حرارة الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الجسم فجأة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيعظم ضرره، فإذا انتقل الجسم إليه بتدرّج لم يصعب عليه، وكذلك الربيع جعله الله برزخاً بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الجسم من برد هذا إلى حر هذا بتدرّج وترتيب، فمصالح العباد في الدنيا لا تكون إلا بالألام، بل حتى الكمالات الإنسانية لا تُنال إلا بالألام والمشاق كطلب العلم ومعاناة البناء ومباشرة الصناعات، وهذا حال الدنيا الناقصة الفانية التي ليس فيها خير محض، ولا يأتي فيها خيرٌ إلا وهو مخلوط بشرٍّ وتعبٍ ونقصٍ،

وإذا كانت الآلام أسبابًا لِلذَّاتِ أعظم منها وأدوم منها كان العقل يقضي باحتمالها.

واعلم أنَّ الأمراض ليست شرًّا محضًا، ففيها فوائد كثيرة، وجعل الله من أسبابها الحشرات كالذباب والبعوض والميكروبات والفيروسات، ومن رحمة الله أن جعل بعض الأمراض أسبابًا للصحة الكاملة بعد المعافاة منها، ولولا تلك الآلام لاختلت صحة الإنسان، فمثلًا الحمى فيها منافع للأبدان من إذابة الفضلات وإخراجها مما لا يصل إليه دواء غيرها، وفي المرض تكفيرٌ لسيئات المسلمين والمسلمات، وفي المرض رفع درجات الصابرين، والمرض سبب عظيم لرجوع العبد إلى ربه، وتوبته من سيئاته، والمرض يُعرِّف الإنسان بضعفه فيتواضع لربه، ويترك الكبر والطغيان والغرور، والمرض سببٌ لتوكل العبد على ربه في طلب الشفاء بالدعاء، والأخذ بالأسباب المباحة من الأدوية التي يقررها له الأطباء، وإذا نزل الشفاء نفع الدواء، فيشكر المريض ربه على شفاؤه، فإن لم يشفه حمده على بلائه، وصبر ورضي بقضائه، وهذه فوائد خاصة للمرضى، ومن فوائد الأمراض العامة أنها سبب لرزق كثير من الناس، فيسبب الأمراض يرزق الله الأطباء والصيدلة وأصحاب شركات الأدوية والموظفين في المستشفيات والعيادات، فيسر الله أرزاقهم ببلاء غيرهم، ومصائب قوم عند قوم فوائد، ومن فوائد الأمراض العامة أنها سبب لموت كثير من الناس، وهذه حكمة عظيمة لتستمر الحياة في هذه الدنيا، فيذهب جيلٌ ويأتي بعده جيلٌ آخر، وتنتقل الأموال من أناسٍ إلى آخرين، وهكذا، فلو بقي الناس منذ آدم ﷺ إلى يومنا

بلا موت لضاقت بالناس الأرض والأرزاق، فجعل الله بحكمته ورحمته الناس خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، فهذه الآلام والأمراض والمشاق من أعظم النعم وإن لم نعلم؛ فهي أسباب استمرار حياة كل مخلوق إلى آخر أجله الذي قدره الله له بحكمته.

واعلم أنّ ما ينال الحيوانات من الآلام والأمراض مغمور جداً بالنسبة إلى مصالحها ومنافعها، كما ينالها من حر الصيف، وبرد الشتاء، وسقوط المطر والثلج، وألم الحمل والولادة، والسعي في طلب أقواتها، وغير ذلك من مصالحها، ولكن لذاتها أضعاف أضعاف آلامها، وما ينالها من المنافع والخيرات أضعاف ما ينالها من الشرور والآلام، فسنة الله في خلقه وأمره هي التي أوجبها كمال علمه وحكمته وعزته، ولو اجتمعت عقول العقلاء كلهم على أن يقترحوا أحسن منها لعجزوا عن ذلك، فتبارك الله الحكيم الذي أخرج الأضداد من أضدادها، والأشياء من خلفها، فأخرج الحي من الميت، والميت من الحي، والرطب من اليابس، واليابس من الرطب، وأنشأ اللذات من الآلام، والآلام من اللذات، فأعظم اللذات ثمرات الآلام ونتائجها، وأعظم الآلام ثمرات اللذات ونتائجها، والحمد لله الذي جعل اللذة والسرور والخير والنعم والعافية والمصلحة والرحمة في الدنيا أكثر من المحن والبلاء وإن أنكر الإنسان الكنود، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ﴾ [الشرح: ٥-٦]، ولن يغلب عسر يسرين، وهذا لأن رحمة الله غلبت غضبه، والخير في صفاته وأفعاله، والشر في مفعولاته لا في أفعاله، فأوصاف الله سبحانه كلها كمال، وأفعاله كلها خيرات، وقد أصلح الله الأرض وقسم فيها

الأرزاق بحكمته ورحمته، وأمر الناس أن يأكلوا من رزقه ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ولكن كثيراً من الناس خالفوا أمره وشرعه، فهم يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي والظلم والطغيان، قال الله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وإن من حكمة الله أن فاوت في أرزاق الناس ليستقيم عيش الناس في الحياة الدنيا، ولا تتحقق مصالح الناس إلا بهذا التدبير الحكيم، فالله يرزق الناس بعضهم من بعض، ولو كان الناس كلهم أغنياء لا يحتاجون إلى جمع الأموال لفسدت الأرض، فمن سيزرع ويحصد؟! ومن سيسافر لجلب التجارات من بلد إلى بلد؟! ومن سيبيع الأقوات وما يحتاج الناس إليه؟! ومن سيبنى ويعمل بالأجرة لغيره إذا كان كل إنسان عنده كفايته من المال؟! فمن حكمة الله أن جعل الناس يحتاج بعضهم إلى بعض، وينتفع بعضهم ببعض، فهذا يحتاج إلى عمل هذا، وهذا يحتاج إلى مال هذا، وبهذا تستمر الحياة، قال الله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

هذا وإن من نعم الله على عباده أن سخر لهم الأنعام وكثيراً من الحيوانات والطيور ليأكلوها، ويستعينوا بذلك على عبادته، قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، وقال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [١١٨] وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا

أَضْطَرَّتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ [الأنعام: ١١٨-١١٩]، وقال β: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن  
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِآ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ  
عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ ﴿١٧٣﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣]،  
وأوجب الله ذبح الحيوان والطيور حتى يحل أكله، وطريقة الذبح في الإسلام  
هي أرحم الطرق في إزهاق روح الحيوان وأكثرها إراحة له؛ إذ إنّه بمجرد  
انقطاع تدفق الدم إلى المخ لا يشعر الحيوان بالألام ويغيب فيها عن الوعي  
كما يقول المتخصصون، ويُصَفَى لحمه من الدم في نحو دقيقتين، وقد أثبتت  
الأبحاث العلمية أنّ الذبح بالطريقة الإسلامية يخلص لحم الحيوان من  
البكتيريا أكثر بكثير من أي طريقة ذبح أخرى، وإذا مات الحيوان قبل أن  
يُذبح فإنّ الدماء تتجمد في عروقه، مما يجعل لحمه مليئاً بالميكروبات  
والبكتيريا التي تضر من يتناوله؛ ولأنّ الإسلام جاء بالرحمة لجميع ما على  
الأرض من مخلوقات فقد كتب الله الإحسان على كل شيء، فعن شداد بن  
أوس η أنّ النبي γ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ  
فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلْيُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُورِخْ  
ذَبِيحَتَهُ»<sup>(١)</sup>، فيجب في الإسلام معاملة الحيوان بالرحمة والإحسان حتى في  
وقت ذبحه، بأن يُساق برفق، ومواراة السكين عنه، وأن يكون الذبح بسكين  
حادة، والذبح بأسرع ما يمكن لتقليل ألمه، وعدم بلوغ الذبح إلى النخاع،  
وتحريم قطع الرأس والسلخ قبل خروج روحه.

(١) رواه مسلم (١٩٥٥).

فتبين بهذا أن الله سبحانه لم يخلق الآلام والمشقات سدى وعبئاً، وقد جعل الله في هذه الدنيا سنناً كونية يستوي فيها المؤمن والكافر، والصالح والفاقد، فمن زرع حصداً، ومن سقط من مكان مرتفع مات أو انكسر، سواء كان مسلماً أو كافراً، ومن تعرّض لأسباب المرض مريض، سواء كان كبيراً أو صغيراً، وسواءً كان صالحاً أو فاسداً، فهذه سننٌ كونيةٌ تجري على جميع الناس، وهي أسبابٌ تؤثر في مسبباتها بإذن الله، وقد جعل الله سبحانه هذه الدنيا دار ابتلاء وتعب ومشقة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البعد: ٤] أي: في تعب ومشقة، فلو كان الإنسان وغيره من الحيوانات لا يجوع ولا يعطش ولا يتألم ولا يموت لكانت هذه الدنيا دار الخلود، والله لم يجعلها كذلك، وإنما جعلها داراً يمتزج ألمها بلذتها، وسرورها بأحزانها وغمومها، وصحتها بسقمها، حتى لا يطمئن المؤمن إلى هذه الدنيا العاجلة، ويعلم حقيقتها وأنها فانية، فهي كالزهرة تسر الناظرين ولكن سرعان ما تذبل وتفنى، قال الله سبحانه: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا آتَيْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، فالمؤمن لا يستحب الدنيا على الآخرة، فهو يعمل لدنياه وآخرته، ولا تشغله الدنيا عن عبادة ربه، وهمه أن ينجيه الله من عذاب الآخرة، كما قال تعالى معلماً لنا أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وإذا مات المؤمن فهو يعلم أن ثواب الله للمؤمن في الجنة خير وأبقى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال ٨: ﴿وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِّنْ

شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾  
[الفصل: ٦٠] (١).

(١) هذا الفصل غالبه مستفاد من كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٦٩، ١٨٢، ٢٤٨ - ٢٥١)، وكتاب مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٨، ٢٠٩)، كلاهما لابن القيم.

## (٣٩) هل يجب على المسلمين أن يكونوا أفضل من الكفار في أمور الدنيا؟

هذا سؤال عظيم، ولن نجد إجابة عليه شافية كافية أفضل من كلام الله العليم الخبير، فلنتدبر هاتين الآيتين من كتاب الله حتى نعلم جواب هذا السؤال:

قال الله تعالى مبيناً لنا حقيقة الدنيا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَائِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠-٢١].

قال المفسرون: أي: اعلموا - أيها الناس - أنما حقيقة متاع الحياة الدنيا لعبٌ منقطع لا دوام له، ولهوٌ يلهي قلوب الناس ثم ينقضي، فهذا غايتها عند أهلها. وزينةٌ تتزينون بها في أبدانكم ومساكنكم ومجالسكم وغير ذلك مما تُحسِنونه، وتفاحرٌ فيما بينكم بالأنساب والأموال والعلوم والقوة وغير ذلك مما تتفاخرون به، ويباهي بعضكم بعضاً بكثرة أمواله وأولاده على غيره، ويفرح أحدكم بكونه أكثر مالاً وولداً من أقرانه، كمثلٍ مطرٍ جاء بعد قنوط الناس فأنبئت الأرض المجدبة الزروع التي تعجب الكفار الجاحدين لنعم الله، وكذلك تعجب الحياة الدنيا الكافرين الذين هم أحرص الناس عليها، وأشد

تعلقاً بها، ثم يببس الزرع بعد رطوبته وخضرته فتراه مصفر اللون يابساً، ثم يصير الزرع اليابس فتاتاً متكسراً. وفي الآخرة الآتية عذابٌ شديدٌ للكفار في جهنم، وفيها مغفرة من الله لذنوب المؤمنين، ورضوان من الله لهم لما عملوا من الحسنات. وما زينة الحياة الدنيا إلا متاع يتمتع به الناس زمناً قليلاً، يغر الناظرين إليه وهو زائل، ويخدع من يركن إليه وهو لا ينفع في الآخرة. سابقوا - أيها الناس - غيركم إلى التوبة والأعمال الصالحة التي توجب لكم مغفرة من ربكم لذنوبكم، وبادروا إليها بلا تأخر في فعلها، وسابقوا إلى جنة عرضها مثل عرض السماوات السبع والأرض لو التصقت بعضها ببعض، أعد الله الجنة وهياًها للذين وحدوا الله وصدقوا جميع رسله فيما جاءوهم به من الحق. دخول المؤمنين الجنة ومغفرة ذنوبهم فضلٌ من الله تفضل به عليهم، وهداهم إليه، والله يعطي فضله بإحسانه وثوابه ومغفرته من يشاء من عباده بحسب حكمته، والله صاحب الفضل الكبير على عباده، بما يعطيهم من الرزق والنعم الدينية والدنيوية، وبما يجازيهم من الثواب العظيم في الجنة.

هذا خلاصة أقوال المفسرين في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين، وقد جاءت آيات أخرى وأحاديث نبوية بما تضمنته هاتان الآيتان، وكل ذلك مما يُمهّد الجواب على ذلك السؤال:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

[التوبة: ٣٨].

وقال β: ﴿الْهَكْمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

وقال φ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨) [الكهف: ٢٨].

وقال ε: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقال جل وعز: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال جل شأنه: ﴿رُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ (١٤) [آل عمران: ١٤].

وعن المستورد بن شداد الفهري η قال: قال رسول الله γ: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعُ؟» (١).

وعن سهل بن سعد الساعدي κ قال: قال رسول الله γ: «مَوْضِعُ سَوَاطِ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (٢).

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٠) ومسلم (٦٤١٥).

وعن سهل بن سعد الساعدي **ك** قال: قال رسول الله **γ**: «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة **η** قال: قال رسول الله **γ**: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن عمر بن الخطاب **η** أنه قال: يا رسول الله ادع الله أن يوسع علي أمتك، فإنَّ فارس والروم يُسَّعَ عليهم، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله! فقال النبي **γ**: «أَوْفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن مسعود **η** قال: نام رسول الله **γ** على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبِ اسْتَتَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»<sup>(٤)</sup>.

قال القرطبي: "عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة"<sup>(٥)</sup>.

وقال ابن القيم: "الدنيا في الحقيقة لا تُذم، وإنما يتوجَّه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وصححه هو والألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٧٧) وصححه هو والألباني.

(٥) تفسير القرطبي (١٧ / ٢٥٥).

الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها؛ صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره" (١).

وقال ابن رجب: "ما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها، وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشببيتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فنفارق الأجسام النفوس، وعمارتها بالخراب، واجتماعها بفرقة الأحباب، وكل ما فوق التراب تراب" (٢).

هذا؛ والمتأمل في كتاب الله يجد أن الله بين لنا بوضوح أن متاع الدنيا وإن كثر فهو فتنة للناس، لا اختبارهم بها، وأن متاع الدنيا لا ينفع في الآخرة، وإنما ينفعهم في الآخرة الباقيات الصالحات من الإيمان والعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿وَالْوِاسْتِقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فِتْنَةٌ وَأَنْتَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأففال: ٢٨]، وقال ب: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]، وقال ج: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال د: ﴿أَمْ أَلَمَ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَقِيَّتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا

(١) عدة الصابرين (ص: ١٧٢).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٢٨).

وَحَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال جل شأنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فأكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق أو يتغافلون عنها، فيجهلون أو يتجاهلون أن متاع الدنيا سريع الزوال، وأن الآخرة هي دار القرار، وأنها خير وأبقى من الدنيا الفانية.

وبسبب جهل الكفار بحقيقة الدنيا الفانية، وعدم يقينهم بالآخرة الآتية الباقية، صارت الدنيا أكبر همهم، ومبلغ علمهم، ومنتهى آمالهم، فهمهم التمتع بشهواتها وملذاتها، وهم أكثر الناس حرصًا عليها، وأعلم بها من غيرهم غالبًا، قال الله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٦-٧]، وقال β: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿زِينٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

وتأمل قول الله في آية سورة الحديد التي افتتحنا بها هذا الفصل: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]، قال القرطبي: "الكفار هنا الكافرون بالله β؛ لأنهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين، فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها، وفي الموحدين من ذلك فروعٌ تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة" (١).

(١) تفسير القرطبي (١٧ / ٢٥٦).

وقال ابن كثير: "قوله: ﴿عَجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: يعجب الزُّرَاعُ نباتُ ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار؛ فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها" (١).

فمن كان لا يريد إلا الدنيا فهو في غفلة عما خلقه الله من أجله، وهو عبادته وشكره، وقد حذّر الله مَنْ إرادة الدنيا دون الآخرة، وذمّ من كان همه ذلك، وأمر المسلمين بالإعراض عنه، وحذّر من الاغترار بالكفار الذين هَمُّهُمُ الدنيا الفانية، ولا يعملون للآخرة الباقية، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩]، وقال β: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

فالمسلمون مأمورون أولاً بعبادة الله، والتنافس في طاعته، والاجتهاد في تعلم كتابه وسنة رسوله والعمل بهما، والحرص على إقامة شريعته وتحكيمها، والاستفادة من الخيرات التي وضعها الله في الأرض لمنافع عباده، وليسوا مأمورين بمنافسة غيرهم على الدنيا الفانية، بل أمرهم الله بالتنافس والمسابقة في طاعته، ففي تحقيق الإيمان والعمل الصالح كل خير في الدنيا والآخرة للشعوب والأفراد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٢٤).

ءَامُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال سبحانه عن أهل الكتاب من قبلنا: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

ففي تقوى الله خير عظيم للشعوب والجماعات، وخير عظيم للأفراد إن حققوا التقوى بقدر الاستطاعة عند فساد الناس، قال الله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال β: ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

هذا، وإنَّ المسلمين مطالبون شرعًا بطلب الرزق الحلال، واستغلال الأرض بما ينفع العباد، والحرص على نفع الناس وقضاء حوائجهم، وعلاج أمراضهم، والتخفيف عنهم في جميع أمورهم، وقد جاءت نصوص كثيرة تُرغِّب في كل ذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠]، وعن أنس بن مالك η قال: قال رسول الله γ: «إِن قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»<sup>(١)</sup>، وعن أسامة بن شريك η قال: قال رسول الله γ: «تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه أحمد (١٢٩٠٢) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) رواه الترمذي (١٨٤٥٥) وصححه هو وابن حبان والألباني والأرناؤوط.

فالإسلام جاء بصلاح الدين أولاً والدنيا ثانياً، وجاء بما يسعد الإنسان في الآخرة الباقية والأولى الفانية، ومن أعظم أدعية القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وكان من أدعية النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»<sup>(١)</sup>.

وكون الآخرة هي المقدّمة عند المسلم على الدنيا لا يعني أنّ المسلم يترك جميع ملذات الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسَسَّ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصاص: ٧٧]، وقال ع: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِه وَأَطَّيَّبَتْ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فأباح الله للمسلم التمتع بالحلال.

ولا يعني الزهد في الدنيا ترك جمع الأموال من جُلّها، فنعمّ المال الصالح للرجل الصالح، الذي ينفقها في مرضاة الله، وكم في القرآن من آيات فيها الثناء على المنفقين أموالهم في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ووردت أحاديث كثيرة في الحث على الصدقة والسخاء، وأعظم من يقوم بهذا أهل السعة والفضل من أغنياء المسلمين؛ ولذا كان كثير من علماء السلف وعُبَادِهِم يحثون الناس

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة هـ.

على جمع المال والتجارة فيه، وكانوا يوصون صاحب المال أن يترك العجز والكسل، وأن يحرص على ما يُنمي ماله لينفع نفسه وأهله والمسلمين، وحفظ المال وتنميته بالتجارة ونحوها من مقاصد الشريعة الإسلامية<sup>(١)</sup>، وكان السلف الصالح يعدون إصلاح المال وتنميته من المروءة، والناظر في سيرة أغنياء السلف الصالحين يجد أنهم كانوا يتوسعون في جمع المال بما يستطيعون من حله، مع زهدهم وورعهم، وكان قصدهم بجمع المال التقرب به إلى الله بإخراج زكاته والتصدق منه، ويجاهدون به في سبيل الله، فكانوا ينفقون أموالهم سرًا وجهرًا، وليلاً ونهارًا.

ولا يعني قولنا: إنَّ المسلمين غير مطالبين شرعًا أن يكونوا أفضل من الكفار في أمور الدنيا ترك أي علم دنيوي أو اختراع ينفع المسلمين في دينهم أو دنياهم، فالحكمة ضالة المسلم أتى وجدها فهو أحق بها، وقد استفاد النبي ﷺ في غزوة الخندق من خطة فارسية لم يكن يعلمها العرب، وهي حفر الخندق، واستفاد الصحابة في وضع الدواوين بعد فتوح العراق والشام ومصر بما كان عند أهلها الكفار، ولم يحصل تعريب الدواوين إلا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كما ذكر ذلك المؤرخون، بل إنَّ المسلمين في بعض فترات تاريخهم المشرق فاقوا كثيرًا من أمم الأرض في كثير من الأمور الدنيوية، وفي كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه تفصيل ذلك، فقد بينت الكاتبة في كتابها

(١) يُنظر: كتاب الحث على التجارة والصناعة والعمل لأبي بكر الخلال، وكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور (٣/٤٦٦ - ٤٨٩).

أثر الحضارة العربية في أوروبا في مختلف المجالات الدنيوية: الاقتصادية والطبية والفلكية والرياضية والميكانيكية والعمرانية حتى اللغوية، بل إن من المسلمين اليوم من يتفوق على كثير من الكفار في كثير من المجالات الدنيوية كما هو معلوم.

فالإسلام يحث المسلمين على كل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ففي الحديث الصحيح الذي يعتبر قانوناً ومنهجاً للمسلمين في جميع أمورهم، أفراداً وشعوباً ودولاً: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»<sup>(١)</sup>، فالمسلم مأمور أن يحرص على ما ينفعه في دينه أولاً ودنياه ثانياً، ومن ذلك أن يتزود من العلم النافع لا سيما في تخصصه، وأن يتقن عمله، وأن يحرص أن يكون قوياً نافعاً للناس بأي قوة تتيسر له، إما بقوة بدنه أو قوة ماله أو قوة علمه أو قوة اختراعاته وإبداعاته التي تنفع الناس، ففي الحديث: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»<sup>(٢)</sup>، وقد رغب النبي ﷺ في كل معروف يقدمه المسلم لغيره فقال: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»<sup>(٣)</sup>، حتى قال ﷺ: «وَتَمِيطُ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»<sup>(٤)</sup>، وقال: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة هـ.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة هـ.

(٣) رواه البخاري (٦٠٢١) من حديث جابر هـ، ومسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة هـ.

(٤) رواه البخاري (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة هـ.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»<sup>(١)</sup>،  
بل رغب النبي ﷺ أيضاً في رحمة الحيوانات والرفق بها فقال: «فِي كُلِّ كَبِدٍ  
رَطْبَةٌ أَجْرٌ»<sup>(٢)</sup>.

فالإسلام يُرغِّب في كل ما ينفع الناس في حياتهم، ومعاشهم، وصحتهم،  
من أمور الطب، والبناء النافع، والصناعات المتنوعة، والعلوم المفيدة،  
وعلى المسلمين أن يحرصوا على الاكتفاء الذاتي في كل ما يحتاجون إليه  
في أمور دنياهم، وقد نص الفقهاء على وجوب تعلُّم الحرف والصناعات  
المهمة التي يحتاجها المسلمون، ولا ينتظم أمرهم إلا بحصولها، وأنها من  
فروض الكفايات التي يجب على بعض المسلمين القيام بها، وإلا أثم جميعهم  
لتركهم تحصيلها مع القدرة على ذلك<sup>(٣)</sup>.

هذا، وإنَّ من عبادة الله وطاعته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
بحسب الإمكان، والجهاد في سبيل الله لأهل الكفر والنفاق، فيجب على  
المسلمين أن يجتهدوا في إقامة دين الله مستعينين بالله، رافعين بذلك ما قدَّر  
من السيئات، دافعين بذلك ما يُخاف من آثار ذلك، كما يزيل الإنسان الجوع  
الحاضر بالأكل، ويدفع به الجوع المستقبل<sup>(٤)</sup>.

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة هـ.

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة هـ.

(٣) يُنظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ٣٠٦)، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه للمرداوي  
(٢/ ٨٧٥)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (١/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: العبودية لابن تيمية (ص: ٦١).

فأهم المهمات التي يجب على المسلمين إقامتها هو الدين، وبذلك وصّى الله جميع النبيين وأمهم كما قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٣-١٥].

فواجب على المسلمين حكماً ومحكوماً أن يعملوا بجميع الأسباب المشروعة لإقامة الدين ونشره والدفاع عن حرماته، وقد قرر العلماء أن القوة مطلب شرعي، فالإسلام دين القوة والعزة، وينهى عن الضعف والمهانة، ويحذر من موالات الأعداء والتبعية لهم، ويأمر بتحصيل جميع أسباب القوة المادية والمعنوية بقدر الإمكان، ولا عزة للمسلمين إلا بالإسلام، ومهما ابتغوا العزة في غيره أذلهم الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

## (٤٠) أسباب النصر والتمكين

الحق والباطل في صراع مستمر، وقد أخبرنا الله عن استمرار الكافرين في قتال المسلمين ليصرفوهم عن دينهم الحق فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]، وبين الله لنا في كتابه أن الكافرين يكيّدون بالمسلمين ويمكرون بهم في كل حين، فقال عز شأنه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، وقال ﷻ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦].

ومن حكمة الله أنه يدفع شر بعض الناس ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]، ففرض الله الجهاد على هذه الأمة، وأخبر النبي ﷺ عن الجهاد بأنه ذروة سنام الإسلام، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقد جعل الله للنصر والتمكين أسباباً متى أخذ بها المسلمون نصرهم الله على أعدائهم، وهذه الأسباب كلها مذكورة في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ

هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِيَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿ [الإسراء: ٩]، أي: يهدي للخصلة التي هي أحسن الخصال، فالقرآن تبيان لكل شيء، ومن أعظم ما بينه القرآن أسباب النصر والتمكين، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]، قال المفسرون: أي: في القرآن عركم وشرفكم ورفعتمكم في الدنيا والآخرة.

### وفيما يلي بيان أسباب النصر والتمكين من القرآن الكريم:

(١) الإيمان والعمل الصالح: قال الله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١]، وقال ﷻ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ [النساء: ١٤١]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٣٨﴾ [الحج: ٣٨]، وقال جل شأنه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ [الأنفال: ١٩]، فالله سبحانه مع المؤمنين الصالحين بالنصر والتأييد، وقد وعدهم بالدفاع عنهم، وضمن لهم إن حققوا الإيمان اعتقاداً وقولاً وعملاً أن لا يجعل للكافرين عليهم سبيلاً مستمرة في كل حين، فقد ينتصر الكفار في بعض المواطن والأوقات بسبب تفريط المؤمنين في بعض أسباب النصر، وسنة الله التي لا تتخلف أن ينصر المؤمنين الكاملين الإيمان في الحياة الدنيا على أعدائهم بالغلبة إن قاتلوهم، وبالحجة إن ناظروهم، وبالانتقام منهم إن قتلوهم وظلموهم.

فالسحابة ﴿ حين حققوا الإيمان والعمل الصالح بطاعة الله ورسوله نصرهم الله على جميع أعدائهم، فهزموا جيوش المرتدين، وفتحوا فارس،

وغلّبوا الروم، ولم يستطع أحد أن يقف أمامهم، وتحقق وعد الله لهم في قوله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا  
أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم  
مِّن بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ  
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا  
الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ  
لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

قال ابن تيمية: "سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين إذا قاموا  
بالواجب على الكافرين وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب  
من عنده أو بأيدي المؤمنين هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط" (١).

فإذا حقق المؤمنون الإيمان والعمل الصالح في أي زمان ومكان، فتمسكوا  
بالقرآن والسنة، وأطاعوا الله ورسوله، فإنه يرحمهم، وينصرهم على  
أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ  
تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال β: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ  
﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وعن ثوبان η أن رسول الله γ قال: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ  
مِّنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ» (٢).

(١) الرد على المنطقيين (ص: ٣٩٠).

(٢) رواه ابن ماجه (١٠) بإسناد صحيح، وأصله في صحيح مسلم (١٩٢٠).

وإن حصل للمسلمين انهزام في بعض المواطن أو الأزمان فهو من عند أنفسهم، بذنوبهم ومخالفتهم ما أمرهم الله ورسوله، كما قال سبحانه للصحابة في غزوة أحد: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فالله لا يجامل أحداً، فمن وقى بما أمره الله وفاه الله ما وعده، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال ابن تيمية: "الله تعالى قد يدل الكافرين على المؤمنين تارة كما يدل المؤمنين على الكافرين، كما كان يكون لأصحاب النبي ﷺ مع عدوهم لكن العقاب للمتقين، ... وإذا كان في المسلمين ضعف، وكان عدوهم مستظهِراً عليهم، كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم؛ إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا"<sup>(١)</sup>.

وقال ابن القيم: "النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه ... والله سبحانه قد بين في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذا كثير في القرآن، وقد بين سبحانه فيه أن ما أصاب العبد من مصيبة، أو إدالة عدو، أو كسر، وغير ذلك فبذنوبه"<sup>(٢)</sup>.

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٦٤٥).

(٢) إغاثة اللهفان (٢ / ١٨٢، ١٨٣).

(٢) تقوى الله والإخلاص: تقوى الله هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأعظم ما أمر الله به التوحيد والإخلاص، وأعظم ما نهى الله عنه الشرك، ومنه الرياء، وإرادة الدنيا بعمل الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وتقوى الله والإخلاص في الجهاد من أعظم أسباب النصر، قال الله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال جل وعز: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولا يكون الجهاد عملاً صالحاً مقبولاً إلا إذا كان خالصاً لله، وإلا كان رياءً وسمعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وقد أكد الله على الإخلاص في الجهاد في آيات كثيرة، فلا بد أن يكون الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وعن أبي موسى الأشعري  $\eta$  قال: سئل رسول الله  $\gamma$  عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل

الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١).

فالمخلص في جهاده يريد رضا الله، ويريد بجهاده ثواب الله في الآخرة، فهو يُضحي بنفسه وأمواله وأوقاته في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] أي: يبيعون الحياة الدنيا ومتاعها القليل الزائل بالآخرة الباقية.

فإذا كان المجاهدون من المؤمنين المتقين الصادقين، وأخلصوا في جهادهم لله رب العالمين، وأخذوا بأسباب النصر التي بينها الله في كتابه بقدر الاستطاعة؛ فعاقبتهم النصر بإذن الله.

(٣) نصره الله: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِن مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، فمن أعظم أسباب النصر نصره الله، وذلك بإقامة الدين الحق علماً وعملاً وحكماً، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فواجب على المسلمين حكماً ومحكومين أن يعملوا بالأسباب المشروعة لإقامة دين الإسلام ونشره، والدفاع عن حرمانه، والسعي في دفع الظلم عن أهله، وإزالة

(١) رواه البخاري (٢٨١٠) ومسلم (١٩٠٤).

الفساد بأنواعه، ونصر المستضعفين في الأرض بقدر الاستطاعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

(٤) اجتماع الكلمة على الحق، وإصلاح ذات البين، وعدم التنازع

والتفرّق، والقتال تحت راية واحدة بقيادة واحدة: قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا

بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال β في أول سورة الجهاد

وهي سورة الأنفال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، فأول

طريق التمكين للأمة تقوى الله وإصلاح ذات البين، فهما أول الوصايا في

سورة الجهاد، فإذا لم يحقق المسلمون تقوى الله بطاعة الله ورسوله،

وتنازعا واختلفوا؛ زالت قوتهم، وتسلب عليهم أعداؤهم، كما قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]،

ومعنى ربحكم: أي: نصركم وقوتكم ودولتكم، وقال β: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ

بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهْمُ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فلا بد في الجهاد من قائد واحد يُقاتل في سبيل الله

تحت قيادته؛ لينظّم الصفوف، ويضع الخطط، وينسّق الجهود، كما قال الله

تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾

[آل عمران: ١٢١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا

كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرَصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وإنّ من الأمور المهمة التي يؤكد عليها الإسلام لأجل مصلحة اجتماع

الكلمة، ودفع مفسدة التفرّق والاختلاف: أن لا يُنازع الناس من ولاء الله

أمرهم، فالملك لله يؤتیه من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ

يَشَاءُ ﴿ [البقرة: ٢٤٧]، وقال سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [آل عمران: ٢٦].

وعن أنس بن مالك  $\eta$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَانَ رَأْسَهُ زَبِيبَةً» (١).

وعن عبادة بن الصامت  $\eta$  أَنَّ النَّبِيَّ  $\gamma$  أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْبَيْعَةَ فَكَانَ فِيهَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» (٢).

والناظر في تاريخ المسلمين القديم والمعاصر يجد أن كثيرًا من الناس يسعون في تغيير حكاهم، ولا يحرصون على إصلاحهم والتعاون معهم على الخير، بدعوى أنهم أحق بالملك منهم، كما قالت بنو إسرائيل عن طالوت: ﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فتقع الفتن العظيمة من أجل الملك، وقد نهى النبي  $\gamma$  عن القتال في الفتنة، وعن القتال تحت كل راية عميَّة وعصبية، وأمر  $\mu$  باعتزال القتال عند اختلاف الأمة، فعن حذيفة  $\eta$  أَنَّ النَّبِيَّ  $\gamma$  أَخْبَرَ عَنْ أُمَّةٍ يَكُونُونَ بَعْدَهُ فِيهِمْ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدًى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نَعَمْ، دُعَاءٌ إِلَىٰ أَبْوَابِ

(١) رواه البخاري (٧١٤٢).

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٦) ومسلم (١٧٠٩).

جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَّمُونَ بِأَسْنِنَتِنَا» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تَلَزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟! قال: «فَاعْتَرَلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>، فأمر النبي ﷺ بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم وإن كان فيه خير وشر، ولم يأمر بالسعي في تغييره وخلعه والخروج عليه ما دام مسلمًا يحكم الناس بشرع الله، وإن كان فيه دخن، وعلى العلماء والدعاة مسئولية دعوة الحكام إلى توحيد الله وطاعته، ونصحهم بإقامة العدل وترك الظلم، وترغيبهم في إصلاح دين الناس ودنياهم، وحثهم على الحكم بما أنزل الله، وتحذيرهم من الحكم بغير ما أنزل الله، والبيان الواضح لهم بأنّ تبديل شرع الله كفرٌ صراح، وأنّ فاعله مرتد عن الدين، وفي الحديث المشهور: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»<sup>(٢)</sup>.

فعلى أهل العلم أن يناصروا ولاية الأمر، ويحثوهم على الخير، ولا يجاملونهم بالسكوت عن منكراتهم، ولا يعينونهم على ظلم العباد، ولا يبررون لهم الفساد، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه، فعن كعب بن عجرة  $\eta$  أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه أحمد (١١١٤٣) وحسنه الترمذي (٢١٧٤)، وصححه الألباني من حديث أبي سعيد

الخدري  $\eta$ .

فَصَدَّقَهُمْ بِكُذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ  
بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكُذِبِهِمْ، وَيُعِنُّهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ  
مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ» (١).

وإنَّ الناظر في سير علماء الأمة الراسخين يجدهم على منهج الأنبياء في  
الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومناصحة ولاة  
الأمر، وحثهم على الجهاد في سبيل الله، مع عدم السعي للسلطة، ومن ذلك  
ما ذكره المؤرخون عن ابن تيمية من الاجتهاد العظيم في حث السلطان  
وأمرائه زمانه على قتال التتار، وتشجيعه لهم، وغلظته عليهم أحياناً إن رأى  
منهم إعراضاً وجبنًا، حتى ظن بعضهم أنه يسعى لخلع السلطان، وحدث أن  
وُشي بآبن تيمية إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون بأنَّ  
في نفسه أخذ الملك، فصارحه السلطان بذلك ليتثبت من الخبر، فقال له ابن  
تيمية بنفس مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عالٍ: "أنا أفعل ذلك؟! والله إنَّ  
مُلْكَكَ ومُلْكُ المغول لا يساوي عندي فلسين!"، فتبسم السلطان وقال: إنك  
والله لصادق، وإنَّ الذي وشى بك إليَّ كاذب (٢).

فمن أعظم أسباب النصر اجتماع الكلمة، وإصلاح ذات البين، وعدم  
التنازع والتفرق، والقتال تحت راية واحدة بقيادة واحدة، فواجبٌ على  
جميع المسلمين حكماً ومحكومين أن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن  
يصلحوا ما يقع من خلاف بين حكام المسلمين، أو بين الحكام وشعوبهم، أو

(١) رواه أحمد (١٨١٢٦) وغيره وصححه الألباني والأرنؤوط.

(٢) يُنظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية لعمر البزار (ص: ٧٢، ٧٣).

بين العلماء والدعاة وطلاب العلم فيما بينهم، فقد صار حال كثير من المسلمين كما قال الله عن اليهود: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحَسَبُكُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤]، فإذا لم نصلح ذات بيننا فنحن لا نعقل مصالحناء، ولا نفهم ديننا، فالصلح خير كما أخبرنا الله، وهو سبب لرحمة الله لنا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]، فيجب أن نسعى للإصلاح بين المسلمين، وأن نتسع صدورنا في مسائل الاجتهاد، وأن ينصح بعضنا بعضاً، وأن يستغفر بعضنا لبعض، وأن تتضافر جهود جميع المسلمين على هدف واحد وهو الجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦]، كلٌ يجاهد في ثغره، بقدر ما يستطيع بنفسه أو بماله أو لسانه، ولو بالدعاء، فقد علمنا الله أن ندعوه أن يغفر لنا وأن ينصرنا على القوم الكافرين في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن دَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فيكون هم المسلمين جميعاً حكماً ومحكومين أن ينصرهم الله على القوم الكافرين، فيكون الجهاد جهاد أمة لا جهاد بعض الأفراد من الأمة، لا سيما في جهاد الدفع، وقد قرر العلماء أن من أعظم واجبات الحاكم المسلم أن يسعى في إقامة الجهاد بجميع وسائله، وأن يحث المسلمين على الاستعداد له، ففي الجهاد عزهم، وصلاح

أمورهم في دينهم ودنياهم، وقرر العلماء أنه لا يجوز للحاكم المسلم أن يُبطل الجهاد ويُعرض عنه مطلقاً، فالصراع مستمر بين الحق والباطل<sup>(١)</sup>.

(٥) إعداد ما يُستطاع من قوّة: القوة مطلب شرعي، فالإسلام دين القوة والعزة، وقوام الإسلام بكتاب يهدي، وسيف ينصر، فليس كل الناس تنفعه الموعدة والحكمة، فمن الناس من لا يرتدع عن غيه إلا بالقوة والشدة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ ولذلك أمر الله المؤمنين بتحصيل القوة بجميع معانيها وأنواعها بقدر الاستطاعة، قال الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالإسلام يأمر بتحصيل جميع أسباب القوة المادية والمعنوية بقدر الإمكان.

(٦) الصبر في الجهاد، والثبات عند اللقاء: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ

(١) يُنظر: المغني لابن قدامة (٩/ ٢٩٨)، السيل الجرار للشوكاني (ص: ٩٥٠، ٩٥١)، أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد (ص: ٢٦٥ - ٢٨٥)، فتاوى اللجنة الدائمة - ١ (١٢/١٢).

فِعَةً قَانْتَبُوا وَادَّكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]، وعن ابن عباس  $\kappa$  أن النبي  $\gamma$  قال: «وَاعْلَمُ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» (١).

(٧) إقامة الصلاة والإكثار من ذكر الله واستغفاره ودعائه والاستغاثة به: لا بد أن تكون صلة المجاهدين بالله عظيمة لتحقيق النصر؛ ولذلك أمرهم الله بالمحافظة على الصلاة وإقامتها، ولم يرخص لهم في تركها حتى في حال الخوف والقتال، قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، فمن أسباب النصر: إقامة الصلاة، فهي عمود الدين، ومن أسباب النصر: الإكثار من ذكر الله واستغفاره ودعائه والاستغاثة به، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً قَانْتَبُوا وَادَّكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة<sup>٢</sup> والله يحب المحسنين ﴿٢٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨]، وقال  $\beta$ : ﴿أَمَّن

(١) رواه أحمد بن حنبل (٢٨٠٣) وصححه الأرنؤوط.

يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴿٦٢﴾  
[النمل: ٦٢]، وقال سبحانه مثنيًا على نبيه وأصحابه يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، فالنبي ﷺ وأصحابه كانوا يستغيثون بالله يوم بدر استغاثة عظيمة مع وعد الله لهم بالنصر في تلك الغزوة بعينها، فعلى غيرهم الاستغاثة العظيمة بالله من باب أولى.

(٨) التوكل على الله: يجب على المسلمين أن تتعلق قلوبهم بالله وحده في طلب تحقيق النصر، ويتبرءوا من حولهم وقوتهم، قال الله تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِّن عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦]، فالتوكل من أعظم أسباب النصر؛ لأن المتوكلين يفوضون أمورهم إلى الله القادر على كل شيء، فيعتمدون على الله وحده في جلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، مع أخذهم بالأسباب الشرعية المتيسرة لهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

وإن من الواجبات الشرعية على الأمة أن تتوكل على الله في جلب ما ينفعها في دينها ودنياها، وفي دفع ما يضرها في دينها ودنياها، وأن تسعى في إصلاح أمورها كلها، الاقتصادية والزراعية والصناعية والتجارية والاجتماعية والطبية والسياسية والحربية وغير ذلك.

(٩) **وضوح الغاية من الجهاد:** من أسباب النصر أن يكون هدف المسلمين من الجهاد واضحًا، وهو إعلاء كلمة الله، ونشر الدين لإنقاذ الكافرين من عذاب الله في جهاد الطلب (الغزو)، والدفاع عن المسلمين وحماية دينهم ومقدساتهم وأعراضهم وأموالهم وأرضهم في جهاد الدفع، فالجهاد في الإسلام ليس لأطماع دنيوية، ولا لمنافع مادية، وإنما هو لإعلاء كلمة الله، ولإنقاذ الكافرين من عذاب الله؛ ولذلك كان الجهاد من أساليب الدعوة إلى الله، وعلى المسلمين أن يحثوا أعداءهم على التوبة إلى الله، ويقبلوا توبة التائبين منهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٨-٣٩].

(١٠) **موالاة المؤمنين، والبراءة من الكافرين والظالمين:** قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]، فمن أعظم أسباب النصر: الولاء للمؤمنين المتقين، أينما كانوا، من غير تعصب لبعضهم على بعض، والبراءة من الكافرين والظالمين، قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

عَنْهُ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢]، فإن لم يحقق المسلمون الولاء والبراء كما أمرهم الله، وصاروا أحراباً متفرقين، وصارت لهم ولاءات ضيقة، فستكون فتنة في الأرض وفساد كبير، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ [الأنفال: ٧٣].

(١١) الحكمة في الجهاد: قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣١٦﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، والإسلام دين القوة والحكمة، والحكمة في الجهاد لها صور كثيرة:

• فمن الحكمة في الجهاد: التثبت، والمشاورة، والرجوع إلى المتخصصين في كل أمر، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال ب: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]، وأولو الأمر هم الأمراء والعلماء، ويدخل في العلماء كل متخصص في أي علم نافع، من العلوم العسكرية والهندسية والسياسية والطبية والإعلامية والتقنية وغيرها.

• ومن الحكمة: التعامل بحكمة وحزم في قضايا النوازل، بلا عنف ولا ضعف، والرجوع في حل كل خلاف بين المسلمين إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرضا بحكم الشريعة، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا

اللَّهُ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

• ومن الحكمة: المحافظة على سيادة الدولة المسلمة وعزتها، وعدم الرضا بالذلة والمهانة، وترك التبعية في السياسة لأي دولة من الدول الكافرة، وعدم اتخاذ أولياء من غير المسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨].

• ومن الحكمة في الجهاد: الحذر من كيد الكافرين ومكرهم، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

• ومن الحكمة في الجهاد: الكيد بالكافرين في الحرب، فالحرب خدعة كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>، ومن الآيات التي فيها دلالة على الكيد في الحرب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ [الأنفال: ١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥].

• ومن الحكمة في الجهاد: قبول الصلح والهدنة مع الكفار إن كان في ذلك مصلحة راجحة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

(١) رواه البخاري (٣٠٢٩) ومسلم (١٧٤٠) من حديث أبي هريرة ٧.

• ومن الحكمة في الجهاد: تحييد الأعداء، وترك من لم يقاتل المسلمين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

• ومن الحكمة: مدافعة الغزو الثقافي والفكري، وصد الشائعات، وكشف الشبهات، وتسمية الأشياء بأسمائها الشرعية، وتبيين المصطلحات على حقيقتها، فمن كيد أعداء الدين تلاعبهم بالمصطلحات لتلبس الحق بالباطل، فحرب المصطلحات معركة خطيرة، شديدة الفاعلية، قوية التأثير، تتسلل كالخلية السرطانية إلى عقول الناس لتسكنها، وتبدأ في تخريب ما حولها، وذلك بعد أن يُمكن لها عن طريق الإلحاح الإعلامي، والمتأمل في القرآن الكريم يجد كثيرًا من الآيات في إبطال دعاوى المشركين في القرآن والرسول ﷺ، وكشف شبهاتهم، وتسمية الأشياء على حقيقتها بوضوح كالإيمان والكفر والنفاق والفسوق، وتصنيف الناس بحسب عقائدهم وأعمالهم إلى مؤمنين ويهود ونصارى ومجوس ومشركين، وذكر حقيقة الجهاد والمجاهدين ونحو ذلك من المصطلحات.

• ومن الحكمة: تحريض المؤمنين على الجهاد، والاهتمام الكبير بالتوجيه المعنوي، والإعلام الحربي، والحرب النفسية على الأعداء، قال الله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤]، وقال ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقال ﷺ: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ  
بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾  
[الأنفال: ١٢-١٤].

• ومن الحكمة في الجهاد: وجود البيئة الحاضنة للمجاهدين في سبيل الله،  
فالله آوى نبيه ﷺ والمهاجرين في المدينة، ثم أيدهم بنصره في غزوة  
بدر الكبرى، ثم ما تلاها من فتوحات في عهد النبي ﷺ وخلفائه  
الراشدين، قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ  
تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦]، فالماوى المناسب للمجاهدين أمر  
مهم في قواعد الحرب والسلام، في الماضي والحاضر والمستقبل.

• ومن الحكمة: تنقية صفوف المجاهدين من المرجفين والمخذلين  
والمنافقين والمفسدين، قال الله عن المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا  
زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفِتْنَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ  
لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ [التوبة: ٤٧].

• ومن الحكمة: تشجيع من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً على التوبة،  
وقبول توبة التائبين، واحتضانهم، وعدم الاستغناء عنهم، قال الله تعالى:  
﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ  
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ

إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا  
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ [النحل: ١١٠].

• ومن الحكمة: عذر من أخطأ الطريق من العاملين للإسلام في بعض الأمور من غير قصد للمخالفة، أو باجتهاد خاطئ أو تقدير مصلحة مرجوحة، والثناء على كل من عمل للإسلام فيما أصاب فيه، والاستغفار له فيما أخطأ فيه، وإلى هذا هدى الله نبيه محمداً ﷺ في تعامله مع أصحابه الذين أخطأوا في غزوة أحد، وتسببوا في هزيمة المسلمين، قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فهذه سنة نبي الرحمة، ونبي التوبة، وليس من سنته التنفير والتعسير، وقد أمر الله بالعدل والإحسان في معاملة الخلق، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فمن غلب خيره شره فهو على خير، سواء كان سلطاناً أو أميراً أو وزيراً أو عالماً أو مفتياً أو مصنفًا أو عابداً أو مجاهداً أو طبيباً أو جماعة أو دولة أو غير ذلك، قال ابن القيم: "من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر؛ فإنه يُحتمل له ما لا يُحتمل لغيره، ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث" (١). فكل مسلم تحرى الحق بقدر استطاعته،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٦).

واجتهد فيما يقربه إلى الله، ثم أخطأ فينبغي عذره، والاستغفار له، مع التناصح والتواصي بالحق، وقد أمر الله بالاستغفار لأهل الإسلام المذنبين فقال سبحانه: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فمن حق المسلم على جميع المسلمين أن يستغفروا الله له، فمن باب أولى من أخطأ من غير تعمد للخطأ، قال الله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وهذا من رحمة الله بعباده. وقد نص العلماء ٥ تعالى على أن من أقدم على أمرٍ مفسقٍ متأولاً لشبهة عنده أنه لا يأثم، وأنه عدلٌ لا تُجرح عدالته بوقوعه في ذلك الفسق ما دام تأويله سائغاً<sup>(١)</sup>. والخطأ المرفوع عن هذه الأمة المرحومة يعم الخطأ في العلم والخطأ في العمل، قال ابن تيمية: "إن المتأول الذي قصد متابعة الرسول ٧ لا يُكفّر ولا يُفسق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كُفّر المخطئين فيها، وهذا القول لا يُعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفّرون من خالفهم"<sup>(٢)</sup>.

(١٢) حسن الأخلاق: الإسلام دين الأخلاق الكريمة، فهو يأمر بكل خلق حسن، وينهى عن كل خلق سيء، وقد قال الله عن نبيه محمد ٧: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى

(١) يُنظر: الأحكام للأمدي (١١٨/٢)، المسودة في الأصول لابن تيمية (ص: ٢٦٥)، حاشية العطار على شرح جمع الجوامع (١٧٨/٢)، شرح روضة الناظر لعبد الكريم النملة (٣/٢١٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/٢٣٩).

حُلِقَ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ [القلم:٤]، وعن أبي هريرة  $\eta$  قال: قال رسول الله  $\gamma$ : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»<sup>(١)</sup>، وإنَّ من أسباب النصر: التحلي بالأخلاق الفاضلة مع الأعداء، وهذا مما يدعوهم إلى الإسلام، ويرغبهم في التوبة إلى الله.

هذه أهم أسباب النصر والتمكين كما بينها الله لنا في القرآن الكريم، فإذا اتقى الله المسلمون فأخذوا بها بقدر استطاعتهم؛ فسينصرهم الله، ولن يخلف الله وعده، وإن ظلموا أنفسهم فقصروا في الأخذ بها؛ فلا يلوموا إلا أنفسهم، وسينصر الله دينه بغيرهم، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقال  $\beta$ : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

## فوائد منتقاة من كتاب (أربعون) للشقيري

لا يخلو كتاب من فائدة، وبعض الكتب التي حذر منها العلماء هذبوها أو اختصروها نصحاً للمسلمين، وقبل أن أذكر بعض فوائد كتاب (أربعون) لأحمد الشقيري أنقل قصة تأليف الكتاب، فقد ذكر الشقيري في كتابه<sup>(١)</sup> أنه قرر بعد أن وصل إلى سن الأربعين أن يخلو في جزيرة نائية أربعين يوماً بلا إنترنت ولا تكنولوجيا، واختار جزيرة صغيرة في المحيط الهندي، يعيش فيها نحو ٦٠ شخصاً<sup>(٢)</sup>، واستأجر بيتاً فيها، وصام مدة أربعين يوماً<sup>(٣)</sup>، وكان يقوم يطبخ بنفسه، ويقوم بغسل ملابسه، وقرأ في هذه الفترة كتباً كثيرة متنوعة كانت معه في جهاز كيندل، وهو جهاز لوحي لقراءة الكتب الإلكترونية، وذكر أنه مؤمن بمبدأ الخلوة حتى يأخذ الإنسان قرارات مصيرية في حياته، ويترك بعض عاداته السيئة، وليُقيّم الماضي، ويخطط للمستقبل، وكتب خلال هذه الفترة كتابه (أربعون)، وهي خواطر متفرقة جعلها تحت هذه العناوين، وجعل لكل عنوان أربعين خاطرة:

مع حياتي، مع قرآني، مع نفسي، مع تحسيناتي، مع قصصي، مع إلهي، مع كتبي، مع حكّم الناس، مع ذكرياتي، مع حكّمِي.

(١) (ص: ٧ - ١١).

(٢) ذكر هذا (ص: ٥٠).

(٣) ذكر هذا (ص: ١٥٤).

## ومن الفوائد الحسنة التي ذكرها الشقيري في كتابه أربعون:

- ينصح الشقيري بالخلوة ولو أسبوعاً أو يوماً، ومحاولة اعتزال الناس بدون إنترنت وبدون موبايل، وتحاول تحليل حياتك وتخطط للمستقبل<sup>(١)</sup>، قلت: أفضل الخلوة بالاعتكاف في المساجد ولو بين صلاتي المغرب والعشاء لتلاوة القرآن الكريم وذكر الله سبحانه أو حضور مجالس علمية، وأفضل أوقات الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، ولو بعض العشر.
- كثير من الخصومات حلها يكون بالسكوت عن الجواب، وعدم الرد على الخصم المتحمس، ومع الوقت ستجده يلين وحده<sup>(٢)</sup>.
- يجب على الناس أن يفهموا أن الشهرة خادعة ومزيفة، وأن لها عيوباً كثيرة كما لها إيجابيات كثيرة<sup>(٣)</sup>.
- الطفولة تحدد كثيراً من عادات الإنسان<sup>(٤)</sup>.
- النعم سريعة الهروب إذا لم يقيدها الإنسان بشكر الله عليها، والصدقات أحسن وسائل شكر النعم، وذكر المؤلف أحمد الشقيري سعادته الكبيرة حين كفل يتيمًا، وحث على الصدقة بشكل يومي<sup>(٥)</sup>.
- كلما زادت حاجتك وكلما كان دعاؤك لله بكل قلبك وجوارحك كانت

(١) (ص: ٦، ١٥٦).

(٢) (ص: ١٤).

(٣) (ص: ١٧، ١٨، ٣٩ - ٤١).

(٤) (ص: ٢١).

(٥) (ص: ٢٤، ٢٥).

الدعوة أعمق، ولا تستعجل إجابة الله لدعائك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد أنت، فإما أن يعطيك ما سألته في الدنيا أو يصرف عنك شرًا كان سيقع عليك لو لم تدعوه أو يعطيك في الجنة ثوابًا عظيمًا بقدر دعوتك<sup>(١)</sup>.

تغيير المجتمعات ليتركوا بعض العادات السيئة يحتاج إلى عقود من الزمن، فهم يتبعون بعض العادات السيئة بلا عقل ولا منطق سليم<sup>(٢)</sup>.

قال الشقيري: انبهرت بفوائد الصوم الكثيرة، فقررت أصوم بشكل متواصل<sup>(٣)</sup>.

يُفضّل الشقيري عدم عمل المرأة خارج البيت، وأن تتفرغ لبيتها وتربية أولادها، وأن لا تعتمد على الخدم، قال: ولا يعني هذا أن عمل المرأة خطأ، فيمكن للزوجين التفاهم في هذا الأمر بما يتناسب مع حالتها، والخطأ أن ينشغل الزوجين في العمل على حساب تربية الأولاد، والاعتماد على الخدم<sup>(٤)</sup>.

قال الشقيري: تعلّمتُ بعد درسٍ قاسٍ أن لا أفتح مشروعًا إلا أن أشرف عليه بنفسي أو أعينُ له مديرًا قويًا أمينًا<sup>(٥)</sup>.

(١) (ص: ٢٧، ٢٨).

(٢) (ص: ٢٩).

(٣) (ص: ٣٠).

(٤) (ص: ٣١).

(٥) (ص: ٣٧).

- لا تُسَلِّفُ أَحَدًا مَبْلَغًا إِلَّا إِذَا أَنْتَ مُسْتَعِدٌّ أَنْ تَخْسِرَ هَذَا الْمَبْلَغَ (١).
- ذكر الشقيري أنَّه شاهد برنامجًا لأحد الدعاة يتكلم فيه عن فضل صلاة الجماعة وأهمية الصلاة في المسجد، فقرر أن يصلي الصلوات الخمس جماعة في المسجد، وذكر أنَّه حصل له خير عظيم بسبب صلاة الجماعة في المسجد (٢).
- ضرب الأولاد ليس أسلوب تربية، وغالبه بسبب ضغط نفسي على الأب أو الأم، فيُفرغونه على أولادهم (٣).
- شرط أساسي لكي يكون عقلك متعلمًا أن تخصص وقتًا ثابتًا للقراءة، غير قابل للتأجيل ولا التأخير ولا المناقشة، ويكون يوميًا (٤).
- حدد لنفسك وقتًا ثابتًا للقراءة في مكان محدد دون وجود الجوال بجوارك، لو خصصت فقط نصف ساعة في اليوم بإمكانك إنهاء ٢٥ كتابًا تقريبًا في السنة (٥).
- يحث الشقيري على الإكثار من العمرة للمستطيع، وذكر أنَّه في سنة ٢٠١٦ م اعتمر أكثر من ٥٠ عمرة، ووجد لذلك أثرًا كبيرًا جدًا في

(١) (ص: ٣٧).

(٢) (ص: ٤١ - ٤٣).

(٣) (ص: ٤٣).

(٤) (ص: ٤٤) نقل الشقيري هذه العبارة من بعض الكتب التي قرأها، وذكر أنها غيرت حياته، حيث خصص ما بين صلاة العصر والمغرب للقراءة بشكل يومي لعدة سنوات، وكان لها دور كبير في رفع مستوى ثقافته.

(٥) (ص: ٤٥).

نفسه<sup>(١)</sup>.

- تربية الأولاد من ولادتهم إلى سبع سنين تكون باللعب والملاطفة والتوجيه بالترغيب، ومن سبع سنوات إلى عشر تكون التربية عن طريق الأمر والصرامة إن لزم الأمر، ومن عشر سنين إلى ١٣ سنة عن طريق الحديث المقنع وإظهار الأسباب وذكر المنافع والمضار، ومن سن ١٣ إلى سن ١٨ سن المصادقة والنصح عن طريق الاقتراحات والمشاورة، وفوق ١٨ سن التسليم أن هذا الإنسان أصبح رجلاً مستقلاً، له حياته، وله قراراته، وتستمر الصداقة مع الأهل<sup>(٢)</sup>. قلت: ويبقى التوجيه والنصح ولو صار الولد رجلاً مستقلاً.
- الكذب يجعل المشكلة جزءاً من المستقبل، بينما الاعتراف بالحقيقة يجعل المشكلة جزءاً من الماضي<sup>(٣)</sup>.
- حب الشهرة الدنيوية من أسوأ أمراض القلب، فهو يؤثر في الإخلاص، ويجعل الإنسان متعلقاً بالبشر، ومن ذلك الاهتمام بعدد المتابعين في وسائل التواصل الاجتماعي، وعدد المشاهدات في اليوتيوب<sup>(٤)</sup>.
- البديل الإيجابي لحب الشهرة الدنيوية هو حب الشهرة الأخروية، أن يحبك الله ويحبك أهل السماء، وأن يذكرك الله سبحانه<sup>(٥)</sup>.

(١) (ص: ٤٨).

(٢) (ص: ٥٢).

(٣) (ص: ٥٤).

(٤) (ص: ٥٩، ٦٠).

(٥) (ص: ٦٠).

- قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، هذه الآية منهج حياة، وقانون كلي، ينبغي حفظها، وتحفيظ الأولاد هذه الآية وتفهمهم معناها، لمواجهة أي قدر مؤلم (١).
- التعامل مع الناس بالرحمة هو عين الحكمة (٢).
- الإحصاءات تذكر أن ٨٠٪ من الفائزين باليانصيب يعلنون إفلاسهم خلال خمس سنوات! فالإنسان غير قادر على التعامل مع النعمة إذا جاءت فجأة بكمية كبيرة جداً، والرزق الكبير المفاجئ يؤدي غالباً إلى البغي في الأرض والفساد، ويكون نقمة لا نعمة (٣).
- من أسباب السعادة تذكر النعم القديمة والنعم الخفية (٤).
- إبليس أذنب فتكبر، وآدم أذنب فتواضع، فاتبع أباك آدم إذا أذنبت فاستغفر (٥).
- خلق الله إبليس ابتلاء للعباد، ومحب الله ينتصر على إبليس والشهوات من أجل الله، ولا وجود للعفة دون إغراء، ولا وجود للصبر دون ألم (٦).

(١) (ص: ٦٣).

(٢) (ص: ٧٠).

(٣) (ص: ٧٥).

(٤) (ص: ٨١، ٨٢).

(٥) (ص: ٨٨).

(٦) (ص: ٨٩).

- أدنى لذات الجسد المأكَل والمشرب، وأعلاها طلب العلم وعمل الصالحات<sup>(١)</sup>.
- اتباع الشهوة ليس حرية بل عبودية، وأول خطوات الخلاص من أسر الشهوات أن تعترف أنك عبدًا لها<sup>(٢)</sup>.
- قصة حياتك تؤلفها عاداتك، غير عاداتك لتغير القصة<sup>(٣)</sup>.
- ألق عن عاداتك السيئة طوعًا قبل أن تضطر إلى الإقلاع عنها غصبًا<sup>(٤)</sup>.
- الشخص الناجح هو الذي يجعل عقله يسيطر على شهواته وعواطفه<sup>(٥)</sup>.
- الإكثار من لذة الجسد يمرض القلب، والإكثار من لذة العقل يداويه، ولذة العقل في القراءة والتفكير<sup>(٦)</sup>.
- من كانت فيه عادة سيئة متأصلة لو جاهد نفسه على تركها أربعين يومًا يسهل عليه تركها وإخراجها من نظام حياته بعد تركها تلك المدة<sup>(٧)</sup>.
- الخلوة صعبة على بعض الناس ولكنها مهمة جدًا لترك العادات السيئة ولتزكية النفس<sup>(٨)</sup>.

(١) (ص: ١٠٣).

(٢) (ص: ١٠٣).

(٣) (ص: ١٠٤).

(٤) (ص: ١٠٥).

(٥) (ص: ١٠٧ - ١١١).

(٦) (ص: ١١٧).

(٧) (ص: ١١٨).

(٨) (ص: ١١٩).

• من المشكلات النفسية:

- (١) التعميم: عندما يكون لديك مشكلة في عمك وتجعلها تؤثر على بقية مجالات حياتك كعلاقتك مع أصحابك وأهلك.
  - (٢) التضخيم: أن تعطي المشكلة أكثر مما تستحق.
  - (٣) التشخيص: أن تجعل كل مشكلة كأنها مشكلة شخصية، فيمكن أن يتعامل معك شخص بشكل عادي لكن أنت تعتبر أنه يهاجم شخصك.
  - (٤) التطويل: أن تعتقد أن كل مشكلة ستطول ولن تنتهي.
  - (٥) التعتيم: أن تنظر إلى كل شيء يحصل معك بنظرة سوداء، حاول وضع الأمور في موقعها الصحيح<sup>(١)</sup>.
- الألم النفسي يكون بالملل والوحدة والغضب والقلق والتعب، ويمكن التغلب على الألم النفسي بالمشي نصف ساعة خارج المنزل أو ممارسة هواية تحبها أو أعمال منزلية لا تحتاج إلى تفكير وتستغرق عشر دقائق أو ربع ساعة، أو الخروج مع صاحبك الذي ترتاح إليه، ولا تجلس على البيوتوب وتشاهد فيديوهات تافهة لتخرج آلامك النفسية؛ لأنك تظن أن هذه الفيديوهات تساعدك على التخلص من الألم وتخرج ما بداخلك لكنها في الحقيقة تستهلك طاقتك<sup>(٢)</sup>.
- أفضل شيء للتغلب على الألم النفسي دعاء الله، والصوم، وينصح

(١) (ص: ١١٩، ١٢٠).

(٢) (ص: ١٢٠، ١٢١).

الشقيري بصوم كل يوم إثنين وخميس أو صوم يوم وإفطار يوم<sup>(١)</sup>. قلت: ومن أعظم ما يعين على التغلب على الألم النفسي: الإكثار من ذكر الله وتلاوة كتابه والصبر والصلاة، ومن الصيام السهل صوم ثلاثة أيام من كل شهر.

● الطفل اليوم متوسط ما يشاهده على التلفاز واليوتيوب ٧ ساعات يوميًا، ويكون عند تخرجه من المدرسة قد شاهد ٨ آلاف مشهد قتل، و ١٠٠ ألف مشهد عنف، وفي المقابل يقضي خمس دقائق يوميًا مع أبيه، وعشرين دقيقة مع أمه، وهذه مصيبة، وسبب لانهايار الأسر، فالكل صار مشغولًا بالتكنولوجيا وفي عالمه الخاص<sup>(٢)</sup>.

● إن كنت تشعر بقيمتك من عدد متابعيك في الشبكات الاجتماعية فاعلم أنها عملة مزيفة<sup>(٣)</sup>.

● قيمة الإنسان الحقيقية في سيطرة عقله على نفسه وشهواته، وليست في ماله ولا منصبه ولا شكله ولا سيارته ولا متابعيه، استمد قيمتك من الله وحده، لا من أصدقاء ولا زوج ولا متابعين<sup>(٤)</sup>.

● الصمت لحظات أقوى من آلاف الكلمات<sup>(٥)</sup>.

● خلاصة تنظيم الوقت أن تقوم بالأعمال المهمة قبل أن تصبح

(١) (ص: ١٢١، ١٢٢، ١٥٦).

(٢) (ص: ١٢٩).

(٣) (ص: ١٣٢).

(٤) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

(٥) (ص: ١٣٤).

## مستعجلة (١).

● كل إنسان مسؤول عن حاله اليوم بسبب قراراته في الماضي، فرد فعلك في أحداث حياتك جزء أساسي في المعادلة، يصل إلى ٩٠ % من الأهمية المحددة للنتيجة، وأهم سبب لفشل الناس: لوم الآخرين، ولوم الظروف، وعدم تحمل النتيجة (٢).

● تحديث الأهداف سبب للهمة والنشاط، واحرص أن تكون لديك أهداف مكتوبة، فهذا أقرب لتحقيقها (٣)، قلت: أو تدعو الله دائماً أن يسهلها لك، فهو الذي يسهل لك الأسباب، ويفتح لك الأبواب، وهو على كل شيء قدير.

● الحرية المالية هي أن تكون لك أصولٌ كعقار أو استثمار تجلب لك دخلاً سنوياً دون حاجتك للعمل من الإيجار والأرباح، ويكون هذا الدخل أكثر من مصاريفك (٤)، قلت: وهذا الأمر لا يستطيعه كل الناس، قال الله تعالى: ﴿لَنْ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

● ينصح الشقيري بالتخطيط المبكر للوصول إلى الحرية المالية، ويحث على الادخار من الراتب الشهري ولو ١٠ %، مع الاستمرار في

(١) (ص: ١٣٥).

(٢) (ص: ١٣٦).

(٣) (ص: ١٣٧).

(٤) (ص: ١٣٨).

- الاستثمار بشكل سنوي، وقال: اعتبر أن دخلك هو ٩٠ % فقط من دخلك الحالي، ونظّم أمورك، واستثمر الباقي بشكل مستمر (١).
- الناس العاديون يقلقون، والحكماء يستعدون، فالإنسان العادي يجعل القلق يسيطر عليه، ويبقى في الألم حتى يحصل الموقف، والحكيم يقضي على القلق بالاستعداد له (٢).
- خلق الله الإنسان من أجل عبادة الله والالتزام بالأخلاق الفاضلة، وبذلك تتحقق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة (٣).
- الأكل الصحي يورث نشاطاً، والأكل غير الصحي يورث خملاً (٤).
- السكر المعالج والحلويات تسبب ضعف مناعة الجسم، وزيادة الوزن، وفيها كثير من المضار الصحية، والبديل العسل والفواكه (٥).
- ينصح الشقيري بتقليل استعمال الإنترنت في وسائل التواصل الاجتماعي، فهو سبب عظيم لضياع الأوقات، وتشتيت الذهن، وتقليل الإنتاج (٦).
- لو عشت ٨٠ سنة بمعدل نوم ٧ ساعات فستقضي ٢٣ سنة من حياتك في النوم، فينبغي تحسين الفرش والمخدة التي تنام عليهما، وشراء نوع

(١) (ص: ١٣٨، ١٣٩، ١٦٦).

(٢) (ص: ١٤٠).

(٣) (ص: ١٤٣).

(٤) (ص: ١٥١).

(٥) (ص: ١٤٩، ١٥٨).

(٦) (ص: ١٦٢).

أفضل مريح<sup>(١)</sup>.

• السر في الاستيقاظ بنشاط ليس عدد ساعات النوم، فقد تستيقظ بخمول بعد نوم ٨ ساعات، وأحياناً تستيقظ بنشاط بعد ٣ ساعات، والسر أنّ النوم يمر بدورة تتكرر كل ساعة ونصف، بين النوم العميق والنوم الخفيف، فإذا استيقظت في مرحلة النوم العميق ستكون خاملاً، وإذا استيقظت في مرحلة النوم الخفيف ستستيقظ بسهولة<sup>(٢)</sup>.

• ينصح الشقيري ببدء اليوم بصلاة الفجر جماعة في المسجد، ففي ذلك سر عظيم من أسرار البركة والتوفيق في الحياة، وأسوأ شيء البدء في الصباح الباكر الانشغال بالنظر في الهاتف والبريد ووسائل التواصل الاجتماعي<sup>(٣)</sup>.

• من كان ينقصه نوم أو يشعر بخمول فليمن نومة خفيفة لا تتعدى نصف ساعة، والأفضل أن لا تكون على سرير، ولا في مكان مظلم، وهي تساعدك على النشاط باقي يومك<sup>(٤)</sup>، قلت: ومن أحسن أوقاتها وقت القيلولة قبل الظهر أو بعد الظهر أو قبل العصر، ويكفي فيها الاسترخاء بلا نوم ولو ثلث ساعة.

• ترتيب الأوراق يرفع الإنتاجية ويقلل الأخطاء ويوفر الوقت ويحسن النفسية ويجمل المكان، فأني ورقة لديك فإما أن تنفذها وتعمل عليها أو

(١) (ص: ١٦٣).

(٢) (ص: ١٦٣).

(٣) (ص: ١٦٤).

(٤) (ص: ١٦٤).

تسلمها لمن يعمل عليها أو تتخلص منها بالتقطيع إن لم تكن مهمة أو تضعها في مكان مناسب إن كنت تريدها خلال شهر أو تضعها في ملف منظم إن كان تخزينها طويل الأجل، وينبغي تنظيف الأدراج والمكتب من الأوراق بترتيبها أو تخزينها أو إتلاف ما لا يحتاجه منها<sup>(١)</sup>.

• قانون الخمس دقائق، إذا لم تنتشط للقيام بعمل، فاخذع نفسك بأنك ستقوم بذلك العمل خمس دقائق فقط ثم تقطع العمل، في أغلب الأحيان ستجد نفسك تكمل المهمة بلا توقف، فأصعب شيء على النفس هو البدء في العمل، فإذا بدأت به فإكماله يسهل عليها<sup>(٢)</sup>.

• قانون رد الفعل، كل شيء تقوم به من الخير أو الشر سيعود إليك ولو بعد حين، فمن أحسن إلى غيره سيجد من يُحسن إليه، ومن ظلم غيره سيجد من يظلمه، وهكذا<sup>(٣)</sup>. قلت: ومن ذلك الصدقة، فهي سبب لتيسير الله على عبده، ويعطيه خيراً مما أنفق في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سبا: ٣٩].

• حاول الالتزام بالقراءة اليومية ولو لمدة نصف ساعة<sup>(٤)</sup>.

• القراءة الصوتية مفيدة، فتستطيع أن تسمع بعض الكتب وأنت تقود

(١) (ص: ١٦٤).

(٢) (ص: ١٦٥).

(٣) (ص: ١٦٦).

(٤) (ص: ١٦٧).

السيارة أو تزاول الرياضة، والكتب المسموعة منتشرة في اليوتيوب وغيره (١).

اجلس وحدك واكتب وصيتك وسلمها إلى أقرب الناس إليك، اكتب فيها ما تريد وقفه من ثروتك، وكيف يتصرف الناس بحساباتك في مواقع التواصل الاجتماعي، واكتب رسائل لأقرب الناس إليك (٢).

المميزون في أي مجال من المجالات وراء تميزهم سنوات من الجهد والتعب (٣).

الخوف من الألم أسوأ من الألم نفسه (٤).

كل ما تعانيه هو بسبب طريقة تفكيرك وتحليلك للأمور، فإذا غيرت طريقة تفكيرك تغيرت مشاعرك وتغير سلوكك (٥).

لا يوجد وقت أفضل من الآن، فابدأ فعل الخير في دينك ودنياك من الآن، ولا تحزن على الماضي، ولا تخف من المستقبل (٦). قلت: مثاله: لو بدأت بحفظ القرآن قبل خمس سنوات ستكون قد أنهيت حفظه، فإن لم تفعل فأفضل وقت تبدؤه لحفظ القرآن هو الآن، ولو غرست شجرة مثمرة قبل خمس سنوات ستكون الآن تجني ثمارها، فإن لم تفعل فأفضل وقت

(١) (ص: ١٦٧).

(٢) (ص: ١٧١).

(٣) (ص: ١٨٧).

(٤) (ص: ٢٢٤).

(٥) (ص: ٢٣٢).

(٦) (ص: ٢٣٣).

لغرس شجرة هو الآن، فابدأ من الآن في فعل أي خير ديني أو دنيوي، ولا تسوّف.

• وقتك ثمين، فقم بتفويض أي عمل يمكن غيرك القيام به بمثل المستوى نفسه<sup>(١)</sup>. قلت: هذا لمن كان وقته مزحومًا بالأعمال، وعليه أن يعطي من فوّضه أجرته بلا بخس.

• مما يزيد حكمتك: الكتب التي تقرأها، والأشخاص الذين تقابلهم<sup>(٢)</sup>.

• من العبارات التي تخفف توتر من تخاطبه وتزيل غضبه أن تقول له: لا ألومك لمشاعرك هذه، فلو كنت مكانك ربما شعرت بنفس شعورك، ثم بعد ذلك تنصحه بما تريد بعد أن خفت غضبه وتوتره<sup>(٣)</sup>.

• الناس يحبون من يتعاطف معهم<sup>(٤)</sup>.

• التطوع بمساعدة الآخرين بالمال والوقت والخبرة والمهارة متعة، وهو سبب عظيم لصحة الجسم وطيب النفس وطرده الاكتئاب والقلق<sup>(٥)</sup>. قلت:

ويدل على هذا قول تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٥٦)</sup>

[الأعراف: ٥٦]، وقول النبي ﷺ: «وَاللَّهِ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ

أَخِيهِ»<sup>(٦)</sup>.

(١) (ص: ٢٣٣).

(٢) (ص: ٢٣٣).

(٣) (ص: ٢٣٤).

(٤) (ص: ٢٣٤).

(٥) (ص: ٢٣٧).

(٦) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة هـ.

الناس ثلاثة: حزين بماضيه، ومهموم بمستقبله، ومطمئن بربه (١).



(١) (ص: ٢٦٦).

## الخاتمة

ذم الله سبحانه التفرق والاختلاف في الدين، ونهى عن جميع الطرق والأسباب المؤدية إليه، وجاءت النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية تحذّر من التفرق والاختلاف، وتبين سوء عاقبته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فالمسلمون دينهم واحد، ويجب أن يكونوا أمة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٣].

وقد أوصى الله جميع الأمم بإقامة الدين الذي أنزله الله على أنبيائه، وعدم التفرق فيه، وبيّن أنّ التفرق وقع من الناس مع وجود العلم بسبب البغي والظلم، وهذه الخلافات الكثيرة فيها تصديق لقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقد أخبرنا النبي  $\gamma$  بوقوع الخلافات الكثيرة في أمته، ودلنا على المخرج منها باتباع القرآن الكريم وسنته، ففي حديث حذيفة  $\eta$  أن النبي  $\gamma$  أوصاه عند الفتن بتعلم القرآن الكريم واتّباعه، قال: «يَا حُدَيْفَةُ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ» قالها ثلاث مرات (١)، وهي وصية لجميع الأمة، فإن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فمن تعلمه وتدبره واتّبعه اهتدى.

وفي حديث العرباض بن سارية  $\eta$  أن رسول الله  $\gamma$  قال: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّبِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (٢).

فهذه الخلافات الكثيرة هي من أعظم الاختبار الذي يختبر الله به عباده، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ نُطِعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٧].

وقد أوصانا الله سبحانه بترك البدع والمحدثات، وأمرنا بلزوم الصراط المستقيم الذي يجب علينا أن نسأل الله الهداية إليه في كل صلاة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والصراط المستقيم هو الإسلام الذي شرعه الله لعباده، وهو الطريق الواضح الذي لا

(١) رواه أحمد (٢٣٢٨٢) وأبو داود (٤٢٤٦) وحسنه الألباني والأرناؤوط.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه ابن حبان والألباني والأرناؤوط.

اعوجاج فيه، وهو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وأصحابه الذين أمرنا الله أن نتبعهم بإحسان، وعلينا أن نقول في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

والإسلام جاء لإصلاح الناس في دينهم ودنياهم، وهو شامل كامل في جميع نواحي الحياة، وجاء الإسلام بما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، وعلمنا الله أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

ومن الخطأ أن لا يهتم المسلم بدنياه وبدنه، وأن يُحرّم على نفسه ما أحل الله، فهذا مخالف لما أمر الله به عباده، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِء مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨]، وقال ع: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والإسلام يحث المسلمين على كل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ففي الحديث الصحيح الذي يعتبر قانوناً ومنهجاً للمسلمين في جميع أمورهم، أفراداً وشعوباً ودولاً: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»<sup>(١)</sup>، فالمسلم مأمور أن يحرص على ما ينفعه في دينه أولاً ودنياه ثانياً، ومن ذلك

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ع.

أن يتزود من العلوم النافعة الدينية والدينيوية، وأن يتقن عمله، وأن يحرص أن يكون قويًا نافعًا للناس بأي قوة تتيسر له، إما بقوة بدنه أو قوة ماله أو قوة علمه أو قوة اختراعاته وإبداعاته التي تنفع الناس، ﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

## المحتويات

- المقدمة ..... ٥
- (١) هداية القرآن وتبينه لكل شيء ..... ١١
- (٢) بيان أن معاني آيات القرآن ترجع إلى سورة الفاتحة ..... ١٨
- (٣) طرق تفسير القرآن الكريم ووجوب تدبره وكيفية الاستنباط منه ..... ٣٦
- (٤) نشأة علم التفسير ..... ٣٩
- (٥) التجديد في علم التفسير ..... ٤٤
- (٦) عدم التعارض بين الأمر بتدبر القرآن وفهمه كما فهمه السلف ..... ٥٣
- (٧) أين الله؟ ..... ٦٠
- (٨) أهمية السنة النبوية وتدوينها ..... ٦٦
- (٩) خطورة التكذيب بما صح من حديث رسول الله ﷺ ..... ٧٤
- (١٠) خطورة الظن السيء بالعلماء الراسخين ..... ٨٤
- (١١) تعريف بالإمام البخاري وصحيحه ..... ٨٩
- (١٢) هل البخاري معصوم في كتابه الصحيح؟ ..... ١٠٣
- (١٣) تعليل أحاديث الصحيحين بين المحدثين والمعرضين ..... ١١٠
- (١٤) أقسام الأحاديث النبوية وحجية أحاديث الآحاد الصحيحة ..... ١١٦
- (١٥) لماذا دون العلماء السابقون الأحاديث والآثار الضعيفة؟ ..... ١٢٢
- (١٦) جواز ذكر الحديث الضعيف في الفضائل من غير جزم بثبوته ..... ١٢٨
- (١٧) مشروعية اجتهاد العلماء فيما ليس فيه نص ولا إجماع ..... ١٣٧

- ١٤٦ ..... (١٨) أسباب اختلاف الفقهاء
- ١٥٢ ..... (١٩) وسطية الإسلام
- ١٥٧ ..... (٢٠) شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان
- ١٦٩ ..... (٢١) دين الأنبياء واحد متفق في الأصول وإن اختلفت الشرائع
- (٢٢) عموم رسالة النبي محمد لجميع الإنس والجن وكفر من لم يؤمن به
- ١٧٦ .....
- ١٨١ ..... (٢٣) أصناف الكفار
- ١٨٦ ..... (٢٤) ظلم أهل الكتاب لعدم إيمانهم بالنبي محمد ﷺ
- (٢٥) مصير الكفار المعاصرين الذين سمعوا عن الإسلام ولا يعرفون حقيقته
- ١٩٢ .....
- (٢٦) وجوب موالاتة المؤمنين وبغض الكافرين والحذر من الاغترار بهم ٢٠٢
- ٢٠٨ ..... (٢٧) نهي المؤمنين عن استعجال عذاب الكافرين
- ٢١٣ ..... (٢٨) الجهاد في سبيل الله
- ٢٣٠ ..... (٢٩) الإحسان إلى الكافر غير الحربي وجواز بدئه بالسلام
- ٢٤٢ ..... (٣٠) دعوة الكافرين بالقرآن الكريم
- ٢٤٧ ..... (٣١) لا إكراه في الدين
- ٢٥٦ ..... (٣٢) الردة عن الإسلام وحكم المرتد
- ٢٦٣ ..... (٣٣) كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة
- ٢٧٢ ..... (٣٤) التحذير من بدعة الإرجاء التي انتشرت بين غالب المسلمين
- ٢٨٣ ..... (٣٥) الحكم لله وحده، وخطورة القول بلا علم في دين الله
- ٢٨٩ ..... (٣٦) وجوب تحكيم الشريعة في أمور الدين والدنيا
- ٢٩٦ ..... (٣٧) معنى العبادة، وشمولها طلب الرزق الحلال وإصلاح الدنيا

- ٣٠٣ ..... الحكمة من إيلام الحيوانات وإباحة ذبحها ووقوع الأمراض
- ٣١٧ ..... (٣٩) هل يجب على المسلمين أن يكونوا أفضل من الكفار في أمور الدنيا؟
- ٣٣٠ ..... (٤٠) أسباب النصر والتمكين
- ٣٥٢ ..... فوائد منتقاة من كتاب (أربعون) للشقيري
- ٣٦٨ ..... الخاتمة
- ٣٧٢ ..... المحتويات
- ٣٧٥ ..... التعريف بمؤلف الكتاب

## التعريف بمؤلف الكتاب



**الاسم:** محمد بن علي بن جميل المطري

**الدرجة العلمية:** دكتور

**تاريخ الميلاد:** ٢٤ شهر ربيع ثاني ١٣٩٨ هـ

**الموافق:** ١٩٧٨/٣/٤ م

**الحالة الاجتماعية:** متزوج وله ٦ أولاد.

**العمل:** باحث شرعي + محاضر جامعي.

### ❖ المؤهلات الأكاديمية:

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا (٢٠٢١)

ماجستير في الدراسات الإسلامية، جامعة الأندلس، اليمن (٢٠١٧)

بكالوريوس في الدراسات الإسلامية، جامعة العلوم والتكنولوجيا، اليمن (٢٠١٢)

عدة إجازات قرآنية في روايتي حفص وشعبة عن عاصم، وروايتي قالون وورش عن نافع.

عدد من الإجازات العلمية الخاصة والعامة في كتب التفسير والحديث والفقہ والعقيدة واللغة العربية وأصول الفقہ والقواعد الفقہية.

شهادة تخرج من برنامج رعاية الموهوبين في صنعاء (٢٠١٢)

**مجالات التخصص:** القرآن الكريم والتفسير وعلوم القرآن والسنة النبوية والفقہ المقارن والعقيدة.

### ❖ الخبرات العلمية والعملية:

عضو اللجنة العلمية للبحوث في مؤسسة الدرر السنية (٢٠١٥ – ٢٠٢٣)

مراقب شرعي في قناة يسر الفضائية ومسئول مركز الفتوى في القناة (٢٠١٣ – ٢٠١٥)

مدقق ومصحح لغوي وإملائي في دار الصديق للنشر والتوزيع - صنعاء (٢٠٠٥ - ٢٠٠٨)

من المشاركين في تأليف موسوعة التفسير في موقع الدرر السننية (التفسير المحرر) مطبوع في ٤٤ مجلدًا.

من المشاركين في تأليف موسوعة العقيدة في موقع الدرر السننية.

من المشاركين في تأليف موسوعة الفرق في موقع الدرر السننية.

من الباحثين في موسوعة الهدايات القرآنية بإشراف جامعة أم القرى - مكة المكرمة. محاضر جامعي عن بعد في الجامعة الأمريكية المفتوحة، وفي جامعة المدينة العالمية بماليزيا.

قام بالتدريس في كثير من المساجد والمراكز العلمية في صنعاء وغيرها، ومما درّسه: القرآن الكريم، والتفسير، وعلوم القرآن، والتجويد، والحديث متنا وإسنادا، ومصطلح الحديث، والنحو، وأصول الفقه، والفقه الشافعي، والفقه المقارن، والتوحيد، والعقيدة، والسيرة النبوية، والتاريخ، والأدب.

قام بمراجعة كثير من المحاضرات والدروس والفتاوى المنشورة في موقع الشبكة الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف القطرية حين كان يعمل مصححًا في دار الصديق في صنعاء.

قام بالإمامة والخطابة في عدة مساجد في صنعاء وبعض ضواحيها.

قام بعدة رحلات دعوية في قرى محافظة صنعاء وحضرموت ويافع وشبوة.

سافر إلى دولة بوروندي في شرق أفريقيا، وإلى دولة توغو في غرب أفريقيا للإشراف على الدعاة.

كتب كثيرًا من الكتب والرسائل والأبحاث والمقالات العلمية والدعوية، ونُشر له في شبكة الألوكة أكثر من ٣٠٠ كتابًا وبحثًا ومقالةً، وله مقالات منشورة في مجلة تدبر ومجلة القلم ومجلة البيان.

**مجالات البحث الحالية:** التفسير، وعلوم القرآن، والهدايات القرآنية، والسنة النبوية، والفقه، والعقيدة، والفكر التربوي، وثقافة المجتمع.

❖ بعض البحوث المنشورة مع بيان تاريخ نشرها:

(٢٠١٢) فقه الخلع، وهو بحث استكمال متطلبات الحصول على درجة البكالوريوس في تخصص الدراسات الإسلامية.

(٢٠١٧) الخطأ في نسبة الأقوال في كتب التفسير، وهو رسالة الماجستير.

(٢٠٢١) الهدايات القرآنية في سورة الأعراف من الآية (١٧١) إلى آخر السورة وفي

سورة الأنفال من الآية (٤٠-١) دراسة تطبيقية، وهو بحث الدكتوراه في كلية العلوم

الإسلامية بجامعة المدينة العالمية بماليزيا، وهو ضمن (الموسوعة العالمية في الهدايات

القرآنية)، بإشراف جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(٢٠١٩) الهدايات القرآنية المستنبطة من آية: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ [آل

عمران: ١٥٩] مجلة تدبر - السعودية، السنة الرابعة، العدد (٧).

(٢٠٢١) الهدايات القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾

[الأعراف: ١٨٠] مجلة تدبر - السعودية، السنة السادسة، العدد (١١) مشترك.

(٢٠٢١) الهدايات القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، مجلة القلم العدد ٢٧، مشترك.

### ❖ أهم الكتب والبحوث المنشورة في شبكة الألوكة مع بيان تاريخ نشرها:

(٢٠١٢) نبي الرحمة محمد ﷺ.

(٢٠١٣) آداب دخول الإنترنت.

(٢٠١٣) الدعوة والدعاة في بوروندي.

(٢٠١٤) تسهيل حفظ أسماء الله الحسنى.

(٢٠١٤) عدد أحاديث أبي هريرة هـ (تحقيق واستقراء).

(٢٠١٤) سيرة أبي هريرة هـ.

(٢٠١٤) الأحاديث الصحيحة التي تفرد بروايتها أبو هريرة هـ.

(٢٠١٤) الأحاديث القصار (٢٠٠ حديث من الصحيحين).

(٢٠١٤) الكبائر المائة الثابتة في الكتاب والسنة.

(٢٠١٤) التجديد عند المفسرين.

(٢٠١٤) إظهار الحقيقة ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم: ٣٤].

(٢٠١٥) إتحاف الطلاب بتلخيص أحكام الطلاق.

- (٢٠١٥) مقدمة في علوم القرآن.
- (٢٠١٥) مقدمة في تخريج الحديث ودراسة الأسانيد.
- (٢٠١٥) الرياحين اليمانية ١٠٠ مسألة في العقيدة.
- (٢٠١٥) أخلاق المسلم والمسلمة.
- (٢٠١٥) قصة نشأة المذاهب الفقهية المشهورة وسبب انتشارها دون غيرها.
- (٢٠١٦) المسؤولية في الإسلام.
- (٢٠١٦) مائة آية في فضل الصحابة.
- (٢٠١٦) الخلاف في المسائل الاجتهادية.
- (٢٠١٧) كتب وتواريخ.
- (٢٠١٧) ١٢ دليلاً من القرآن على إثبات عذاب القبر ونعيمه.
- (٢٠١٧) أشهر العلماء المؤلفين في الإسلام وأشهر كتبهم المطبوعة.
- (٢٠١٨) الحفاظ الأربعون تراجم مختصرة لأشهر حفاظ السنة النبوية.
- (٢٠١٨) بيان الربا وأحكام بيع الذهب والفضة وصرف العملات النقدية.
- (٢٠١٩) أبرز علماء الإسلام الذين أثروا العلم وأثروا بجهودهم العلمية فيمن بعدهم.
- (٢٠١٩) آيات من القرآن الكريم تدل على المرور على الصراط.
- (٢٠١٩) أشهر المفسرين عبر القرون.
- (٢٠١٩) فوائد متفرقة في كتب التفسير.
- (٢٠١٩) من أخطاء بعض طلاب العلم.
- (٢٠١٩) Meanings English - Selections from the holy Quran
- (٢٠٢٠) ٢٠ آية قرآنية تدل على إثبات القضاء والقدر.
- (٢٠٢٠) مشروعية التأمين في الصلاة والدعاء.
- (٢٠٢٠) فوائد وتنبيهات في مسائل الصفات.
- (٢٠٢٠) ضبط اسم السَّيِّئِ وبيان معناه.
- (٢٠٢٠) الفرق بين التفضيل من حيث الجملة ومن حيث الأفراد.
- (٢٠٢١) فوائد وتنبيهات في الأدعية والأذكار.
- (٢٠٢١) أفضل الدعاء من القرآن الكريم.

- (٢٠٢١) التسهيل في تدبر جزء عم مع سورة الفاتحة وآية الكرسي.
- (٢٠٢٢) التسهيل في تدبر جزء تبارك.
- (٢٠٢٢) الرد على من يصف الصحابة بالنفاق.
- (٢٠٢٢) قصة نشأة الفرق في الإسلام وأسباب الضلال.
- (٢٠٢٢) بداية المُحدِّث ٥٠ حديثاً بالإسناد للمبتدئين في علم الحديث.
- (٢٠٢٢) فصول مهمة في السنة النبوية.
- (٢٠٢٢) تقريب الهدايات القرآنية.
- (٢٠٢٢) نُسخ التفسير القديمة.
- (٢٠٢٢) فائدة مهمة في أسانيد القراءات المتواترة.
- (٢٠٢٢) حكم العذر بالجهل.
- (٢٠٢٢) اتباع السلف الصالح بإحسان بلا طغيان.
- (٢٠٢٣) فصول مهمة في تاريخ التفسير.
- (٢٠٢٣) آيات صلاح القلوب والأخلاق.
- (٢٠٢٣) برنامج همم لجرد المطولات.
- (٢٠٢٣) خلاصة مناسك الحج والعمرة.
- (٢٠٢٣) نصائح مهمة للمبتدئين في طلب العلم.
- (٢٠٢٣) عبادة الشكر.
- (٢٠٢٣) هو الله ذو الجلال والإكرام.
- (٢٠٢٣) جامع الدعوات (٣٤٠) دعاء من القرآن والسنة وأدعية الصحابة.
- (٢٠٢٣) المختار من جامع الدعوات.
- (٢٠٢٣) خلاصة السيرة النبوية.
- (٢٠٢٣) تهذيب كتب الزهد المسندة.
- (٢٠٢٣) الزهد الصغير.
- (٢٠٢٣) تفسير آيات إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين.
- (٢٠٢٤) خلاصة أحكام الصيام.
- (٢٠٢٤) القواعد الثمان الكافية في الرد على زنادقة مركز تكوين الملاحدة.

(٢٠٢٤) الخلاصة النافعة في أحكام الحج والعمرة.

(٢٠٢٤) مشروعية الفرح في الأعياد والترويح عن النفس بالمباحات.

#### ❖ المشاركة ببحوث في مؤتمرات:

- الهدايا القرآنية في قصة ذي القرنين، المؤتمر القرآني الدولي السنوي، مقدس ٨، الذي ينظمه مركز بحوث القرآن، جامعة مالايا، ماليزيا، ١٤-١٥/١١/٢٠١٨م.
- الهدايا القرآنية المستنبطة من آية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، مؤتمر هدايات القرآن في بناء الإنسان، الذي ينظمه وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني، مكة المكرمة، ٣-٥/٩/٢٠٢٤م.

#### ❖ أهم الأعمال العلمية والدعوية:

- مجموعة درر من علوم القرآن والسنة في الواتس والتيلجرام.
- المشرف العام على برنامج هَمَّ لجرد المطولات.
- مجالس علمية أسبوعية على اليوتيوب في قناة كتاب في ساعة.

#### ❖ رابط الموقع الشخصي في موقع الألوكة:

د. محمد بن علي بن جميل المطري - شبكة الألوكة - الكتاب والمفكرون  
(alukah.net)

#### ❖ رابط الصفحة الرسمية في الفيس بوك: محمد المطري أبو الحارث

<https://cuts.top/IQIL>

#### ❖ التواصل:

هاتف وواتس: ٠٠٩٦٧٧٧٧١٧٥٩٢٧

البريد الإلكتروني: matari63@hotmail.com

## هذا الكتاب

كتاب (أربعون) للأستاذ المشهور/ أحمد الشَّقيري كتابٌ فيه فوائد طيبة، ونصائح مفيدة، وجُكم متنوعة، لكنه اشتمل على عدة أخطاء عقديّة ومنهجية خطيرة، تضر قارئ الكتاب في عقيدته ومنهجه طول حياته إن سلّم بها ولم يُنكرها، ومن ذلك الخلل في تعريف الكفار، والغلو في بدعة الإرجاء، وتمييع شعيرة الولاء والبراء، ورد بعض الأحاديث الصحيحة التي أجمع أهل الحديث على ثبوتها. وقد كتب المؤلف هذا النقد نصيحة لقراء كتاب (أربعون) والمعجبين بكاتبه أحمد الشقيري وفقنا الله وإياهم لكل خير في الدنيا والآخرة؛ لأنّ بعضهم قد لا يُميّز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، لا سيما مع كثرة فوائد كتاب (أربعون)، فكتب المؤلف هذا الكتاب نصيحة لهم، فالدين النصيحة، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. عقد المؤلف في هذا الكتاب (الأربعون) أربعين فصلاً، في كل فصل تصحيح بعض المفاهيم التي أخطأ فيها الشقيري أو فيها بيان واضح لبعض المفاهيم العقدية والحقائق العلمية التي يجب معرفتها والتأكيد عليها والتذكير بها. وذكر المؤلف المطري في آخر كتابه فوائد حسنة منتقاة من كتاب (أربعون)، وهذا من الإنصاف للشقيري، ومن النصح للقراء حتى لا تفوتهم تلك الفوائد الحسنة. والله الموفق.

